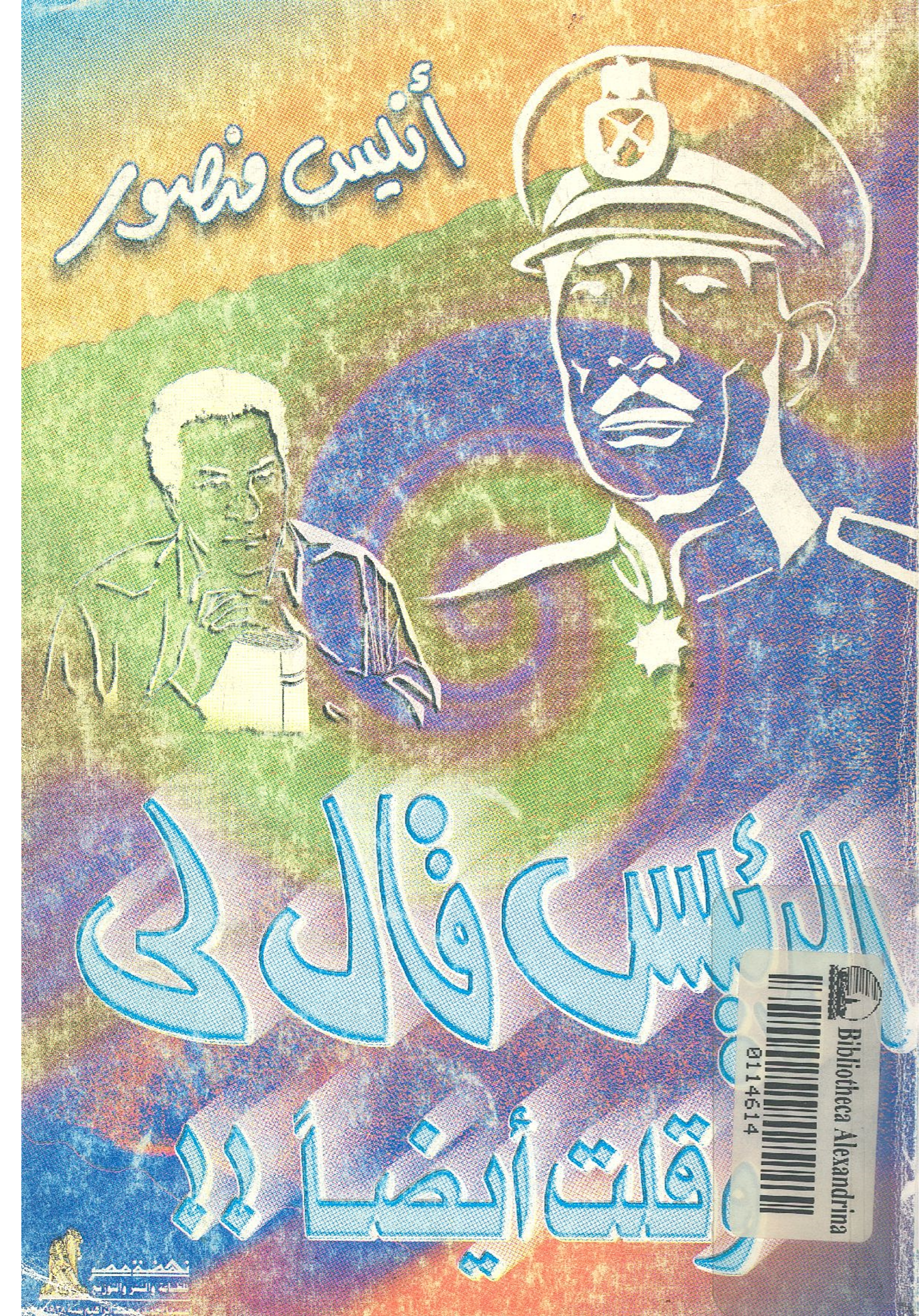


أنيس منصور
الرئيس قال لى
وقلت أيضاً !!
نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

أنيس منصور

الرئيس قال لى

وقلت أيضا!!

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨

عنوان الكتاب: الرئيس قال لي وقلت أيضا !!

اسم المؤلف: أنيس منصور .

تاريخ النشر: مارس ١٩٩٨

رقم الإيداع: ٢٨٤٩ / ١٩٩٨ .

الترقيم الدولي: I . S . B . N 977 - 14 - 0698 - 1

الناشر: **دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع**

المركز الرئيسي: ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة

مدينة السادس من أكتوبر

ت: ٣٣٠٢٨٧ – ٣٣٠٢٨٩ / ٠١١ .

فاكس: ٣٣٠٢٩٦ / ٠١١ .

مركز التوزيع: ١٨ ش كامل صدقي – الفجالة – القاهرة .

ت: ٥٩٠٩٨٢٧ – ٥٩٠٨٨٩٥ / ٠٢ .

فاكس: ٥٩٠٣٣٩٥ /٠٢ .

ص.ب: ٩٦ الفجالة

ادارة النشر: ٢١ ش أحمد عرابي – المهندسين – القاهرة

ت: ٣٤٦٦٤٣٤ – ٣٤٧٢٨٦٤ / ٠٢ .

فاكس: ٣٤٦٢٥٧٦ /٠٢ .

قال الرئيس السادات :

● هنأت الرئيس ريجان.. على تسليحه للسعودية !!
● وافقت على أن يبنى الأمريكان قواعد للجيش المصرى !!
● فليأت شارون فى أى وقت وسوف نناقشه !!

سيادة الرئيس:

هل لو سألتك عن «الجديد» فى الموقف العربى ، يكون هذا السؤال قديماً . . أو يكون بلا معنى ، لأن الموقف العربى قد بلغ درجة الهذيان . . فلا أحد يعرف له أولاً من آخر ، أو رأساً من ذيل . . إلا إذا كانت هناك تطورات لا نراها ، واتصالات لا نعرفها ، وأنها سوف تؤدى حتما إلى تغيير له معنى فى الموقف العربى ؟ . . لقد سمعتك منذ أيام تتحدث إلى شخصية أوروبية وتقول إن الموقف العربى أقرب إلى ما يكون إلى مسرح اللامعقول . .

أجاب:

هو كذلك مع الأسف الشديد . ولو كان الأمر يتعلق بتأليف مسرحى ، أى أن يمسك الكاتب قلما ويتخيل ما يحلو له ، لهان الأمر . ولكن فى الموقف العربى لا توجد أقلام إنما توجد مدافع وصواريخ ، وإنها تكتب بالدم . . صحيح أن هناك أقلاماً ، ولكن هذه الأقلام تكتب الشيكات بمئات الملايين من الجنيهات ، ثمناً للدماء العربية البريئة ! . .

سيادة الرئيس:

ألا ترى أن تعميم الكلام عن الشرق الأوسط ينال من مصر أيضاً ، وهى قمة الشرق الأوسط ؟ . . ألا ترى أننا بذلك ندين مصر بأن موقفها هو الآخر غير معقول ؟ . .

أجاب:

نعم هذه إدانة لمصر . ويدهشك أن تعرف أننى طالبت العرب أن يدينوا مصر . . وأن يقولوا إن السادات أخطأ . لقد طالبت الرئيس حافظ الأسد بذلك قبل سفرى إلى القدس بيومين . قلت له اخرج فى مؤتمر صحفى واتهمنى . قل إننى غلطان . قل إننى متفق معك فى الهدف ، ومختلف معك فى الطريقة . . فليس من الضرورى أن نتفق تماماً ، فكل منا له ظروفه وقدرته على إقناع شعبه بعدالة قضيته . . ولم يفعل حافظ الأسد شيئاً من ذلك . . لقد أعجبنى بعض الزعماء الأوروبيين . قالوا : إن النصف الأول من اتفاقية كامب دافيد لا اعتراض لنا عليه . . فالسادات حر فيما يخص مصر . .وهذا شأنه هو وشعبه ، ولكن لنا تحفظات على النصف الثانى من الاتفاقية . الخاص بالحكم الذاتى . والعبرة بالنتيجة . لا بأس أن يقال ذلك . ولا بأس أن يكون الموقف تحدياً لنا جميعاً : أينا على صواب . . وأينا على خطأ . ليت أحداً فعل ذلك . ولكن كما هو حال العرب دائماً يقولون : لا . . لا لأى شىء ودون إبداء للأسباب . .

سيادة الرئيس:

إذن فكل الذى نقول ليس جديداً . وبذلك يصبح من الصعب أن نمسك بداية خط النسيج العربى المهلهل ، وإن كان من السهل أن نقول لأنفسنا ونحن ننظر إلى الفوضى السياسية والعسكرية فى الشرق الأوسط : لا توجد حقيقة واحدة قد اتفق عليها العرب ، أو اتفق عليها العالم . .

أجاب:

بل هناك حقيقة واحدة لاخلاف عليها . هى الحقيقة الإيجابية الباهرة التى استحقت إعجاب العالم كله : أنه لا حرب بعد حرب أكتوبر كما أعلنت فى الكنيست . . ولم يكن ذلك مجرد إعلان أو شعار . إنما هو حقيقة . قد وصلنا إليها بالحوار وبالاختلاف والاتفاق . وليس أى إنسان فى حاجة إلى عبقرية خارقة لكى يرى أن إسرائيل تنسحب من سيناء ، وأننا الآن نبحث قوات الطوارىء التى تحمى الانسحاب إلى الحدود الدولية . هذه هى الحقيقة المؤكدة . وما عداها جهل ووهم وكلمات أخرى كثيرة أعف عن ذكرها . .

ويكفى أن ترى ما الذى فعلته وتفعله سوريا فى لبنان . إنك أمام واحد بلطجى

معه دبابات وصواريخ ويدوس الأبرياء الذى ادعى أنه ذهب يدافع عنهم - وبقية هذه المأساة معروفة لنا جميعا - هل هناك تناقض فاضح أكثر من ذلك ؟! . .

سيادة الرئيس:

هل هذا هو التناقض الوحيد فى العالم العربى ؟ . . إن هناك تناقضات أخرى ولكن على مستويات أكثر احتراماً . . مثلاً : كيف تعطى مصر سلاحاً للعراق ، وهو الذى تزعم معسكر الرفض والتجريح والتشهير بمصر ، واستئجار الأقلام التى يستعديها علينا ، وتعلن أن الرئيس صدام حسين مرة صلاح الدين ومرة جمال عبد الناصر ؟ . ثم بعد أن يحصل العراق على الأسلحة التى نسفتها طائرات الخومينى ، ينكر هذه الصفقة ويمضى فى مهاجمة مصر . . ومادامت مصر تستنكر الحرب بين إيران الإسلامى والعراق الإسلامى ، أفلا يكون إعطاء أسلحة للعراق تشجيعاً على استمرار هذه الحرب ولو يوماً واحداً ؟ . .

أجاب:

يبدو متناقضاً . معك حق . . ولكن عندى أسباباً أخرى . وقد شرحتها فى مناسبات كثيرة . ولا مانع من أن أعيدها ، وهى أن العرق قد ساعدنا بالصواريخ فى حرب أكتوبر . ونحن نذكر له هذا الموقف ولن ننساه . . إنها مسألة أخلاقية . فإذا جاء العراق وطالبنا بهذا الدين الأدبى ، فسوف ننهض لمساعدته . . تماماً كما تكون مدينا لأحد . ويجىء صاحب الدين يطالبك به . فأنت تبادر برد الفلوس ، دون أن تشترط عليه أين وكيف ينفقها ؟ وقد علمتنى التجارب أن هناك مسافة كبيرة بين علم الحساب وعلم التاريخ . . فالخط مستقيم على الورق ، ولكنه لا يستقيم دائماً فى الحياة . . ففى الحياة ظروف ضاغطة تجعل الأشجار تهتز والأمواج ترتفع ، وهى جميعاً تجعل أكثر الأشكال استقامة تلتوى ، وأكثرها رسوخا ترتجف . . ولذلك فأنا أعرف ظروف الآخرين وأقدرها وأنتظر ، ولا نهاية لصبرى . .

وقبل العراق ساعدنا الأردن . فعندما احتشدت قوات سوريا طلب منى الأمريكان السماح بمرور طائراتهم التى تحمل قطع غيار للأردن . ووافقت فوراً . رغم موقف الملك حسين المعروف . . وعندما احتاجت السعودية إلى طائرات الرادار الأمريكية . استأذنت أمريكا أن تمر هذه الطائرات عبر الأجواء المصرية ، ووافق حسنى مبارك على ذلك دون الرجوع إلىّ . لأن السماح لأى أسلحة تحتاج إليها السعودية ، هو خط سياسى فحسنى مبارك وافق ثم أخبرنى بذلك . وكذلك أعطينا

أسلحة للصومال ، وسوف نساعد كل دولة عربية أو إسلامية . . هذا خط مبدئى ، أى يتعلق بمبدأ فى السياسة المصرية ، وهو ثابت رغم كل الظروف العدائية لمصر . وتكرار هذه القرارات أكبر دليل على أن خيطاً واحداً يربطها ، هذا الخيط هو أن مصر لن تتخلى عن مساعدة أخ عربى أو مسلم فى أى مكان . . .

سيادة الرئيس:

تتناقل العواصم العربية والأجنبية أن هناك «اتصالات» بين مصر والمغرب ودول عربية أخرى . . وقيل إن المغرب هى الدولة التى سوف تعيد علاقتها مع مصر ، استناداً إلى استعداد الرأى العام المغربى لذلك . فالعائدون من الرباط يقولون إنهم يتحدثون بامتنان شديد عن دور مصر فى مساعدة المغرب ، وأن الذخيرة التى أرسلتها مصر إلى المغرب قد أنقذت مدينة مسيرة الصحراوية من السقوط أمام قوات البوليساريو . . وكان بالقاهرة فى الأسبوع الماضى صحفى كبير صديق قال إن هناك تشابهاً بين الموقف المغربى والموقف المصرى . . فكما أن السودان عمق استراتيجى لمصر ، فكذلك موريتانيا بالنسبة للمغرب ، ، واستيلاء الشيوعيين على موريتانيا مثل استيلاء الشيوعيين على السودان . . وهذا التشابه فى الخطر الذى يهدد مصر والمغرب ، يجعلهما أكثر استعداداً من أى وقت مضى ، لأن يتقاربا ويتساندا ضد الزحف السوفيتى الذى يدفع القذافى والكوبيين جنوباً وغرباً . .

أجاب :

من الصعب أن أذكر المغرب دون أن أجد الأسى والضيق هو أقرب المعانى إلى نفسى . لقد كانت لى تجربة حزينة مع الملك الحسن . هذه التجربة تحف بها خيبة الأمل واليأس والفجيعة على فقدان صديق لا أستطيع أن أشتريه بالفلوس التى باعنى بها – مع الأسف . فقد خرج الملك الحسن منذ شهرين يعلن للعالم أننى «رجوته» أن يأذن لى بالتوقف فى الرباط وأنا عائد من كامب دافيد . . أننى رجوته ؟! وهو يعلم وسفيرنا وسفيره يعلمان أيضاً أنه هو الذى طلب منى ذلك . ولم أكن فى حاجة إلى أن أتوقف عنده . فقد كان فى نيتى أن أستريح يوماً فى أوروبا وبعده أعود إلى مصر . ولكنه هو الذى «رجانى» وتوقفت فى المغرب . ولم يكن من الصعب على حاستى السياسية أن أدرك صعوبة الموقف . وقد صارحته برغبتى فى الحديث إلى البرلمان المغربى . أعرض عليهم خطبتى فى الكنيست ، وأعرض عليهم اتفاقية كامب دافيد . . وأقول لهم : هذا موقف مصر وهذا موقف العرب .

فمارأيكم ؟ وكان هدفى أن أسهل موقفه ، فأنا أعرف ظروفه وأعرف الثمن الذى تدفعه السعودية لشراء الأحزاب والوزراء ، كل ذلك أعلمه . ولا أحترمه ، ولكنى أجد له عذراً . ولا أستطيع ولا أحب أن أفرض رأيى عليه . كما لا أحب أن يفرض رأيه . ولكن السعودية كانت قد اتفقت مع الملكين الحسن وحسين . وأغرب من ذلك أن الملك الحسن بعث بمن يقول لى إنه سوف يذهب إلى قمة بغداد ليدافع عن وجهة نظر مصر . . إلى آخر ما نعرفه وما قام به الملك الحسن فاستحق مليار دولار من السعودية . .

أما مساعدة الملك الحسن ، فهى ككل المساعدات التى قدمتها مصر ، مسألة مبدأ . وقد يكون هذا هو الشعور العام فى المغرب ، فالمعلومات التى عندى قريبة من ذلك . لولا أننى أختلف فى دلالة موريتانيا للمغرب ودلالة السودان لمصر . فالمغاربة يعتبرون أنفسهم جميعاً من موريتانيا ، فهى الأصل . ولكن المغرب يستطيع أن يعيش من غير موريتانيا . . ولكن الموقف بيننا وبين السودان مختلف . . فعلاقاتنا بالسودان هى علاقة حياة أو موت . فالماء الذى هو حياتنا جميعاً يجىء من السودان ، ومع الماء كان تاريخنا المشترك ، فالذى بيننا وبين السودان هو دم ورحم . .

ومنذ يومين جاء وزير الرياسة السودانى يحمل إلىَّ دعوة من الرئيس نميرى لزيارة السودان فى عيدها القومى . . وسوف أذهب إن شاء الله . وستكون لى جلسة طويلة مع الرئيس نميرى . وسوف أشهد العرض العسكرى ، وأعود بعده مباشرة . . وأنا مستريح إلى الأوضاع فى السودان . . وأبارك خطوات الرئيس نميرى من أجل «تنقية» المناخ العربى . .

سيادة الرئيس:

لم تذكر أن مصر قد ساعدت تشاد ، فهل لا تزال تساعدها ؟ وهل لهذه المساعدة أى أثر فى تغيير مسار الأحداث هناك ؟ . .

أجاب:

عندما زارنى ابن عم القذافى فى ميت أبو الكوم يوم ٢٥ ديسمبر الماضى ، وعندما زارنى مرة أخرى فى فبراير الماضى فى باريس ، طلبت إليه أن ينقل رسالة إلى القذافى قلت فيها : إن دخولك تشاد غلطة فادحة الثمن ، وكذلك دخول صدام

حسين فى حرب مع إيران . وسوف يكون الثمن غالياً ، وسوف تكون هذه الحرب وبالاً على الاثنين .

أما الموقف فى تشاد فهو متدهور تماماً ، ويزداد سوءاً . وعلينا جميعاً أن نرقب سير الأحداث ، فلم تعد النار بعيدة عن أحد . .

سيادة الرئيس:

منذ شهر شاركت أنا فى مناقشات مع الرئيس موى رئيس كينيا والرئيس سياد برى رئيس الصومال والرئيس السودانى نميرى . وكان الموضوع هو : لماذا لا نفعل نحن ما فعله السادات فيهبط الواحد منا فى أرض خصمه ويحاوره ، ويهتدى بالسلام إلى ما استحال الاهتداء إليه بالحرب ؟ . . ثم إنك يا سيادة الرئيس فكرت مرة أخرى فى أن تذهب إلى الكنيست لتعرض قضية الحكم الذاتى والقدس . . وكثير من العرب وغيرهم يتساءلون : لماذا لا ينزل الرئيس السادات بطائرته إلى الرياض ويعرض الخلافات العربية المصرية . . ولن تكون رحلته إلى الرياض أصعب وأعقد من رحلته إلى القدس ؟ . . وهذه الفكرة يا سيادة الرئيس تظهر وتختفى فى كل مرة تنتقل فيها شخصية عالمية بين القاهرة والرياض ؟ . .

أجاب:

لما قابلت السناتور بيكر زعيم الأغلبية فى مجلس الشيوخ الأمريكى ، بعد عودته من السعودية قال لى : إن هناك اعتقاداً عاماً فى العالم العربى وفى أمريكا أيضاً أن السادات يستطيع أن يجد حلاً . وأنه لابد أن يكون قد اهتدى إلى حل . لأن الذى استطاع أن يحل مشكلة الصراع العربى الإسرائيلى لن يجد صعوبة فى حل مشاكل الخلافات العربية . . وهذا يدهشنى حقاً . فهل من المفروض أن أجد حلاً للذين قطعوا صلاتهم بمصر وأهانوها وتطاولوا عليها وهددوا بتجويعها ؟ . . أنا أعترف أن عندى حلولاً وليس حلاً واحداً . وأن بعض هذه الحلول قد ناقشتها فى أمريكا وأوروبا . وأن هذه الحلول قد عبرت إلى بعض العواصم العربية . والمشكلة التى تواجهنى ليست هى ما أفكر فيه ، ولكن مدى قبول الآخرين له . . فليس أسهل من أن أستقل طائرتى وأهبط إلى الرياض . وأنا أعرف مقدماً ما سوف يحدث . إن القادة السعوديين أناس مهذبون ومجاملون . . وسوف ألقى منهم كل تكريم ، فأنا رئيس عربى مسلم وضيف عليهم . وسوف أجلس معهم وأناقشهم . وقد أقنعهم . وقد يتظاهرون بذلك . ولكن المشكلة هى مدى استعدادهم النفسى والسياسى لذلك . . ولن أخدع نفسى فأقول إنهم مستعدون لقبول «الحل المصرى» . فأهم من

هذه الرحلة إلى الرياض ، وأهم من حسن النية وصدق العزيمة ، ونبل الهدف ، . أن تكون قلوبهم مفتوحة لذلك . .

سيادة الرئيس:

بعض المجتهدين يرون أن موافقتك التامة وترحيبك بمساعدة أمريكا للسعودية ، يعتبر نقطة تحول فى العلاقات «الخفية» بين السعودية ومصر . . وإن لم تكن نقطة تحول فهى خطوة نحو التقارب بين البلدين . . وإلا فهى قرار غريب ومفاجىء !

أجاب:

لقد قابلت السفير الأمريكى منذ يومين . وطلبت إليه أن ينقل تهنئتى الحارة للرئيس الأمريكى رونالد ريجان ووزير خارجيته ألكسندر هيج على قرارهما بتسليح السعودية وسوف أكون أسعد الناس إذا حلقت طائرات الإنذار المبكر فى سماء السعودية (أواكس) . . وليس هذا غريباً ولا لغزاً إنما هو موقف مصر المبدئى ومسئوليتها التاريخية فى الدفاع عن الدول العربية والإسلامية . . فنحن لا بد أن نساعدها ، ونؤيد كل من يساعدها . ونحن عندما أعطينا التسهيلات العسكرية الأمريكية فى مصر كان هدفها الأساسى حماية أمن الخليج . وعندما ساعدنا الأمريكان على استخلاص رهائنهم فى إيران ، كان تيسيراً لأمريكا التى تساعدنا كثيراً . . وكان دفاعاً عن الإسلام الذى شوهه الخومينى . . تماماً كما قامت مصر باستضافة الشاه لأن له فضلاً فى محنتها ، ولأنه صديق مسلم مريض . .

وعندما أتى السفير الأمريكى بخطابات متبادلة بين مصر وأمريكا ، أدخلت على هذه الخطابات تعديلات رأيتها هامة وجوهرية . فهذه الخطابات تتعلق بالتسهيلات الأمريكية للدفاع عن أمن الخليج ، ولكننى أضفت إليها أندونسيا والمغرب العربى . . فمصر بموقعها الجغرافى وسط بين قارات آسيا وأفريقيا . . إنها «سرة» هذه القارات ، ولذلك يجب أن تمتد مساعداتها إلى كل هذه الاتجاهات ، لأن الخطر الذى يلتف حولنا واحد . وما دمنا قد عرفنا من أين يجىء هذا الخطر وإلى أين ، فقد تحتم علينا أن نستعد له . .

وقد تضمنت هذه الخطابات أيضاً بناء الأمريكان لقواعد عسكرية للجيش المصرى . وعن طريق هذه القواعد يستطيع الجيش المصرى أن يقدم المساعدة الضرورية للقوات الأمريكية إذا استدعت الضرورة ذلك .

والذين يستغربون تأييد مصر لتسليح السعودية ، سوف أضاعف دهشتهم عندما أقول إن السعودية عندما أعلنت فى سبتمبر الماضى أنها لن تسمح للأمريكان بأن تكون لهم قواعد أو قوات على أرضها ، تعجبت لذلك . . لأنها فى حاجة إلى هذه القوات . ولأنها هى التى طلبتها . . ولكن ليست لديها الشجاعة فى أن تعلن صراحة عن احتياجها لذلك ، وعن فزعها من العراق وسوريا والفلسطينيين . . ولكنى بعثت إلى الرئيس الأمريكى كارتر أقول له : كل القوات التى تحتاج إليها لمساعدة السعودية أيا كان عددها ، فإننى على استعداد لاستضافتها فى مصر . . وأنا فى ذلك أساعد السعودية . لأن الموقف أخطر مما يتصوره السعوديون ، وأخطر من ذلك أن نهون من شأنه ، وأن نغمض عيوننا عن هذه الحقيقة . . فالسعودية هى «البطة النائمة» – أى أنها هكذا مسترخية مغمضة العينين . وهذا ترف لا تقدر عليه ! . .

وإذا كان السعوديون لايدركون بوضوح ما فى بلادهم وما حولها ، فما الذى يعرفونه ؟ .

هل من الممكن أن ينسوا ما حدث فى إيران وما أصاب أفغانستان ؟ . . وماذا يمكن أن يحدث مرة أخرى فى السعودية نفسها ؟ . . إن الموقف لا يزال خطيراً . . وليس فى مصلحة السعودية ولا دول الخليج أن تستمر الحرب بين العراق وإيران طويلاً . قد يكون فى الاجتهادات أن تستنزف هذه الحرب دولتين تتزعمان الخليج : تتزعمانه بالإرهاب والتخويف . ممكن ولكن ما الذى يقوله لنا التاريخ عن الدول المتجاورة التى أنعشت خلافاتها القديمة ، فأراقت دماء بريئة على الجانبين ؟ . . إن لم تؤد هذه الحرب إلى العار القومى ، فسوف يختفى العار ويظهر الثأر . وسوف يؤدى الثأر إلى تعبئة الكراهية فى مدافع وصواريخ . وسوف تؤدى أسلحة الدمار هذه إلى استنزاف أموال الشعب . . وإيران والعراق دولتان غنيتان ولكنهما مهددتان بالفقر الآن . فقد جفت الآبار أو كادت . والعراق طلب من الدول العربية أن تساعده على الحرب ، فبعثت له بثلاثة عشر ملياراً من الدولارات . . بمنتهى السرعة أرسلها العرب . بينما مصر التى عبرت بالأمة العربية كلها ، قدم لها العرب مليارين على مدى عشرة شهور من الإذلال والهوان ! ولكن نحن لا نستطيع أن نستخدم أسلوب صدام حسين فى إرهاب الملوك والأمراء ، فالجوع أهون من ذلك كثيراً – وهذه قصة طويلة . . وثقيلة على النفس أيضاً ! . .

والعرب يعلمون أن رصيد صدام حسين فى البنوك الأمريكية وحدها ثلاثون مليار دولار ، ولكنها نقصت فى الأيام الأخيرة فأصبحت سبعة وعشرين ملياراً !! ولذلك كان لابد أن يساعدوه على حربه ضد الفرس ! . .

فليفعل العرب ما يشاءون ، ولكن من حقنا أن نتساءل عن سبب هذه التفرقة فى المعاملة ، فنحن نحارب من أجل القضايا العربية والمشكلة الفلسطينية . فما الذى يحارب من أجله العراق ؟ ما الذى حققته سوريا . . حتى إذا حشدت قواتها على حدود الأردن ، تلقت ٥٠٠ دولار من السعودية ، فسحبت قواتها لتهدم لبنان على رأس الألوف من أبنائه ؟ ما هذا المنطق ؟ كيف يمكن التفاهم ؟ . .

صدقنى لم أجد صعوبة فى التفاهم مع بيجين ووزرائه يوم التقيت بهم لأول مرة . . وبيننا وبينهم الكثير من الدم والمرارة تراكمت فى أربعين عاماً وأربع حروب ، وهم جميعاً من الصقور المتشددين . ولكن وجدت صعوبة فى التفاهم مع حافظ الأسد الذى طلبت إليه أن يختلف معى ، لا أن يتفق . .

ولذلك لا أميل إلى تصديق ما قيل من أن د . كيسنجر كان فى تنقلاته بين دمشق وتل أبيب يختلط عليه الأمر ، فلا يعرف إن كان الذين يتحدثون إليه هم سوريين أو إسرائيليين . والمقصود بهذه النكتة أن السوريين والإسرائيليين لهم نفس الأسلوب فى التشدد . ولكن تجربتى تؤكد غير ذلك . فالفارق بين السوريين والإسرائيليين كبير جداً : كالفارق بين الجهالة والعلم ، أو بين التهريج والجدية . لقد كان بيجين ووزراؤه جادين تماماً . ولذلك أمكن التفاهم معهم .

سيادة الرئيس:

هل تتابع مسار المعركة الانتخابية فى إسرائيل ؟ . . وما هى توقعاتك الخاصة فيمن سوف يشغل مقعد بيجين فى الحكومة أو فى المعارضة ؟

أجاب:

أتابعها من حين إلى حين ، وأرى أرقامها البيانية طالعة نازلة ، ولكننى لست مشغولاً بها ، لسبب بسيط هو أننى سوف أتعاون مع أى إنسان يختاره الشعب الإسرائيلى . ولا يعنينى الآن من يكون . ولسبب بسيط أيضاً هو : أننا أرسينا قاعدة التفاهم بيننا . . أنها قائمة على الحوار . وقد حققنا بالحوار ما عجزنا عن تحقيقه بالحرب . وهذا ما يجب أن يتعلمه الأشقاء العرب . . فقد أدى السلام إلى إزالة

العوائق والحواجز بصورة رائعة . ولذلك فأنا راض عن هذا الذى يتحقق بصورة طبيعية بين مصر وإسرائيل . .

وأنا الآن أجد متعة كبرى فى قراءة مذكرات عيزر فايتسمان التى سوف تنشرونها فى «أكتوبر» . . فعيزر يدهشنى بصراحته وبساطته فى مذكراته . . فهو قد انتقل من الشك فى كل كلمة أقولها ، إلى تصديق كل ما أقول . . وانتقل من التخويف من مبادرتى إلى الإيمان بضرورة التمسك بها . . ولسبب لا أعرفه بوضوح ، وثقت أنا فى عيزر من أول لحظة . ثم كانت هذه الصداقة العميقة بيننا . . كيف اكتشفت ذلك فيه ؟ لا أعرف . . ربما الفراسة التى لا تخيب . . ولذلك وأنا أقرأ مذكراته أعرف جيداً عمق وصدق كل كلمة يقولها . . ومذكراته هى أكبر دليل على التحول العظيم العميق للمقاتل الإسرائيلى بسبب مبادرة السلام ، وبسبب الحوار . . والاتصال المباشر والتفاهم . . وهذا هو الطبيعى ، وما يجب أن يكون بين الشعوب . . لقد انتهى إلى الأبد كل ما بيننا من كراهية ومرارة بعد حرب أكتوبر . . وانفتح الطريق أمام الحياة والتعاون وحسن الجوار بعد مبادرة السلام . .

ومنذ يومين التقيت بوزير الزراعة د . محمود داود ومعه نائب وزير الزراعة الإسرائيلى ، وأثيرت دعوة وزير الزراعة أريك شارون إلى مصر . فوافقت على دعوته ليجىء فى أى وقت يراه مناسباً له . . وإن كانت لشارون آراء فى أى موضوع ، ولا نتفق معه ، فليكن رأيه ما يكون . ولكن لابد أن نناقشه . لا أن نقاطعه . فليأت إلى مصر ولندخل معه فى حوار . ولا نتوقف عن الحوار ، ولا نفقد الأمل فى الوصول إلى حل . . وسوف نستفيد من تجاربهم فى الزراعة والرى . لقد وافقت على الاستفادة من خبراتهم فى رى الأرض . .

سيادة الرئيس:

سؤال أخير هو : إن كانت مصر قد قررت شيئاً مع الأمم المتحدة ، أو بعيداً عنها ، بشأن قوات الطوارىء التى تحمى مراحل الانسحاب الإسرائيلى من سيناء ؟ . . لقد نشرت الصحف الإسرائيلية والأمريكية أن هناك خلافات حادة بين جميع الأطراف ، مما يحتاج إلى قمة ثلاثية ! .

أجاب:

هذا مبالغ فيه جداً . فعندما جاءنى ألكسندر هيج وزير خارجية أمريكا اتفقنا على كل شىء . ولم يكن خلاف بين مصر وأمريكا فى أى شىء . فأمريكا تقبل

تماماً وجهة نظرى الخاصة بالسيادة . . أى لا قواعد أمريكية على الأرض المصرية . فنحن حساسون لذلك . وإن كانت لأمريكا قواعد ضخمة فى بريطانيا . ولم نسمع ولم نقرأ فى الصحف البريطانية أن أمريكا تحتل بريطانيا . وقد توقفت فى طريقى إلى أمريكا فى إحدى القواعد الأمريكية الضخمة . وقيل لى أنها أصغر قاعدة . وإن فى بريطانيا عشرين قاعدة أخرى . .

وأمامنا فى العالم نموذجان : دول حلف وارسو ، مثل تشيكوسلوفاكيا والمجر وبولندا . ونحن نعرف ماذا فعلت الدبابات السوفيتية عندما زحفت على تشيكوسلوفاكيا والمجر لتأديب الشعب وإذلاله ليكون عبرة لغيره من الدول التابعة لروسيا . . ونعرف ما الذى قاله برجنيف أخيراً لبولندا ، يهددها ويتوعدها ، ويستطيع أن يفعل بها ما يشاء عندما يشاء .

أما النموذج الثانى فهو : تركيا واليونان عضوا حلف الأطلنطى . وقد أغلقت تركيا ٢٤ قاعدة أمريكية . وعطلت النشاط الأمريكى . لأن أمريكا اختلفت معها فى السياسة . ولم ينطق رئيس أمريكا بتهديد لتركيا . وعندما أصلحت أمريكا سياستها ، انفتحت القواعد الأمريكية من جديد . .

وأنا شخصياً لا أخاف مطلقاً أن أنضم إلى حلف الأطلنطى . إن الخطر الذى يواجهنا واحد . . ثم إن أمريكا لا تمس السيادة المصرية ، أو سيادة أية دولة من دول الحلف . وإذا كانت فرنسا – مثلاً – قد خلت أرضها من القواعد الأمريكية ، فإنها إذا تعرضت للخطر فسوف تستدعى أمريكا . ويومها لن يقول فرنسى واحد : إن بلادنا تحت الاحتلال الأمريكى !

ونحن نعلم موقف السوفيت مقدماً . عرفنا ذلك عند مرحلة الانسحاب الأول من العريش – رأس محمد . وفى المرة الثانية عند الانسحاب إلى الحدود الدولية . فالسوفيت يستخدمون الفيتو ضدنا ، فعلوا ذلك وسوف يفعلون . ولذلك اتفقنا على أن نعرف رأى السوفيت ، فاتصل بهم عصمت عبد المجيد مندوبنا الدائم فى الأمم المتحدة . وكانت النتيجة متوقعة : فالروس لم يتغيروا . وإنه لشىء عجيب حقاً ، أن تدعو دولة عظمى مثل روسيا إلى السلام وتقيم مجالس للسلام العالمى ، ثم تعترض على أن يكون سلام بين مصر وإسرائيل ، أو بين إسرائيل والعرب . .

وفى المعاهدة المصرية الإسرائيلية قد توقعنا هذا الموقف السوفيتى فجعلنا من الضرورى الاتفاق بيننا نحن الثلاثة : مصر وأمريكا وإسرائيل ، وأنا أرى أن تكون

القوة اللازمة صغيرة لا تتجاوز ألفى جندى . وقد أصدرت تعليماتى إلى وزير الخارجية لإعداد الاتفاق النهائى على ذلك .

ومن العجيب حقاً أن جمعية المنتفعين بعبد الناصر يقولون إننى أول من اتصل بالأمريكان . . مع أن هذا ما فعله جمال عبد الناصر فى مايو سنة ١٩٧٠ . لقد ناشد عبد الناصر الرئيس نيكسون . وكان من نتيجة ذلك أن عرضوا عليه مبادرة روجرز . وأعلن قبوله لهذه المبادرة وهو جالس مع زعماء الكرملين . . وكانت صدمة لهم . ولكن اليأس والضيق بالروس قد قضى على كل ما لدى عبد الناصر من صبر . وهذه هى المرونة السياسية من أجل القرارات المصيرية التى يتخذها الزعيم السياسى ، وقد تناسى ما لحقه من هوان شخصى فلم يعد يفكر إلا فى مصر وإلا فى شعبه .

ولكن الذين تحكم أفكارهم كليشيهات جامدة : هم أناس متحجرون ولا يتحركون . فالذى يقول : إن الأمريكان استعماريون توسعيون . . أو الإنجليز كانوا يحتلون مصر ، وكذلك إسرائيل ، فيجب ألا نتعامل معهم ، إن هؤلاء أناس غير واقعيين . .

ولكن إذا كنا فى حاجة إلى الأسلحة المتطورة ولا نستطيع أن نصنعها ، فإلى أين نذهب ؟ هل نذهب إلى الروس ؟ لقد جربناهم حتى ركعنا على الأرض . . وإذا كان الأمريكان يعرضون علينا السلاح فهل نرفضه ؟ . . وإذا كان الإنجليز يفعلون نفس الشىء ، فهل نعتذر عن عدم قبوله لأنهم كانوا يحتلون مصر ؟ . . لقد كانوا يحتلونها ثم أخرجناهم . . فانتهت هذه المرحلة السوداء . وأتيحت لنا فرصة لبداية مرحلة جديدة . فهل نرفض ذلك ؟ . . ثم إسرائيل حاربتنا وهزمتنا . وحاربناها وهزمناها ، ونريد أن ننهى العذاب والشقاء والمرارة والأحقاد . وأتيح لنا ذلك . ونجحنا ، فهل نتوقف فى منتصف الطريق لأن إسرائيل قد حاربتنا قبل ذلك ؟ . .

نعم حاربتنا . . ولكننا اتفقنا على إنهاء الحروب ، وأعيدت لنا أرضنا وشعبنا وبترولنا وقناتنا . . وقبل كل ذلك كرامة مصر وعزة العرب !

إن شعوبنا لم تضعنا عالياً فى مواقعنا ، لنفرض عليها مزاجنا الخاص ، ولنضحى بها من أجل إهانة شخصية . . إنما شعوبنا رفعتنا لنرفعها ، واختارتنا لنختارها ، وقد اخترت مصر ونذرت لها حياتى . فليساعدنا الله على احتمال العناء القليل الذى أمامنا . . ونحمد الله أن ملأ خزائننا بمال القناة والبترول ونتاج أيدى العاملين من شعبنا فى كل مكان . .

عن الشباب إلى الشباب :
تجربتى أهتز واضعف أبناء الإنسان !

سيادة الرئيس:

نشرت الصحف الكثير جداً عن اضطرابات الشباب وعن التضليل الدينى والسياسى الذى تعرض له . . ورحنا نقلب فى وجوه التاريخ الحديث والقديم نبحث عن نظير لما حدث ، لعله يساعدنا على مزيد من الفهم . فليس شبابنا بدعا بين شباب العالم ، لأن الذى يهز الشباب ويدفعه ويلوى الطريق أمامه فى الدنيا كلها واحد ، وإن لم يكن واحداً فهو قريب من الذى حدث فى مصر . كما تنوعت أشكال التحليل لما حدث ، وكذلك التشخيص النفسى والاجتماعى والدينى . ولكن تعبيراً واحداً ظهر فى كل المقالات والتقارير ، وانتشار هذا التعبير والتصاقه بكل قلم وكل عين دليل على أنه المعنى الذى ارتضيناه جميعاً ، ولم نهتد إلى ما هو أفضل منه تفسيراً وتبريراً لكل ما حدث . هذا التعبير هو : أن الشباب فى مصر يعانى «فراغاً سياسياً» . ولم يتعرض أحد لتعريف هذا التعبير إما أن يكون سبب ذلك أن التعبير واضح تماماً ، وليس فى حاجة إلى من يشرحه ، وإما أنه أصعب من أن نشرحه ، وبذلك دفعناه أمامنا على أن نعود فيما بعد . وقد يكون معنى هذا التعبير أن هناك فراغاً فى السياسة لا يعجب الشبان . أى أن هناك أحزاباً أو مذاهب سياسية رآها الشباب فارغة تماماً . وأحزنه ذلك على نفسه وعلى بلده ، وراح يبحث عن بديل سياسى أو دينى . . أو أن الشباب لديه اهتمام سياسى ولكنه لا يجد مكاناً يمارسه فيه . . ومعنى ذلك أنه إما أن يكون هناك فراغ سياسة أو سياسة فراغ . معذرة إذا كنت قد أطلت فى هذا السؤال ، فإننى أحاول أن أكون واضحاً فى تساؤلى ، حتى لا يكون غموض السؤال عبئاً جديداً على هذا التعبير الغامض . .

أجاب:

لقد استخدمت أنا أيضاً هذا التعبير أكثر من مرة . ولن أناقش الآن المعنى الذى اختاره أحد . فليكن ما تشاء : سياسة فارغة أو فراغ سياسى . . وأنا أنتهز هذه

الفرصة لكى أختلف تماماً عن كل الذين كتبوا فى «المحنة القومية» . . فأنا أرى أن الفراغ السياسى هو أهون ما يمكن أن يصاب به الشباب فى بلادى . والذين أصيبوا بذلك قليلون جداً . إنهم أقلية من المثقفين ، أما بقية الشباب فى قاعدة مصر العريضة فليست لهم مشكلة فقد امتلأت حياتهم بكثير من القيم الاجتماعية والأخلاقية والدينية والسياسية . وعندى دليل واحد متجدد على ذلك : تلك القرارات المصيرية التى اتخذتها مستوحاة من أمانى الشعب ومن مخاوفه . ولقد ضربت لذلك مثلين فى مناسبات عديدة : قرار مبادرتى بقبول السلام مع إسرائيل . وقرار مبادرتى بزيارة القدس وفتح عيون وآذان إسرائيل وألف مليون مواطن عالمى على حقيقة باهرة هى أننى أريد السلام . وأننى موفد من قبل الشعب المصرى أعرض السلام وأحترمه وأحرص عليه وأؤكد صدق عزمى على ذلك . فماذا كانت النتيجة ؟ : سار الشعب كله ورائى . وقد اتخذت من هذا دليلاً مقنعاً على أن الأغلبية فى شعبنا تعى تماما أخطر القرارات . . بينما لم يفلح فى استيعابها معظم الزعماء العرب ، ومعظم معاونى ، كما رويت ذلك غير مرة ، فهذه القاعدة من الشعب ومن شباب الشعب ، لا تقلقنى ، لأنها وجدت طريقها ، واهتدت إلى جوهر الأمور ، واستطاعت بحسها الصادق أن تساندنى . وسوف تفعل ذلك كلما أفلحت فى التعبير عن أعماقها ، فالجماهير عندما تصفق لقرار من قراراتى فإنما هى تصفق لنفسها . ويكون اطمئنانها على صناعة القرار سعادة لمن ينطق بالقرار . فالقرار أنا لا أصنعه ، إنما أنا أرفع صوتى به . فقد استلهمته بوجدانى السياسى من ضمير شعبنا . . أما القلة الصغيرة من الشبان المثقفين فهم لا يعانون من الفراغ السياسى ، إنما امتلأوا فراغا : فى السياسة وفى العلاقات الاجتماعية والممارسة السياسية والقيم الدينية . . فالشباب لا يعانى فراغاً إنما هو يعانى «خواء» – أى فراغاً كاملاً . هذا هو الذى يقلقنى بعض الوقت . فهو يقلقنى إلى أن أجد حلاً . وقد وجدت الحل . وليس الحل يباع فى صيدلية نائية . إنما فى أيدينا . جربناه ونجح . . ونسيناه فضاعت الأهداف من عيوننا ، والسلالم من أقدامنا ، والبصيرة من قلوبنا . ولابد أن نعيد الشباب إلى بقية الناس ، ونعيد الناس إلى الواقع . وأن نربط بين الجميع بالحب . وليس ذلك سهلاً . ولكنه فى نفس الوقت ليس ابتداعاً نادراً فى بناء الإنسان ، فبناء الإنسان هذا بالضبط ما أريده . . وما يجب أن نتعاون على أن يكون إرادة عامة وأملاً قومياً كما أن الذى أصاب الشباب محنة قومية . .

ولم أندهش عندما سألنى أبنائى من شباب محافظة المنيا عن الأيديولوجية المصرية - فكما أن لكل شعب أيديولوجية ، فما هى النظرية السياسية المصرية ؟ والسؤال وجيه ومعقول ، لولا أنه . بمقاييسى أنا . جاء متقدماً فى هذا الحوار . . كما أن هذا الشباب قد جاء ميلاده متأخراً فى تاريخ الثورتين المصريتين يوليو ٥٢ ومايو ٧١ . ولكنه سؤال مناسب . جاء من العقل المناسب فى الوقت المناسب . وموجه إلى الأب المناسب إن لم يكن من المناسب أن أجيب عنه الآن . لأنني مشغول أولاً ببناء الإنسان من داخله ومن خارجه . . وبعد البناء نتفق على الطريق والهدف . . تماماً كما أننا لا نتناقش فى نوع المدرسة التى سوف يدخلها المولود ، إلا بعد أن يولد . . وليس قبل أن يولد . فليولد الطفل أولاً . وبعد ذلك تبدأ اختيارات الأسرة لاسمه ومدرسته ومهنته ومستقبله . .

أما السلام فلا يقلقنى . فكل شيء يمشى تماماً كما نريد . . وتطبيع العلاقات وحسن الجوار بيننا وبين إسرائيل . . أمور عادية لا يعوقها شيء . وأعترف للأمانة التاريخية أن السيد مناحم بيجين عندما التقيت به فى الإسكندرية أخيراً قال لى : مهما اختلفنا فلتكن هذه الخلافات صغيرة جداً ، لأن هدفنا كبير وهو السلام الشامل - هو الذى قال ذلك . ومفاوضات الحكم الذاتى تمضى فى طريقها كما أعلنت كثيراً حتى يتخذ الفلسطينيون مكانهم فى اختيار مصيرهم . ومن الممكن أن نتوقف عند كلمة أو عبارة فى مفاوضات الحكم الذاتى مثل : الشعب الفلسطينى أو السكان الفلسطينيين أو الفلسطينيين . ويعصر المفاوضون رءوسهم فى اختيار الكلمة المناسبة ولكن المهم هو النتيجة . فكل شيء يتحول إلى الحسن . وفى أبريل القادم تسترد مصر مائة فى المائة من أرضها ، التى تعادل ٩٠ ٪ من الأرض العربية . ويومها يحق لكل مصرى أن يفخر ويقول هذا ما فعلته مصر من غير العرب ، فما الذى فعله العرب من غير مصر ؟ ويسعدنى أكثر أن يستعير كل عربى هذا السؤال ويوجهه إلى قادته . . وإذا لم يفعل أحد من العرب ذلك فنجاح السياسة المصرية أكبر دليل على فشل كل العرب . فاللهم لا شماتة . .

أما بناء الرخاء فلا يشغلنى أيضاً . ويكفى أن يذهب أحد ، وأتمنى أن يذهب الملايين ، لمشاهدة ما يجرى فى الصالحية . إنه إنجاز أعظم من إنجاز حرب أكتوبر . لست مبالغاً . ففى الصالحية نطبق آخر وسائل العلم الحديث فى الزراعة والبناء والرى والتعمير . وليس أنجح من النجاح . فالنموذج الناجح هو أعظم دعاية للفكرة

والأسلوب والتطبيق . فليذهب كل مصرى شاب أو شيخ إلى الصالحية ، ويرى الوجه الحضارى لمصر الجديدة . . مصر الرخاء . . ولم يكن الرخاء ممكناً بغير سلام . ولم يكن السلام ممكناً بغير أن نستحقه . ولم نكن لنستحق السلام لو لم نسترد كرامتنا بالنصر فى الحرب . . وكل ذلك تحقق . وفى الصالحية ترى حشداً هائلاً من أحدث الأجهزة الأمريكية ، وليست تلك الأجهزة الروسية المتخلفة . وهناك تجد للمهندسين والخبراء المصريين العائدين من ولاية أريزونا ، والذين جربوا وتدربوا على زراعة الصحراء . .

وفى الصالحية قد تأكد لدينا مبدأ هام جداً : أنه لا خلاص لمصر من متاعبها الاقتصادية إلا بمضاعفة الإنتاج الزراعى . أى بمضاعفة إنتاج الغذاء . فمصر دولة زراعية . وقد بُذلت محاولات فاسدة لكى تُنسى مصر أنها زراعية ، وأنها يجب أن تهجر أرضها وتتقوقع فى دواوين الحكومة فى المدن ، وتحلم بأن تكون صناعية . إن مصر دولة زراعية : كانت ويجب أن تكون ، وفى ذلك خلاصها من كل ويلات السياسة والاقتصاد ، أذكر أننى كنت أتحدث مع صديقى الرئيس كارتر عن أعظم قنبلة تملكها أمريكا . فسألنى : وما هى ؟ قلت : قنبلة القمح الأمريكى . . إن روسيا تستطيع أن تنافس أمريكا فى تطوير صناعة القنابل النووية والهيدروجينية ، وقد تنجح أكثر أو حتى تتفوق عليها . ولكن يبقى سلاح القمح الأمريكى هو أقوى وسائلها فى التفوق على روسيا ، التى بغير القمح الأمريكى : لا خبز ولا فودكا ! . .

وأنا فعلاً لست قلقاً على السلام ولا على الرخاء . ولكنى قلق على بناء الديموقراطية ، وعندى ما أقوله للشباب من تجربتى الشخصية ، ومن تجربتى القومية ومن تجارب الشعوب الأخرى فى النظم الشمولية الفاشية والنظم الرأسمالية . وأبسط ما يقال هو أنه لا خلاف بين النظامين فى طحن الفرد وتسويته بالأرض تحت قدمى من هو أقوى . فالشيوعية تسحق حرية الفرد وحرية المجتمع . فلا حرية إلا للدولة أو للحزب ، ولينين هو صاحب العبارة الصادقة تماماً مع الماركسية اللينينية . ولكن ليس صادقاً فى توزيعها بالبطاقات . . فلا حرية هناك يمكن توزيعها . وإنما الحرية الماركسية هى لأقطاب الحزب الذين هم الملوك الحمر ! . .

وفى الديموقراطيات الرأسمالية نجد أن الفرد الفقير يدوسه الغنى . إن رجلاً يملك سوبر ماركت يستطيع أن يركب البلدوزر ويدوس به مائة دكان صغير إلى جواره . ويشرد الألوف فى لحظة واحدة لماذا ؟ . . لأنه قوى . وما هى قوته ؟ إنها ملايينه .

فعندى الكثير من الذى سوف أقوله للشبان . ولماذا اخترنا الديموقراطية الاشتراكية ؟ وما هى تجاربنا فى مصر قبل ثورة يوليو وبعدها ؟ . .

وأعود إلى ما قلته فى البداية من أنه لابد أن يكون لدينا الإنسان سليماً تماماً ، قبل أن نناقش معه النظرية السياسية - أى إطار العمل القومى - يجب أن نعرف من هو وكيف هو ؟ . . ولماذا هو هنا على أرض مصر ؟ . . وما موقعه ؟ . . وما هى رسالته ؟

سيادة الرئيس:

هل أنت مقبل على «إعادة صياغة» المواطن المصرى . . تصحيح مفهوماته . . أو تغيير جذوره ؟ . . ألا ترى أننا فى جميع الأحوال فى حاجة إلى وقت طويل ، وفى حاجة إلى أن نبدأ من الطفولة . . بينما نحن نريد أن ندرك الشبان حتى لا يفوتهم القطار . والقطار هنا هو الحياة العلمية أو التجربة الاجتماعية ؟ . .

أجاب:

إن الوقت لا يهم والسنوات فى حياة الشعب مثل اللحظات فى حياة الفرد . وكما قلت فإننى لست قلقاً على هذه الأقلية الشابة التى ضُللت . . ولا قلقاً على الشيوخ الفاسدين . . فكل أولئك أمرهم هين ، وعلاجهم أهون . ولكن الذى يشغلنى هو مستقبل مصر : أطفال مصر الذين سيصبحون شباباً ورجالاً . ومن الممكن أن نبدأ فوراً ، وعلى كل المستويات ، وأنا لا أطلب المستحيل ، إنما أعرض تجاربى الشخصية التى ساعدت فى تكوينى عقلياً ووجدانياً وجسمياً واجتماعياً وسياسياً . وأنا لن أخترع علاجاً جديداً . إنما فقط سوف أذكر الشبان ، كما فعلت مع ألوف الشبان الذين لقيتهم ، بما لدينا من قيم عظيمة موروثة وكما حفظت القرآن الكريم فى القرية ، حفظنى القرآن الكريم . . سوف أفتح صفحات هذا الكتاب الخالد على مرأى ومسمع من الجميع . فنحن جميعاً مؤمنون . ولسنا فى حاجة إلى إجهاد رءوسنا بحثاً عن معنى . فذلك فى القرآن . ولا نحن فى حاجة إلى فلاسفة ليقولوا لنا : ما هى رسالتنا ؟ فذلك فى القرآن . ولا كيف يتحقق لنا صفاء العقل وراحة الوجدان وسلامة الجسم والسلام الاجتماعى ؟ . . كل ذلك فى القرآن . ولن أغوص فى أعماق كتاب الله . آيات قليلة تكفينا جميعاً . ننحنى لها ثم نمضى فى الطريق الذى شاءه الله لنا جميعاً . فالله يقول : ﴿إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾ . هذا الخليفة هو آدم وبنوه . فنحن خلفاء الله على أرض الله . وفى ذلك تكريم لكل

واحد منا : إنه فى أعماقه خليفة الله ، أما الأرض فهى مصر . ويقول الله سبحانه : ﴿ونفخت فيه من روحى﴾ . أى أن الله عندما خلق آدم نفخ فيه من روحه . ففينا جميعاً روح الله . ويقول الله أيضاً : ﴿ولقد كرمنا بنى آدم﴾ . والسؤال : لماذا كل ذلك ؟ . . والجواب عند فيلسوفنا ابن خلدون الذى يقول : لعمران الأرض . .

فكيف يعمر الإنسان الأرض ؟ . .

والإجابة على ذلك بسيطة أيضاً : وهى أن الله قد جعل للإنسان أدوات تمكنه من هذا التعمير . هذه الأدوات أو الطاقات أو الوسائل هى : العقل والروح والجسم . وإننى أعرف أن هناك ألوف المذاهب الفلسفية والأخلاقية والنفسية لمناقشة مثل هذه الإجابات البسيطة . ولكن هذا لا يشغلنى الآن . فالذى يشغلنى هو الذى جربته بنفسى ، ثم جاءت الثقافة بعد ذلك ووضحت لى أكثر . . أو أضاءت لى وأضاءتنى . ولكن المهم عندى وعند الشباب هو أن أدلهم على واقع حياتى . وخلاصة . تجربتى . والعقل غذاؤه العلم وليس التعلم . لأن العلم من الكتاب والتعلم من الحياة – أى من تجربة الحياة . .

وفى القرآن الكريم آيات تمجد العقل والفكر . . والعلم . ولكن – وهذا من تجربتى – العقل ليس قادراً على كل شىء . إن العقل كثيرا ما توقف . وكان توقفه عجزاً . تماماً كما تنطفىء الأنوار فى رأسك ، وتتعطل كل وسائل المواصلات حدث لى عندما دخلت السجن . فقد كانت الزنزانة مظلمة ضيقة باردة كريهة . وكنت مخنوقاً فى داخلها . وكانت ظروفى الاجتماعية والعائلية والمادية أقسى من السجن . فأنا أعول أسرة ، وفى السجن عجزت عن أن أكون عائلاً لأحد . حتى لنفسى . فلم أكن أدرى ما الذى سيقوله القضاء فى تهمتى . هنا أفلس العقل وكاد يقفز ميتاً من رأسى . وهنا أيضاً انفتح نور الإيمان . . والإيمان من عند الله . هنا فقط شعرت بأن هناك ما هو أقوى من العقل وأصفى وأهدأ وأقدر على أن ينير عقلى وسجنى ويجعل نوافذ السجن وأبوابه فى طول السماء وعرضها . آمنت بالله الرحمن الرحيم الغفور الكريم . . وهذا معنى يختلف عن معنى الله عند الجماعات الدينية التى تراه جباراً منتقماً . فيخيفون أنفسهم ويرهبون غيرهم . وفاتهم أن الله صديق . نعم صديق . ولو قلت هذه العبارة فى القرية لا تهمونى بالكفر . ولكنى أراه ووجدته دائماً صديقاً عزيزاً رحيماً . ومن صداقة الله ورحمته وكرمه تفوقت على كل المشاكل . وانحلت أمامى كل العقد واستمد تفاؤلى دائماً . . ثم إن العقل

السليم فى الجسم السليم . فالجسم هو وسيلة العقل والروح إلى تحقيق ما نريد ما يراد لنا فى أرضنا . وأنا عندما تكون معدتى مرتبكة ، ترتبك أفكارى وتضطرب حياتى . لست وحدى ولكننا جميعاً كذلك . هذه تجارب بسيطة . ولكنها أقنعتنى . ولست فى حاجة إلى جمعية عمومية من علماء النفس والفلسفة والأخلاق والدين ليؤيدونى فى ذلك أو حتى يعارضونى . فقد جربت واقتنعت وأجرب كل يوم ، وفى استطاعة كل أحد أن يفعل مثلى . وليس من الضرورى أن يلعب كل إنسان التنس أو البنج بنج ، إنما يكفيه أن يمشى على قدميه نصف ساعة كل يوم . وليس هذا اكتشافاً جديداً . إنما هى تجربة قديمة لها عمر الساقين ، والفلاح والعامل أحسن نماذج لذلك ، ونحن نقرأ فى الصحف أن أحسن رياضة الآن هى المشى أو الجرى . وهى فى نفس الوقت أرخص وأيسر رياضة . فمادامت هناك شوارع وطرائق وحدائق ، وساقان طبعاً ، فأنت تستطيع أن تكون رياضياً ليصبح جسمك سليماً قادراً على أن يلبى نداء الروح ويطبق ضوابط العقل . وهكذا تجد نفسك ، بسهولة وببساطة ، مواطنا صالحاً كريماً على الله وعلى الناس وعلى أرضه المقدسة . .

والإنسان الذى يريد أن يعيش ويموت دون أن يدرى به أحد ، يجب ألا يهتم كثيراً أو قليلاً بما أقول . لماذا ؟ لأنه إنسان اختار أن يكون واحداً فى طابور طويل ، ليست له مزايا . لأن الذى يميز إنساناً عن إنسان : هو رسالته فى هذه الحياة . من هو ؟ ماذا يريد ؟ ماذا يستطيع ؟ كيف يكافح من أجل تحقيق رسالته ؟ . .

بقيت نقطة واحدة هامة جداً هى : كيف تكون للإنسان رسالة يحققها ؟ هنا أيضاً أعرض فهمى البسيط المتواضع للأشياء والأشخاص والعلاقات . لن تصبح قادراً عل تحقيق شىء دون أن تكون متوازياً . أى دون أن يتوازن العقل مع الروح مع الجسم . فبغير هذا الانسجام أو بغير هذا السلام الداخلى : لا سلام خارجياً . وهناك فلاسفة كثيرون قد عبروا عن ذلك أعمق وأطول وأجمل . هناك أفلاطون المثالى الحالم الرائع الذى يرى أن «الانسجام» هو الصحة . . وهو على حق ؛ فالصحة العقلية والنفسية والجسمية لا تكون إلا بهذه «الكيمياء» - أى تفاعل العناصر الثلاثة معاً دون أن يتغلب أحدها على الآخر . وهو أمر صعب . ولكنه ممكن . ويجب أن يكون ممكناً . والآن فقط أفهم معنى عبارة قالها المفكر الإنجليزى رسكن . قال : اعطنى زمام الموسيقى فى بلد وأنا أحكم لك هذا البلد . والعبارة صحيحة إلا قليلاً . فالموسيقى التى يقصدها هى أن يشيع التناغم والانسجام بين

الناس . وفى كل إنسان . فإذا شاع الانسجام شاع السلام أيضاً . ويرى هو أن الشعب سوف يكون سهلاً طيعاً ، وعلى ذلك يكون فى مقدرته أن يحكمه . . وهذا هو الخطأ لأن الشعب المنسجم المتناسق القوى لايمكن أن يحكمه إنسان لمجرد أنه يريد ذلك . . إنما الشعب بهذه الصفات لن يختار إلا واحداً من نوعه ومن طرازه . . . . إلا إذا كان هذا المفكر يريد أن يقول إن الموسيقى لها أثر السحر على الناس . وهذا صحيح . والرسول عليه السلام يقول : «إن من البيان لسحرا . . » وكما أن النثر الجميل بيان ، فالشعر والموسيقى أيضاً . ولها جميعاً قوة السحر على الناس . .

وقد حاول الأستاذ توفيق الحكيم أن يعبر عن ذلك . ولكن فلسفياً . فنادى بنظرية «التعادلية» أى أنه فى داخل الكون كله تتعادل قوى البناء والهدم والسلب والإيجاب ، والنور والظلام ، وكذلك فى كل إنسان . والذى قاله الأستاذ الحكيم ليس إلا «تقرير حالة» . ولكن الذى نريده هو أن نقرر الحالة وأن نلهبها حيوية وإيجابية ، لكى نحقق الهدف العظيم الذى ننشده . هذا الهدف هو آخر نقطة فى خط سير الحياة التى أريدها . هذه النقطة هى الصدق : الصدق مع الله ومع النفس ومع الناس ومع الأشياء . فأنت لا تملك أن تكذب على الله . لأن الله يعرفك من أعماقك . كما أنك لا تستطيع أن تكذب على نفسك . لأنك تعرف نفسك ، إنما تستطيع أن تغالطها وتوهمها . ولكنك تستطيع أن تكذب على الناس ، لأن الناس لا يعرفون كل ما فى أعماقك ، وليس أروع من الصدق دائماً مع الله والنفس والناس بعد ذلك . وإذا صدقت مع الأشياء أحسست بها . وأحسست بأجمل ما فيها . والصدق مع الأشياء يرهف حاستك الجمالية ، فتكون ذواقة فناناً . . فإذا تحقق لك ذلك كنت أحب مخلوقات الله إلى الله . لأن الله يحب المؤمن القوى ويكره المؤمن الضعيف . لأن المؤمن القوى قادر على أن يحقق رسالة الله على الأرض . وأنت لا تحقق هذه الرسالة بغير علم وبغير إيمان وبغير صحة وبغير سلام . ولذلك فإننى أرثى لحال هؤلاء الشبان المساكين الذين يرون الإيمان ضد العلم . ويفسرون القرآن الكريم على هواهم – على جهلهم وهذا أصح . فهم يفسرون الآية التى تقول ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا يعبدون﴾ بأن الله لا يريد منا سوى أن نعبده . . أن نصلى وأن نترك العلم والعمل ونعتكف فى المساجد . . وننسى أن هذه المساجد نفسها بغير نظريات فى علم العمارة ما كان من الممكن أن تقام ، وبغير نظريات فى علم

الفيزياء ما كان من الممكن أن تضاء . . إلخ . ويفسرون الآية التي تقول : ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾ . . إذا عطشت فهو يسقيني ، وإذا جعت فهو يطعمني ، وإذا لم أذاكر فهو ينجحني . . إلى آخر هذه الأخطاء المتراكمة في التفسير الخاطيء للقرآن الكريم . .

سيادة الرئيس:

هل يمكن أن نفهم هذا الذي تدعو إليه على أنه عودة إلى الأرض . . معنى ذلك أن المدينة والحياة في المدينة قد باعدت بين الناس وباعدت بين الإنسان والطبيعة . . وأنه لا تخفيف من هذا العناء إلا بأن ننتقل إلى المجتمعات الجديدة والمزارع الجديدة ؟ . . ألا يمكن أن يقال أيضاً إن ارتباطك شخصياً بالريف وبالأرض هو الذي أبقى لك هذا التوازن النفسي الذي تدعو إليه ؟ . . هل ترى ذلك ممكناً وسريعاً لكل الناس ؟ . فإذا لم يكن ممكناً فكيف نعالج الحياة الحديثة التي هي حشد هائل للناس في المدن والمكاتب ؟ ثم كيف يتحول ملايين «الموظفين» إلى فلاحين وعشاق للطبيعة ؟ . . إنك يا سيادة الرئيس تستخدم كل قواك لكي تسحبنا من المدينة ، وتعود بنا إلى الريف . . إلى الحقول . . إلى البساطة التي هي صفة نادرة لكل أبناء العصر الحديث . . إنها مهمة شاقة جداً . .

أجاب:

يجب أن نعترف بأننا عندما خرجنا جميعاً من الريف كانت نفوسنا وعيوننا قد امتلأت بكل القيم الأخلاقية والاجتماعية وكل جمال الحقول وتنوع أشكال وألوان الحياة . . خرجنا من القرية وعندنا الإحساس بضرورة مراعاة الجار وزيارة المريض والارتباط بالعائلة . . وأكثر نكت أبناء المدن والمسارح الكوميدية على هؤلاء الفلاحين «السذج» . كل هذه الفضائل قد ذهبت واختفت . فالناس يتجاورون في البيوت وفي المكاتب ولا يعرف أحدهم الآخر . ولا يجد ذلك ضرورياً . فتباعدت المسافات بين الناس في العمل الواحد والبيت الواحد والأسرة الواحدة . . فكان هذا التفكك الذي يوصف عادة بأنه طبيعة العلاقات في المجتمعات الكبيرة ، أو على الأصح انعدام العلاقات بسبب المجتمعات الكبيرة . وأنا أحمد الله على أنني ما أزال فلاحاً من ميت أبو الكوم منوفية ، وأتمنى أن أبقى كذلك ، وأن يظل كل فلاح على طيبته وبساطته وارتباطه بأهله وأرضه . ودعوتي إلى العودة إلى الطبيعة . هي

دعوة للعودة إلى الله ، وكل ما شرع فينا من قيم . هذا هو جوهر دعوتى . وأنا أعرف أن هذا صعب ، ولكن كم من صعب صار سهلاً . والذى يرى المدن الكبرى فى العالم ، يجد أنها تتفجر شظايا . . وهذه الشظايا هى الضواحى التى يهرب إليها الناس من دوامة وطاحونة المدينة التى تدوخ الناس وتسحقهم ذرات طائرة طائشة مفككة . .

سيادة الرئيس:

أعلنت أننا يجب أن نعدل عن استخدام مثل هذه التعبيرات : عنصرا الأمة . . أى المسلمون والأقباط . . والشعب القبطى والشعب المسلم . . ألا ترى أنه يجب أن نعدل أيضاً عن استخدام تعبير «الفتنة الطائفية» لأن معناه أن هناك طوائف فى مصر ، وأن الذى حدث هو فتنة بين طائفتين من المسلمين والأقباط ؟ . .

أجاب:

تماماً . أرى ذلك . وأفضل أن نستخدم تعبيراً آخر هو «الفتنة الدينية» بل إنى أرى أن القصد من الفتنة الدينية هو تمزيق الأمة لتكون طوائف . فإذا تمزقت طوائف ، تحاربت طوائف . فكانت الفتنة الطائفية . .

وهذه الفتنة الطائفية لم تسكن آثارها فى نفسى . فهى فعلاً قد كشفت لنا عن سوء السلوك الديموقراطى فى مصر . فلا جدال فى أن هذه الفتنة الدينية ، هى محنة قومية . لا جدال . ومادامت محنة فكيف يكون سلوكنا جميعاً فى مواجهتها ؟ . .

يجب أن يكون سلوك الذين شبت النار فى بيوتهم . . يلقون عليها الماء ، وليس البنزين . والذى حدث فى مصر هو أن بعض الفاسدين ألقوا عليها البنزين . بل راحوا يشمتون فى الذى سوف يصيب مصر . فهذا السلوك سيىء وغريب وأغرب من ذلك أن أجد نفسى مضطراً أن أفرض حسن السلوك السياسى بقانون ! . . بينما الشعوب الأكثر ممارسة للديموقراطية تترك ذلك للذوق العام والضمير الأخلاقى . فالسيد بيجين قبل أن يضرب المفاعل العراقى أطلع خصمه السياسى السيد شمعون بيريز . ولكن بيريز لم يفتح فمه بكلمة واحدة . كل الذى فعله هو أنه أعرب عن عدم موافقته على ذلك . تنهى واجبه القومى . وعندما نجحت الغارة هنأ سلاح الطيران على أدائه الناجح فى مهمة قومية ، حرصاً على أصوات الجيش . ولكن بعد ذلك هاجم بيجين بعنف . هذا هو السلوك الديموقراطى . أريدك أن تتصور أننى فى موقف مماثل ، واستدعيت إبراهيم شكرى وأطلعته على ما سوف أفعل ، إذن لكانت كارثة قومية ، فسوف يخرج على الناس ويفشى هذا السر القومى الخطير –

هذا هو سوء السلوك أو انعدام الوعى السياسى . . وفى بريطانيا مثلاً يتم التفاهم بين رئيس الحكومة وزعيم المعارضة على قضايا كثيرة لايدرى عنها الناس شيئاً . ويلتزمون بالصمت حفاظاً على سلامة الوطن . . وليسوا هناك فى حاجة إلى سن قانون يحرم عليهم إفشاء الأسرار العسكرية أو القرارات المصيرية . . إنما هم يفعلون ذلك من تلقاء أنفسهم . ولكننا فى مصر يجب أن نلجأ إلى القانون - وهذا ما قلته فى التليفزيون الأمريكى . ولابد أن هذا قد أدهشهم ، ولابد أن دهشتهم هذه قد جعلت عذرى مفهوماً لديهم .

سيادة الرئيس:

ما دمت قد تعرضت لضرورة التربية والتعليم والعلم والعودة إلى الله ، أفلا يدل ذلك على أنك أمام نتائج لأسباب تربوية أو تعليمية خاطئة أو يجب تغييرها . . فمنذ متى بدأ هذا التعليم الخاطىء ؟ أو الذى انحرف بالمصريين عن أن يكون لهم دور إيجابى فى بناء مصر . . أى إلى دور سلبى فى التفرج عليها أو تعويق الآخرين أو تضليلهم عن المساهمة بشىء ؟ .

أجاب:

أعتقد أن الرجل الإنجليزى دنلوب الذى قام بتطوير برامج التعليم فى مصر هو المسئول الأول . قد يقال إن البرامج تغيرت وتبدلت كثيراً . ولكن أردنا أو لم نرد : لا يزال هذا الرجل يطل برأسه فى الكتب المدرسية ، وهو المسئول عن وضع عدسات زائفة على عيون المصريين . وهو المسئول عن تصوير الموظف صاحب الياقة البيضاء والجالس إلى المكتب ، مثلاً أعلى لنا جميعاً . . وليس الفلاح أو العامل . وهو لذلك قد عمق لدينا الشعور بأننا دون الآخرين . الأوروبيين . . فلا يكاد الواحد يتحدث إلى أحد الأوروبيين حتى يخيل إليهم أنهم من طينة أخرى ، أو أنهم من مادة أخرى غير الطين الذى خلقنا الله منه . . وهو أيضاً المسئول عن ظهور «الأفندية» المصريين . . هؤلاء قد ابتعلتهم المدينة ، وخسرتهم القرية . . وخصموا من رصيد مصر القومى . هذا ما يجب تغييره ، لأننا بسبيل أن نبنى الإنسان المصرى الذى يريد أن نتحدث عن نظرية سياسية خاصة به . . وليكن ذلك حديثنا القادم . .

سيادة الرئيس:

شكراً .

حالة "التلقى" التى نريدها الجميع !!

سيادة الرئيس:

موعدنا اليوم ، كما وعدت فى الحديث السابق ، أن تحدث أبناءك من شباب مصر والأمة العربية ، عن النظرية السياسية المصرية . . أو الصيغة الفكرية التى ارتضاها الشعب لنفسه . وفى ذلك إجابة عن أسئلة وجهها إليك الشباب . فهم يريدون أن يسمعوا منك وبلغتك : ما هو الفهم السياسى الصحيح ؟ . وما هو الدور المطلوب من الشبان أن يؤدوه ؟ بعبارة أخرى إذا قال شاب أنا مصرى . . كان معنى ذلك أنه المواطن الصغير الذى يؤمن بنظرية فى السياسة تختلف عن غيره وعن غيرها من النظريات المستخدمة فى المنطقة . . فالسؤال عن نظرته السياسية وكيانه القومى . وقد أعلنت ياسيادة الرئيس أن لديك الكثير جداً الذى تريد أن تقوله لأبنائك من ملايين الشبان . .

أجاب:

هذا صحيح . وهذا ما وعدت به . ولكن لا تزال أمامى مساحة من الوقت ومن التاريخ يجب أن أغطيها تماما قبل أن أصل إلى تعريف النظرية السياسية . فالنظرية السياسية هى أسهل ما فى هذه المهمة التى أريد الاضطلاع بها أمام أبنائى شباب مصر وشباب الأمة العربية . وسوف أفعل إن شاء الله . . فأنا لم أكمل حديثى بعد عن قضية هامة جداً . وهى : ينابيع القوة الذاتية للإنسان . أى ما هى القوة الحقيقية لأى إنسان ؟ . وأنا لا أريد ، كما أعلنت من قبل ، أن أدخل بنفسى أو بالشباب فى متاهات النظريات الفلسفية والنفسية والدينية والاجتماعية . فأنا لا أريد أن أشق عليهم أو على نفسى . فأنا إنسان بسيط جداً ، وصاحب أفكار بسيطة وواضحة . واضحة لأنها بسيطة ، وبسيطة لأنها مقنعة . وكل ما سوف أقدمه للشباب هو من تجاربى . وأنا أمثل الأغلبية الساحقة من أبناء الريف المصريين الفقراء الذين لا يملكون إلا القوة الذاتية . القوة الداخلية . هل أنا فى حاجة إلى أن

أقول للمرة الألف : إننى فلاح بسيط فقير جداً من قرية ميت أبو الكوم ؟ . ليس هذا جديداً . ولكن أرجو ألا يضيق أحد بذلك . لأن المعنى الذى أريده ليس أن أؤكد كلما أتيحت لى فرصة : أننى فلاح وأننى من هذه القرية الصغيرة . فلست وحدى الفلاح ، ولا وحدى الذى جاء من قاع الريف المصرى . ولكن المعنى الذى أريد أن أشير إليه دائما هو أننى عندما عشت فى الريف كان الريف بكل ما فيه يملأ عينى وأذنى ورأسى وقلبى . وقد يبدو هذا المعنى عاديا . ولكن أرجو ألا نقع فى هذا الخطأ . فالمعنى ليس عادياً . لأن نتائجه فى حياتى ، وفى حياة مصر ، لم تكن بالشىء العادى . فمن هذه القرية تلقيت كل مبادىء القوة . وهى نفس المبادىء الموجودة عند كل فلاح . والفرق بين الذى يستشعر هذه القوة والذى لا يحس بها ، كالذى يدرى بنفسه والذى لا يدرى بها . . أو كالذى يدرك تماماً أنه شاب وأنه قوى وأنه قادر على أن يحقق المعجزات ، والذى لا يعى نفسه ومزاياه ومواهبه ورسالته فى هذه الدنيا . أما أنا فأبادر وأقول : إننى أنتسب إلى الصنف الأول من الناس . فأنا أعتز بأننى فلاح ، وأعتز بأننى من هذه القرية . ومؤمن تماماً بأننى تعلمت ، بلا مشقة ، كل ما أحتاج إليه فى رحلة حياتى . وهذا يجعلنى ويجعلنا ، نختلف عن الذين عاشوا فى المدن الباهرة الأضواء الفخمة . . البيوت . السهلة الحياة ، ثم لم يتعلموا شيئاً . . سارت بهم الحياة ، ولم يسيروا هم بالحياة . . كانت الحياة مثل السيارات تنقلهم دون مجهود منهم . . أما نحن فكنا نمشى الحياة على أقدامنا . . نحن نمشى بالحياة . . كل خطوة جهد ، وكل جهد عرق ، وكل عرق حبات لؤلؤ فى عقد المستقبل . . وليس هذا شعرا استدرجنى إليه أو التعبير . . إنما هى الحقيقة . وسوف أسردها لأبنائى كما هى . . قصة حياتى وتجربتى : عظة وعبرة وأمل ونصر وسلام . .

سيادة الرئيس:

لم يعد سرا خافيا على أحد اعتزازك بأنك ريفى ، وتكرارك الدائم لقريتك . . بل إنك أقمت قرية أخرى فى سيناء . . وفى إحدى المناسبات وصفت مصر كلها بأنها ميت أبو الكوم الكبرى . . ولعلك أردت بذلك أن تغرس الانتماء إلى شىء . . إلى القرية . . إلى المدينة . . المهم أنك تغرس الانتماء إلى أرض مصر . . فأنت تريد دائماً أن تعود من حين إلى حين إلى ميت أبو الكوم . . بل يمكن أن يقال إنك لم تبعد عنها لحظة واحدة ، وإنك تراها أينما ذهبت . . ولكن يا سيادة الرئيس ليس واضحاً تماماً ما تعنيه دائما عندما تتحدث عن ميت أبو الكوم نفسها . . ولا ما الذى تقصده من وراء ذلك ثم تريد أن تنقله إلى الشباب من أبناء مصر والبلاد العربية . .

أجاب:

سأرد على هذا السؤال بعد قليل . ولكن سوف أعود إلى الكلام عن ميت أبو الكوم بشكل آخر . . وأذكرك بقصة «عيسى بن هشام» التى كتبها أديبنا المويلحى . فبطل هذه القصة رجل خرج من القبور ليجد أن الدنيا قد تغيرت فى مصر . فهو فى حالة ذهول لما يرى . . تماما مثل أهل الكهف الذين ناموا فى كهفهم ٣٠٩ سنوات ، وعندما صحوا وجدوا دنيا أخرى . . بمنتهى الصراحة أقول لك . . إننى كنت مثل عيسى بن هشام هذا عندما انتقلت من ميت أبو الكوم إلى القاهرة . مع فارق واحد : أننى لم أكن نائما ثم صحوت . . إنما أنا خرجت من ميت أبو الكوم فى غاية الصحو واليقظة . . ولذلك انطبع فى رأسى بمنتهى الوضوح كل الذى رأيته . وأهم من ذلك أننى لم أشعر بأننى دون أحد من الناس . قد كان بيتنا من الطين ، ولكننا نملكه . وكانت بيوت القاهرة من الطوب والحجارة . وأكثر الناس يسكنونها ولا يملكونها . . ولا أنسى قصرا صغيراً رأيته فى العباسية . المدخل واسع . وعلى جانبيه أعمدة لامعة . ولم أفهم ما سر هذا اللمعان . ولكن عرفت بعد أن هذه الأعمدة من الجرانيت . ولم أكن أتصور أن الجرانيت يمكن استخدامه فى أى شىء آخر غير التماثيل الفرعونية وسد أسوان . وعندما ذهبت إلى المدرسة وجدت عجباً . فالتلامذة مختلفون شكلا وزياً . وفيهم أغنياء . ولم أكن أعرف معنى أن يكون الإنسان غنيا . كل الذى أعرفه أن الوضع الطبيعى للإنسان أن يكون فقيرا . كما أن الوضع الطبيعى للإنسان أن يولد عاريا ثم يكسوه أهله ملابس مختلفة . والأطفال تحت الملابس سواء . ولكن فى القاهرة وجدت فوارق كثيرة بين الناس لم أكن أعرفها . وقلت لنفسى : عندما أكبر فسوف أرتدى ملابس أنيقة . . سوف أفعل ذلك ، وفى هذا الوقت كنت أذهب إلى المدينة مع والدى . ونذهب إلى الترزى ونختار القماش . ويقوم الترزى بتفصيله ، وبعد ساعة ونصف يعطينى الجاكتة والبنطلون بمائة وخمسين قرشاً . وكنت أضحك عندما أسمع أنهم فى هونج كونج يفصلون الجاكتة والبنطلون فى ٢٤ ساعة . وأن الأطفال الصغار يطاردون السياح فى مطار هونج كونج وفى أيديهم عناوين الترزية . ولا يكاد السائح يوافق على تفصيل البدلة حتى يطارده الترزية . وبعد يوم أو أقل يأتون له بالبدلة فى الفندق . . إننا على وقتنا لم نكن نحتاج إلى أكثر من ١٨٠ دقيقة . . وعلى أيامى عندما كنت طالبا فى المدرسة الثانوية كانت الموضة هى الجاكتة البيضاء والبنطلون الرمادى – وهو ما لم أكن أستطيع شراءه أو حتى أن أتمنى ذلك . .

أما المعنى الهام الذى أريد أن أشير إليه فهو أننى فى أعماقى كنت ممتلئا بذاتى . لا أشعر بحقد على الذين يملكون ما لا أملك ، ويرتدون ما لا أستطيع ، ويسكنون فى بيوت لامعة . أبدا . إنما كنت أحس أن الذى فى أعماقى هو أقوى وأعظم . فقد جئت من الريف خالى الجيب فارغ اليدين ، ولكنى ملىء . . ممتلىء . . مشبع . . بماذا ؟ هذا هو السؤال . فمن أين جاء هذا الامتلاء ؟ . . الإجابة بسيطة جدا ولكنها لبساطتها تحتاج إلى توضيح . لقد امتلأت مشاعرى كلها بالريف . فليس فى الريف إلا الحياة تنمو وتتطور . كما قلت فى حديثى السابق معك . والقرآن الكريم يدعونا دائماً إلى «النظر» فى السماء وفى الأرض وفى أنفسنا . . والله سبحانه وتعالى يرى أن النظر إلى ما حولنا ، هو بداية الطريق إلى الإيمان العميق به . . وعندما طلب موسى عليه السلام أن يرى الله ، وهو مطلب يبدو ساذجا ، ولكن موسى عليه السلام يريد أن يعرف حدود عظمة الله . . ولما كانت عظمة الله لا حدود لها ، فقد طلب إليه أن ينظر إلى الجبل . . إلى الشجر . . إلى ما تقدر عليه عيناه ويستوعبه عقله . ومن خلال هذه النظرة وبسببها ، واعتمادا عليها ، يستطيع أن يدرك عظمة الله . . ونحن نعرف مثلا طبيعة مياه المحيط ، لا لأننا حللنا كل المياه إنما أخذنا قطرات منه . . فالقطرة تدل على المحيط ، والشجرة تدل على الله . . ولم أكن فى حاجة إلى فلسفة تعيننى على فهم ما أرى . فقد رأيت وفهمت واقتنعت وآمنت . . وجاء القرآن الكريم الذى حفظته واستمعت إليه واستوضحته لنفسى ولغيرى ، تتويجا كريما لأول مرحلة فى بناء الذات ، هل كنت أفكر فى بناء ذاتى ؟ . . لا أدعى ذلك . هل أحسست وأنا ريفى بسيط أننى سوف أكون شيئاً ؟ . . وأقول : لا ونعم . لا : لأننى لم أكن أدرى تماما حدود خيالى وحدود قدرتى . . فأنا ريفى مزروع فى قرية مجهولة فقيرة . واحد من ثلاثة عشر أخا . . ونعم : لأننى كنت أحلم بأننى سوف أكون شيئا . . وكان الذين حولى يضحكون لذلك . . ولم أكن أضحك أو أجد مبررا للضحك . . ولابد أن الله قد أراد لى شيئا لا أعرفه . . ولابد أن الله قد اختار لى ما قدره سلفا . . ولا أقول إننى فى السن الصغيرة استوعبت كتاب الله العظيم . . ولكن الكثير مما جاء فى كتاب الله العظيم هو الذى ملأنى برصيد من الذهب . . هذا الرصيد هو الذى جعلنى أنظر إلى رصيد أبناء المدن على أنه شىء زائل . . إن رصيدهم ورق . . وإن قوتهم مستعارة . . وإن حيويتهم زائفة . . وإنهم أعشاب تطفو على الماء ، أما أنا فشجرة لها جذور . . وهذه الجذور هى التى أعطتنى الاستقرار . . وأعطتنى الأمان . . وسلحتنى بالأصالة . وبمعنى آخر اهتديت

إليه أخيراً : هو المناعة . . هذه المناعة جعلتنى غير مستهدف لأمراض الحياة فى المدينة . . هذه المناعة يمكن أن أصفها أيضا بأنها : المَنَعَة أى القوة . ولو كنت رساما لعبرت عن هذا المعنى على النحو التالى : شجرة ولتكن شجرة توت . . أو شجرة جميز ضافية الأغصان . . أو شجرة صفصاف . . أو شجرة سرو . . المهم أن أكون شجرة عالية لها جذور عميقة وأغصان ممدودة . . وتحتها وإلى جوارها مساحات هائلة من العشب . . وتهب علينا جميعا الرياح . . أما الأعشاب فهى تتمايل وتتكسر وتتمسح بالأرض ، وأما الشجرة فتقاوم فى شموخ . فرعها ثابت وأصلها فى أعماق الأرض . .

سيادة الرئيس:

فى قصة حياتك تتحدث كثيراً عن مشاعرك . . عن وجدانك . . عن أثر الأشياء والعلاقات والناس والإيمان فى نفسك . . ولكنك لا تتحدث إلا قليلاً جدا عن روافدك العقلية . . عن الناس الذين أثروا فى فكرك . . عن الكتب التى عكفت عليها ، فأضاءت لك . . وفتحت لك الآفاق . . أما القرآن الكريم فهو أعظم الكتب . . ولكن القرآن الكريم يظل دائما هادينا وعلى رؤسنا وفى قلوبنا . . ولكن لايحدث أن يقرأ الإنسان القرآن طول الوقت . . فإذا احتاج الإنسان إلى التسلية أو إلى معرفة تاريخ مصر أو تاريخ العالم ، أو معرفة أعماقه النفسية ، فإنه يحتاج عادة إلى إنسان مثله يحدثه ويحاوره ويأخذ بيده إلى داخله وإلى خارجه . . فلابد أن تكون قد قرأت ما يقرؤه الصغار ، ووجدت متعتك العابرة فى كتب مسلية أو روايات . . هل أنت يا سيادة الرئيس تجد حرجا فى أن تقول إنك قرأت كتبا أخرى . . وأن لك متعا صغيرة ؟ . . إن الذى يقرأ حياتك يكاد يقطع بذلك ، خاصة إذا عرفت أنك لا تمل الحديث عن شيئين : ميت أبو الكوم والزنزانة «٥٤» ؟ .

أجاب:

إننى بشر . عشت بالطول والعرض . وعندما انعدم الطول والعرض وجدتنى فى زنزانة ، وهى تجربة أليمة عنيفة . ولو كانت حياتى محدودة ضيقة ، لكنت انتقلت إلى الزنزانة كالانتقال من غرفة مساحتها عشرة أمتار إلى غرفة مساحتها خمسة أمتار . . ليس شيئاً مفزعا . . أو لو كنت راهبا أمضى يومى كله فى الصومعة ، ثم انتقلت إلى الزنزانة ، ما وجدت فارقا كبيراً . وكما كنت أقرأ الصحف وأكتب وأتابع الإذاعة وأخبار الدنيا . وجدتنى فى الزنزانة ١٨ شهراً لا أسمع ولا أرى ولا أتكلم .

إن سمعت فدقات قلبى . وإن رأيت فالجدران الأربعة ودلوين . . أحدهما من الماء والآخر من البول . وإن تكلمت فإلى الله أدعوه أن يفرج كربتى ويحل أزمتى ويردنى إلى أسرتى . . ولذلك فعندما جاءتنى بعض الكتب فى السجن ، كان أثرها عميقا جدا فى نفسى . جاءتنى المجلات . وسجلت بعض ما جاء فيها فى مذكراتى الخاصة . وأعترف لك بأن صحف زمان أفضل كثيرا جداً من صحف اليوم - مع الأسف ، فصحف زمان تعنى بالثقافة والفكر ، وصحف اليوم مادتها هى الخبر ، ومثلها الأعلى هو الإثارة . وقانونها هو المهن الصحفية . ونصيبها من الثقافة ، ثقافة العاملين فيها ، وثقافة القراء أيضا : قليل جداً .

ووجدتنى فى السجن أمام مشكلة حيرتنى بعض الوقت . ثم اهتديت إلى معنى يستحق اهتمام الدارسين والمؤرخين . ومن المؤكد أنها سوف تشغلهم . فقد وقعت فى يدى كتب ذات معنى واحد . . لها معنى يخدم القضية التى أنشغل بها الآن . . وهى بناء الإنسان من داخله . أو بمعنى آخر : كيف نفجر ينابيع القوة والإبداع عند الشباب . . أما أنا فقد حدث لى ذلك . ولكن يجب أن أضيف شيئا هاما جدا ، إننى كنت فى حالة استعداد لذلك . وأرجو أن أضع تعبيراً أدق لهذا المعنى ، وهو أننى كنت فى حالة من «التلقى» . وسوف أعود إلى هذا المعنى فيما بعد ، ولكى أكون واضحا فإننى أقول : حالة التلقى هذه تشبه الراديو الذى استكملت كل أسلاكه وبطارياته ولمباته ، وأصبح مستعدا تماما لأن يتلقى كل ما يذاع فى العالم . فإذا لم يكن الراديو مضبوطا سليما . فإنه لن يكون جاهزا . أى لن يكون فى حالة استقبال . ولكنى أفضل كلمة «التلقى» . لأن الاستقبال فيه سلبية . . فالراديو سالب تماما . إنه قابع فى مكانه ويذيع ما تلتقطه أجهزته . . أما التلقى فهو الاستعداد مع التلهف على ذلك . . تماماً كما تلقى بالكرة لإنسان فيتلقاها بيديه . . هو رآها واستعد لها ثم التقطها . . فأنا كنت فى هذه الحالة تماما . ولذلك فكل الذى قرأته انطبع تماما فى ذاكرتى . ولا أعتقد أن شيئا واحدا مما قرأت فى السجن قد نسيته . . لا حكمة ولا حادثة ولا اسما . وأنا لا أدعو أبنائى إلى أن يدخلوا السجن مثلى . ولكن من واجبى أن أوفر عليهم هذا العناء ، وأن أيسر لهم حالة التلقى هذه . وفى نفس الوقت أن أوفر لهم الصالحة لأن يتلقوها ويعملوا بها فى بناء أنفسهم وفى بناء مصر أيضا .

سيادة الرئيس:

كما تقول يا سيادة الرئيس ، فإن الذى قرأته وشغلك سوف يكون شاغلا للباحثين والمؤرخين . أما القرآن الكريم فنحن نعرفه . وأنا واحد من أبناء الريف الذين حفظوا القرآن الكريم فى سن صغيرة ، وعشت على هامشه ، وعاش فى أعماقى وقتا طويلا . . ولكن من المفيد يا سيادة الرئيس ، أن تدلنا ، على قدر استطاعتك ، عن هذه القراءات فى داخل السجن ، التى كان لها أثر فى حياتك ، كما لحياتك أثر فى حياتنا . . وإن كنت أعلن مقدما أن من الممكن أن يقرأ ألف شخص كتابا واحدا ، ويكون هناك ألف أثر مختلف . . ولكن شخصا واحدا يقرأ هذا الكتاب ويخرج منه على الناس بمعنى لم يخطر لأحد على بال . . فما أكثر الذين قرأوا كتاب «الأمير» للفيلسوف الإيطالى ماكيافللى . . ولكن موسولينى وحده الذى استطاع أن يبنى عليه فلسفته الفاشية . . وما أكثر الذين سمعوا العصافير . . ولكن طفلا واحدا هو بيتهوفن عندما سمعها وهو صغير قال : إنها تحدثنى وحدى . . فهل ذكرت للشباب بعض هذه الكتب والمعنى الذى بلغك منها ؟ . .

أجاب:

تماما كما تقول فمن الممكن أن تتداول فى السجن كتابا واحدا ، وقد حدث ، ولكن واحدا فقط هو الذى اهتز من أعماقه . . وكان هذا الواحد أنا . أما الكتاب فهو للكاتب الأمريكى إدجار دالاس . . والغريب أن الكتاب كان باللغة الألمانية التى كنت حديث العهد بها . ولكن سهولة عبارة هذا الكتاب لم تكن حائلا دون فهمه والمضى فيه . ومعاودة قراءته أيضاً . الكتاب اسمه «الأفعال العجيبة» ولا أريد أن أدخل فى تفاصيل الأحداث الروائية فى داخله ، ولكن معناه هو أن الإنسان إذا كانت فيه قوة داخلية فإنه ليس فى حاجة إلى قراءة أو كتابة . إنما قوته تشع من داخله وتبعث الحياة فى الآخرين . . وفى هذه الرواية أن شابا علقوه من حبل المشنقة ، ولكن رجلا أمياً قوى الروح وقف ينظر إليه . . عيناه فى عينيه ، وعن طريق هاتين العينين انتقلت القوة كلها إلى هذا الشاب الذى لم يعد يهتز لأنه سوف يموت . . وأنا لا أجد هذا المعنى جديداً . . ولكنى أجد أن وصول الكتاب إلى زنزانتى هو الشىء العجيب . فهذه الرواية لا تحدثنى عن أحد . إنما تحدثنى عن نفسى . وهذا الكتاب استطاع بمنتهى القوة والوضوح . . أن يزيح جدران الزنزانة

بعيدا بعيدا حتى وسعت السماء والأرض . فلم تكن هذ الرواية قد ساقتها الصدفة ، إنما هى رسالة من السماء تؤكد لى أن الذى أحس به صحيح ، وهو أن قوة الإنسان فى داخله . وإذا كان الإيمان هو الذى فى داخله ، فهو أقوى من الأقوياء . .

رواية أخرى لقسيس أمريكى كان طبيبا . . إنها من نفس الطراز ، ولها نفس المعنى عندى . القس هو لويد دوجلاس . والرواية اسمها «الهاجس الجميل» أو «الفكرة الرائعة المتسلطة» . وخلاصة هذه الرواية بسيطة جدا ، هى أن هذا الطبيب القس ، أى الذى جمع بين العلم والإيمان ، قد اهتدى إلى آية فى الإنجيل تقول : إن الإنسان إذا كانت لديه قوة معنوية فى حجم حبة الخردل ، استطاع أن يحرك الجبال . . وهناك معنى آخر ، هو أن الإنسان عندما يعطى لغيره ، فإنه لا يحذف من رصيده ، إنما هو يضاعفه . فالعطاء يمشى فى اتجاهين : واحد إلى الناس ، والثانى إليك أنت . فالذى يساعد محتاجا مثلا ويعطيه ، فالله يضاعف له العطاء . . والقرآن الكريم يقول لنا إن الذى يعطى كأنه يفعل ذلك نيابة عن الله سبحانه وتعالى وبمشيئته طبعا . فكأنه يقرض الله . وفى ذلك يقول : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة ﴾ .

أهم من ذلك : أن كل هذه المعانى جاءت فى القرآن الكريم . ولكننا لا ندرى ، ونحن لا ندرى . . إما لأننا لم نقرأ القرآن الكريم ، وإما أننا قرأناه بمعنى يخالف روحه . وكما قلت فى حديثى السابق . . إن هناك أناسا يصورون الله سبحانه وتعالى على أنه جبار منتقم مخيف . . مع أن الله وصف نفسه بالرحمة والغفران . .

ورواية ثالثة للكاتب جاك لندن . . اسمها «ذئب البحر» . وهذا الذئب هو قبطان سفينة لصيد الحيتان . وقد انتشل عددا من الغرقى وهو فى طريقه إلى شمال المحيط الهادى ، ورفض أن يعيدهم إلى الشاطىء مع أنه كان قريباً منه . والقبطان قارىء ملحد . ويدور حوار بينه وبين شاب عن الإيمان ، ويتغلب عليه هذا الشاب الصغير . . فكأن المؤلف يريد أن يصور لنا أنه إذا كان المحيط هادئا ، فإنا فوقه ثورة عاصفة بين الإلحاد والإيمان ، وكما أن المحيط هادىء ، فإن ظهر السفينة قد هدأ عندما يؤمن القبطان الملحد . . لأسباب لا تخطر على البال . .

أما معنى هذه الروايات الثلاث فواحد ، ولكن المؤلفين وصلوا إليه بأشكال مختلفة : فالقوة فى داخلك . والإيمان قوة . وأن العلم يدعو إلى الإيمان . وقد يكون

الملحد قبطانا ، ويكون المؤمن شابا صغيراً غريقا . ولكن ذرة إيمان تهدم جبلا من الإلحاد . .

ولا يقل عن ذلك فى الأهمية أن يكون الإنسان فى حالة «التلقى» . . أى فى حالة الاستعداد الخصب لهذه المعانى التى إذا بذرت فى قلبه أثمرت فى عقله ، وترعرعت فى مجتمعه وصمدت فى وجه الريح – وهذه تجربتى . .

سيادة الرئيس:

فى مذكراتك التى نشرت فى مجلة أكتوبر ، تحدثت عن المفكرين المصريين الذين أثروا فى حياتك وأثْروها أيضاً . فهل تعود إلى ذلك وتربطه بهذا المعنى الذى تحرص عليه ؟ . . وربما كانت هذه الكتب المصرية أو العربية هى الأكثر تناولاً وتداولاً عند الشباب . . خاصة إذا كان المعنى هو أنه ليس المهم أن تقرأ كتابا ، إنما أهم من ذلك تستعوب معانيه ، وأن تجتذب هذه الكتب أقربنا جميعاً إلى حالة «التلقى» النفسية والعقلية والسياسية . .

أجاب:

لابد أن أؤكد مرة أخرى أن هذه الروايات التى قرأتها لم تكن من اختيارى فالإنسان فى السجن لا يختار . إنما هم جمعوها من سور الأزبكية مع عدد كبير من مجلات «المختار» و «المقتطف» و «الهلال» ورموها فى وجوهنا وانصرفوا . . ولا أعرف كيف أصور لأبنائى معنى الزنزانة . . فهذا المعنى مهم ، لأنه يدل على الحالة العقلية والنفسية والاختناق الروحى الذى يسحق كل سجين . . فكثير من زملائى ماتوا فى سن صغيرة ، وبعضهم اختل عقله . . ولم ينج من الموت همّاً وغما وكمدا ويأسا إلا قليلون . . ولا أريد أن أهرب من ذكر الزنزانة دون ترسيخ لها فى خيال القارىء ، لعلِّى أساعده على فهم ما أقول . . إننى أطلب ، على سبيل التوضيح ، إلى أى شاب أن يدخل غرفته ويغلق الباب والشباك ويطفىء الأنوار ويجلس على الأرض ، ولا داعى لإشاعة الروائح الكريهة فى الغرفة . . ويخرج من الغرفة ربع ساعة فى الصباح ومثله فى المساء . . وليفعل ذلك يوما واحدا . . لا شهرا ولا سنة . . وطبعا لا يقرأ ولا يكتب ولا يسمع الراديو ولا يشاهد التليفزيون . . إنه سوف يتعب تماما . ويعجبنى هنا أضرب مثلا آخر : فعندما يسقط إنسان فى الجليد . . وينهال الجليد عليه ساعة أو ساعتين . . فقد لا يموت . . ولكنه يدوخ ، هل تعرف ما الذى يدوخه ؟ إنه ثانى أوكسيد الكربون الذى يتنفسه . . وثانى

أوكسيد الكربون فى أية زنزانة ليس الهواء فقط . . إنما الهواء الفاسد ، والحرية المغلولة ، والهوان الدائم . . ولا شىء ينقذه من نفسه ومن غيره إلا نفسه . . إلا هذه القوة الداخلية التى أحدثك عنها . .

فأنا قرأت كتبا عربية إسلامية أسعدتنى لأنها أمتعتنى . أو هى أمتعتنى لأنها أجابت عن رغبات قوية فى أعماقى . قرأت «على هامش السيرة» لطه حسين . . إنها موسيقى أدبية جميلة بسيطة . فطه حسين استخرج من السيرة النبوية أدق أحداثها ، واستطاع أن ينظمها رفيعة . بديعة . . وقرأت «ضحى الإسلام» لأحمد أمين . ولم يتسع وقتى لقراءة «فجر الإسلام» و «ظهور الإسلام» له أيضا . . ولكن هذه الكتب وضعت أصابعى وعينى على معان كانت خافية عنى فى السيرة والمذاهب الإسلامية .

وكل هذه الكتب العربية والأجنبية ، تؤكد عندى معنى واحداً : أن القرآن الكريم هو الكتاب ، وأن معانيه هى المعانى . وأن الذى اهتدى إليه الغرب جاء من القرآن الكريم . . قرأوه بعقول متفتحة ، وأكثرنا قرأه بعقول ضيقة . . فكان لهم الإبداع ، ولم يكن لنا من ذلك شىء كثير . وواجبنا أن نستدرك مافات . وعندنا وقت وعزيمة أيضاً . .

سيادة الرئيس:

لقد وعدت بإصدار كتاب عن تجربتك مع الإيمان ، وهى نفس تجربتك مع السلام . فالسلام مع النفس ومع الله هو الينبوع الحقيقى للسلام مع الآخرين . . وقلت إنك سوف تتجه بكتابك هذا إلى كل دين وبغير دين . فإلى أين وصلت فى كتابك هذا ؟ . . وهل أنت تكتبه للشباب أيضا ؟ .

أجاب :

لعلك تذكر أننى عندما كتبت مذكراتى فى الشهور الأولى من مجلة أكتوبر ووجهتها إلى الشباب المصرى والعربى ليعرف ماذا حدث فى مصر ، وماذا يمكن أن يحدث فى بلاد عربية . . وما توقعته حدث تماما . ويسعدنى أننى تنبأت بذلك ، ونبهت إليه قبل أن يقع . .

وعندى الآن كتابان ، أحدهما الذى تحدثت عنه الآن . وقد فرغت منه تماما . وهو يدور حول هذا المعنى ، أو يدير هذا المعنى . . معنى القوة الدافعة لكل ما يفعل الإنسان فى حياته الخاصة والعامة . . والثانى عن إنجازاتى فى الأحد عشر عاما الماضية . .

وربما كان المعنى واحدا ، هو : أنه لكى يكون الإنسان قويا ، فليبدأ من أعماقه . فإذا أصبح قويا استطاع أن يحقق المعجزات . ولست إلا واحدا ، وإلا صاحب تجربة واضحة عميقة أعرضها على أبنائى وأرتضى حكمهم .

وكى أكمل الصورة التى رسمتها الصدفة ، أو قل القدر ، أو قل إرادة الله – وهذا أفضل . فإننى لابد أن أتحدث عن رواية هزت أعماقى واستقرت فيها ، وجعلتنى أطمئن على مقاييسى ومعاييرى الريفية الإيجابية . إنها رواية «حد الموسى» للروائى سومرست موم . وأنا لا أحب شخصية هذا الرجل الشاذ ، ولكن من المؤكد أنه فنان عظيم . . وهذه الرواية من أروع ما كتب . إنها حكاية واحدة يبحث عن الراحة النفسية والإيمان العميق بشىء . إنه طيار فى الحرب العالمية الثانية ، وأى طائرة زميل له تسقط فيموت . وعندما تسقط الطائرة يرتفع أمام عينيه هذا السؤال : أهذه هى نهاية الحياة ؟ . نعم . فما هى الحياة ؟ . ولكى يجيب عن هذا السؤال ينتقل بين أمريكا وأوروبا والهند . . فهو يعمل فى المناجم وهو يعيش فى الأديرة وهو يشرب ، ثم لا يجد الإجابة عن هذا السؤال . ويسافر إلى الهند . وفى الهند يلتقى بمختلف المذاهب الدينية . ويلتقى بواحد من الكهنة . وهذا الكاهن يؤمن باستمرار الحياة وتناسخها . . أى انتقالها من إنسان إلى حيوان ومن حيوان إلى إنسان . . بغير نهاية . ولذلك فأتباع هذه الديانة يضعون موتاهم فوق أسطح البيوت ، وتجىء النسور تنهش لحمهم . . وتبقى العظام فيلقونها فى البحر لتدور الحياة . ثم عاد هذا الطيار الحائر إلى أوروبا بالمؤلف سومرست موم ، ويقول للمؤلف إنه قرر أن يوزع ثروته على كل الناس . . تماما كما فعل الأديب الروسى تولستوى . . ولكن المؤلف ينصحه بأن الثروة هى الوسيلة الوحيدة للاستقلال الذاتى للإنسان . وهى وحدها التى تغنيه عن أن يسأل أو يحتاج إليهم . ولكن بطل الرواية يصر على موقفه . .

ومن الغريب أن هذا الكاهن الهندى قد زارته ملكة اليونان السابقة الملكة فريدريكا التى توفيت هذا العام . وعندما قابلتها فى أسوان حدثتنى عن تجربتها . وقد ألفت كتابا ماتت دون أن تكمله ، وكان من المتفق عليه بيننا أن نكمله معا . . فقد التقت بتجاربها الصوفية ، مع تجاربى أيضا . وقد أرسلت لى خطابا تحدثنى فيه عن ذلك . والخطاب يضىء بالشفافية والروحانية . . أما المعنى الذى قصده سومرست موم فهو : أن كل قوى الخير والشر فى داخلك . انتهى المعنى . وعلينا أن نبدأ التفكير مباشرة . وسوف يؤدى بنا التفكير إلى أن كل القوى فى أعماقك . .

وليست خارجك . والحديث النبوى يقول : «ليس الغِنَى بكثر العرض ، إنما الغِنَى غِنَى النفس» .

هذا هو المعنى . فهناك إذن نوعان من الغنى : الغنى بالناس ، والغنى بالنفس . وقبل أن تصبح غنيا بالناس ، يجب أن تكون غنيا بنفسك . . وهذا ما أتمنى أن يعرفه الشباب . أتمنى أن أحققه لهم . . أن أفتح لهم الأبواب والنوافذ . . وأشق لهم الطرق ، وأرصف لهم ميادين الحضارة والقيم الأخلاقية التى عليها يجب أن يقام كل بناء . فالذى لا يبنى نفسه لا يبنى غيره . .

سيادة الرئيس:

أنت كنت شابا ثائرا ، وأنت شكلت جمعيات سرية وتآمرت ، وقتلتم أمين عثمان ، وكان من أهدافك نسف السفارة البريطانية على رأى السفير كيلرن الحاكم الحقيقى لمصر فى ذلك الوقت . . ثم إنك أنت وعدداً من الشبان قد أفلحتم حيث فشلت مصر كلها : أفلحتم فى طرد السفير البريطانى . . ألا ترى يا سيادة الرئيس أن الشباب له العذر فى أن يثور وأن يعبر وأن يجاهر برأيه ؟ . . إذ كيف تكون شابا ثائرا ، ثم ترفض أن يكون الشبان ثائرين أيضا ؟ . . كيف تدعوهم إلى اكتشاف قيم جديدة فى نفوسهم ، ثم تشجعهم على ذلك . . ثم تأبى عليهم أن يفعلوا ما فعلته أنت يا سيادة الرئيس من فرض هذه القيم على المجتمع . . أو على مصر ؟ .

أجاب:

آه . . هذا كلام يقال . ولكن لابد من الرد عليه . نحن عندما ثرنا كانت ثورتنا على الاحتلال البريطانى وعلى الملك الفاسد وعلى الحاشية الأكثر فسادا ، . وعلى الأحزاب الوطنية الهزيلة التى باعت كل شىء من أجل بقائها فى الحكم . . مهما كان الثمن . وكان الثمن دائما كرامة مصر وحرية مصر . وكل ذلك معروف . وفى مواجهة هذا الفساد الشامل كانت ثورتى أنا وزملائى قبل ثورة يوليو ، ثم كانت ثورتى مع زملائى فى يوليو . . وثورتى على رواسب هذه الثورة فى مايو . . بل إننى ما أزال على استعداد لأن أقوم بثورة أخرى ضد رواسب ثورة ١٩١٩ ، صحيح لقد بعدت المسافة بيننا وبين ثورة ١٩١٩ التى أراها أكثر أصالة من ثورتنا . . لأنها ثورة شعب من أوله لآخره . . أما ثورتنا فهى ثورة ضباط هم طليعة شعب . . ولكن رواسب ثورة ١٩١٩ لا تزال باقية فى مفهوم الحزبية القديمة . . وفى الوسائل الهزيلة الانتهازية للوصول إلى مقاعد الحكم والموقت عليها . .

ولكـن يجب أن نتسـاءل : على أى شىء يثـور شبـابنا الآن ؟ هل يثور على الحكم الوطنـى ؟ . . هل يثور على أن مصر يحكمـها أبناؤها محررين من النفوذ الأجنبى ؟ . . إننا أخرجنا الإنجليز ، وأنا أخرج الروس فلا نحن مع الغرب ولا مع الشرق . . ثم إننا نبنى مصر بأيدى المصريين ومن أجل المصريين . وهدفنا هو : الإنسان . . رفاهية الإنسان الطفل والشاب والشيخ . والإنسان هو هدف كل نظرية سياسية أو اجتماعية أو أخلاقية . أى أن النظرية الصحيحة هى التى تحقق الرفاهية للمواطن . . وكل ما عملناه فى الحرب والسلام هو أن يكون المواطن المصرى كريما على نفسه وعلى غيره . . فهل هذه المعانى التى حققناها هى التى نثور عليها ؟ وإذا كنا نثور ضد كرامة الإنسان ، فما هو الهدف الأعظم من ذلك ؟ .

إن شبابنا مع الأسف لا يقرأون كثيرا . وهم مع الأسف مرة أخرى قد ضللتهم بعض الأفكار الشريرة . وقد استدرجهم بعض السياسيين القدامى الفاسدين . وهنا تبدأ مهمتى فى إنقاذى مستقبل مصر من الماضى المفسد لمصر . . لايمكن أن يكون الحاكم متفرجاً سلبياً فى مباراة ينهزم فيها الخير أمام الشر ، ويتضاءل الشباب اليافع أمام الشيخوخة الخرفة . . هنا يجب أن أحمى مستقبل مصر المشرق من ماضيها المتعفن . . ولحسن الحظ ونحمد الله ، أن الذين أصابهم أو لحقهم هذا الضرر نفر قليل ، ولكن القليل إلى القليل كثير . ولذلك كان لابد من ضربة حاسمة حازمة . وانتهى كل شىء . .

ولكن الذى لم ينته بعد هو واجبنا حيال الشباب . فواجبنا أن نهديه ، كما اهتدينا ، وأن نهيئه للتلقى ، كما تهيأت لذلك ، وأن نضع أمامه أحسن الطعام ، وعلى جسمه أحسن الملابس ، وفى نفسه خير القيم ، وتحت قدميه الطريق المستقيم .

وفى الأسبوع الماضى حدثتك عن تجربة الصالحية ، ففى الصالحية شباب تراه فيسعدك ، وقد سعدت لذلك ، أرسلناهم شهورا إلى ولاية أريزونا الأمريكية يتعلمون فعادوا وحققوا ما انبهر له الأمريكان أنفسهم . فقد كانت أرقام إنجازات قياسية . إنهم أحفاد الفراعنة بناة الأهرام . ومثلهم كثيرون فى كل المجالات الأخرى .

إننا الآن فى مرحلة النضج . . فى مرحلة العطاء . . ولذلك يجب أن نعطى لمصر

كل طاقاتنا الإبداعية . . فواجبنا أن نعطى الفرصة . . أن نصنع المناخ . . وأن ننتظر ، ولن يطول انتظارنا . .

سيادة الرئيس:

إنك تقتــرب من نظرية تربوية جـديدة تقـول : إننا يجب ألا ننتظر ظهـور العبقرية . . إنما علينا أن نذهب إليه . . أن نستعجل نموها . . بل أن نقوم «بتخليق» الموهبة . تماما كما نقوم بتخليق الأجنة فى الأنابيب . . أو كما نزرع نباتات الشتاء فى الصيف ، ونباتات الصيف فى الشتاء . . فمادمنا قد خلقنا الجو المناسب الملائم ، استطعنا كل شىء . . ولن يعجزنا شىء . .

أجاب:

إننى أختلف قليلاً مع هذه النظرية . لسبب بسيط جدا ، هو أن أحدا لا يستطيع أن يخلق الموهبة . إنها تظهر . . إنها تولد فى الإنسان ، ولكن كل الذى نقدر عليه هو أن نوفر على الموهبة العناء . . وكثيرا من المتاعب التى لا ضرورة لها . . تماما كما نفعل فى التربة . . نشقها ونبذرها ونرويها ونرعاها ونوالى الرعى والرعاية حتى تنمو وتزهر وتزدهر وتضىء للناس . .

ولا أعتقد أن تخليق الطفل فى أنبوبة مثل خلقه فى بطن أمه . . ولا أعتقد أن نمو النباتات فى البيوت الزجاجية ، مثل نمو النبات فى الأرض الصالحة الطيبة المستعدة لذلك . . وأنا لا أستعجل ظهور الموهبة أو العبقرية . فأنا لا أعرف متى تظهر وما هى قواعد ظهورها . . الله وحده يعلم ذلك . . ولكن الذى نعرفه وعلى يقين منه ، هو أن نهيىء الأرض والجو والطريق إلى ذلك . . وسوف تلد مصر لا عبقرية واحدة بل ألوف العبقريات . .

وكما أن هناك نباتات بلا شوك ، فهناك نباتات يانعة ولها شوك أيضا . . وإذا كانت هناك عبقريات شريرة فهناك عبقريات خيِّرة . ولكن الخير أعظم وأبقى وأقدر واستمرار الحياة وثراؤها الهائل أكبر دليل على ذلك . . وليس الذى أقوله إلا مناقشة لبرنامج الكيفية التى يسود بها الخير والخيرات مصر أرضا وشعبا ومستقبلا . .

سيادة الرئيس:

أخيرا . . ألا ترى اختلاف الآراء أو حتى اضطرابها عند الشبان شيئاً طبيعياً ؟ . . فهم صغار وليست لهم تجارب كثيرة ، أو ليست لهم تجارب عميقة ،

ولذلك يرون القشور ذهبا ، ويرون السراب ماء ، ويعتقدون الرفض تأكيدا ، والاختلاف امتيازا . . تماما كالماء المتدفق تتقلب أمواجه ويعلو هديره . . ثم إنه لا خوف منهم ولا خوف عليهم . . وكل ما يحتاجون إليه هو كما تقول يا سيادة الرئيس : أن ندلهم على أنفسهم أولا ، على أعماقهم ، على منابع القوة فيهم ، ثم على برنامج العمل والأمل . العمل لهم والأمل فيهم . .

أجاب:

لا أختلف معك إلا فى شىء واحد ، هو أن الشبان الذين يختلفون أو يجاهرون بذلك ليسوا على الطريق الصحيحة . . ويكفى أن نستعيد ما تؤمن به الجماعات المتطرفة ، لنرى إن كان هذا هو الدين الذى نعرفه . . ليس الدين . إنما هو تشويه لأبسط مبادئه ، وبالتالى انحراف به إلى تطبيق خاطئ . . ونحمد الله أنهم قليلون . ولكن فردا واحدا ليس قليلا . إنه أعز مخلوقات الله . وخلية حية من جسد مصر . .

ولو عدنا إلى سنوات قليلة لوجدنا أن نكسة سنة ١٩٦٧ قد هزت وجدان مصر وأطلقت من أعماقها نزعات ضعيفة متشائمة رافضة . لم تكن هذه النزعات قادرة على التعبير عن نفسها فى ذلك الوقت . . ولكنها استغلت حرية مصر ومناخها الكريم ، فظهرت على السطح . . ومن الغريب أنها لم ترفض الوضع الذى اعتقلها . . إنما ترفض الوضع الذى حررها ؟! إنها نفس قصة «المارد والقمقم» فى ألف ليلة . . فالمارد كان فى الزجاجة حبيسا فى قاع البحر . وأتى به أحد الصيادين . . وفتح القمقم فخرج العفريت يمسك بخناق الصياد الذى أطلق سراحه . . والمعنى الذى لم يغب عنى لحظة واحدة : أننا من قراءة التاريخ نعرف أن مظاهر السلبية هى أكبر دليل على الانحلال والضعف . . وأن التمزق ضعف . . وأن الفرقة ضعف . . وأن الأخذ برأى واحد وكراهية كل رأى آخر ضعف . ولذلك كان التعصب نوعا من عمى الألوان والأوزان أيضا . وما أصاب مصر سنة ٦٧ كان نوعا من هذا الانحلال والتردى المؤقت . . ونحن نعرف أن من مظاهر انحدار الحضارة فى المجتمعات الإنسانية الكبرى : ظهور الشك والتردد والسلبية والتشاؤم . . أى فقدان القيم الثابتة والأهداف الواضحة والنظريات السليمة . . وهذا هو الذى أفزعنى على شبابنا وعلى مصر . لقد جاءوا يثورون على شىء اختفى . ونسوا العصر الذى يعيشون فيه والذى أنجز لهم النصر والسلام والانفتاح والمؤسسات والحرية وعظيم

الاحترام من أنفسهم ومن الشعوب . ولقد أغراهم الرفض والسلب الذى تردت فيه الأمة العربية التى عجزت بصراخها وبترولها عن أن تحرر شبرا واحدا من الأرض المحتلة ! . .

ولذلك فأنا أرى بوضوح تام وبالعين وبالبصيرة أيضا : أننا فى عصر الإيجاب والفعل والبناء والإيمان واليقين . . فالنصر حقيقة ، والسلام أيضا . . والبناء حقيقة ، والرخاء أيضاً . . وشباب مصر بخير ، ومستقبلها أيضا .

أما هذا الإطار السياسى لحركة المجتمع وحيوية الشباب فيه ، فهذا أهون ما يشغلنا جميعا . .

وإلى حديث آخر . .

سيادة الرئيس:

شكراً لك..

هذا هو المخاض!

سيادة الرئيس:

تعددت الأسماء التى نطلقها على الشهور أو السنوات التى نعيش فيها الآن . . ولا نعرف إن كانت قد انتهت حقبة لتبدأ أخرى . . ولسنا نعرف أيضا إن كان تعبيرا دقيقا أن نستخدم كلمات مثل : بدأ وانتهى وبدأ من جديد . عندما نتكلم عن أحداث عريضة عميقة تجتاح هذه المنطقة من العالم . . فهناك من يقول إنها البلقان مرة أخرى أى أن هناك دويلات كثيرة متقاربة . ولأنها كذلك فهى متباعدة أيضا . . وهناك من يقول : إننا مقبلون على فيتنام جديدة . . أو إن الحروب الصليبية لا تزال مستمرة ، وإن المد العالى هذه المرة هو الإسلام وليس المسيحية . . ولكثرة هذه التعبيرات الواسعة التى نطلقها ببساطة على أوضاع شديدة التعقيد حولنا . لم يعد أشد الناس قدرة على متابعة الأحداث ومحاولة فهمها . يعرف بالضبط ما هذا الذى يحدث فى العالم أو فى الشرق الأوسط . . أو الشرق العربى . . فهل نحن حقا عند نهاية شىء ومع بداية شىء جديد . . وأين البداية . سيادة الرئيس . . فى الشهور الأخيرة من العام الماضى والأولى من هذا العام ارتضيت فى تفسير لكل ما يحدث وسوف يحدث ، إنه نوع من «المخاض» - أى تلك الآلام المبرحة التى تسبق الولادة . فهل لا يزال هذا التعبير هو المفضل عندك ، أو أن هناك من المتغيرات ما يحتم الاستعانة بتعبيرات أخرى أكثر مواءمة ؟

أجاب:

إن هذه الصعوبة التى تبدو فى الموقف العالمى والموقف فى الشرق الأوسط . لا تبعث على اليأس فلا نحاول أن نفهمها . وإذا فهمناها أن نجد تعبيراً جامعاً لها . . ونحن فى جميع الأحوال نحاول أن نجعل الألفاظ «أوعية» للمعانى . . ولا توجد فى السياسة أو فى الأدب تعبيرات دقيقة . فقد انفردت بهذه الميزة العظيمة علوم

أخرى مثل الرياضيات . ومع ذلك فلنحاول . وقد وجدت نفسى كثيرا فى مثل هذا الموقف . وأرى أن البحث عن اللفظ المناسب هو جزء من ضبط المعانى . وجمع شتات المشاعر . . فلنعد إلى كلمة «المخاض» فى عالمنا العربى . صحيح أن الدول العربية اهتزت ولم تتحرك . أو عندما تحركت كانت حركتها فى دائرة مفرغة . أولها الهجوم على مصر وآخرها الهجوم على مصر .

وكان هذا الموقف فى حد ذاته دليلاً على العجز والشلل ، بينما العالم كله يتغير ومصر ماضية تحقق السلام بالمفاوضة والأساليب المتحضرة فى حل مشاكل الشعوب .

وحتى لا تتهم إحدى الدول العربية بأنها لم تفعل شيئا فإنها تتحرك بين بعضها البعض فالرؤساء والوزراء ينتقلون من عاصمة إلى عاصمة . والأبواب الكبيرة تنطبق والأفواه تنفتح والجيوب تمتلىء ، وترتفع نبرة الهجوم على مصر . ويكون الهجوم على مصر تكرارا مملاً . وكلما تقدمت مصر شبرا طالت ألسنتهم شبرين . . حتى تشابكت عواصم الرفض وأصبح لها لسان واحد .

وكانت مشكلة الدول العربية ولا تزال ، أنها لابد أن تتقارب لكى تكون أقوى فى مواجهة مصر . . أو لتكون بديلا عن مصر فى الحرب وفى فرض السلام بالقوة . أو فرض القوة بالسلام . ولذلك أعلنت سوريا والعراق أن الإتحاد قوة بين جناحى حزب البعث . البعث الرائد السورى ، والبعث القائد العراقى . . ومن أجل هذه الوحدة البديلة عن مصر كان على الدول العربية أن تنتظر حتى تتحقق الوحدة . . فتسكت على قوات الاحتلال السورية فى لبنان ، وتسكت على إبادة الفلسطينيين هناك أيضا . . أليست سوريا تريد وحدة مع العراق أفضل من وحدتها غير المأسوف عليها مع مصر ؟ . إذن فليبتلع كل إنسان لسانه حتى تتحقق الوحدة . فهل تحققت؟ أبداً . لم ولن تتحقق . لأن الذى بين العراق وسوريا من الخلافات والعقد والأحقاد لا يمكن الشفاء منه . وكل التفاصيل معروفة .

وأصبح للرافضين مؤتمر فى بغداد . . ومؤتمر آخر فى تونس ، ومؤتمرات سرية فى السعودية وغيرها من دويلات الخليج .

والهدف من هذا وغيره هو : التأكيد للعرب أنه إذا اختفت مصر فلن تخسر الأمة العربية شيئا . . وإذا قررت مصر أن تتوارى فلابد من عقابها «بتجويع» شعبها – مع أن هذه الكلمة فيها الكثير من الغرور ، فليس صحيحا أن مصر كانت تعيش على العرب ، وليس صحيحا أنها بغير العرب سوف تموت . ولكن الغرور والحقد على مصر قد أعماهم وأخرج ما فى أعماقهم من أحلام مجنونة .

وبسرعة شديدة جدا انتكست آمال الدول العربية ، فلا حدث اتفاق ، أو وفاق ولا تمت وحدة . إنما بدأت دول الرفض ترفض بعضها البعض . . وتفضح كل واحدة الأخرى . وسمعنا التهديدات المضحكة حتى من الكويت . وقرأنا وعرفنا العجب بين الجزائر والمغرب . وبين ليبيا وتونس ، وبين ليبيا والسعودية . . أما بقية دول الخليج فهى تمشى تختنق فى التراب الذى يثيره الثوب السعودى فى كل اتجاه ، وليس واضحاً للسعودية أى اتجاه .

هل نشمت فى الأمة العربية ؟ لا والله . فهم إخوة وأشقاء . ونحن عرب مسلمون . ويعز علينا ما أصاب الأمة العربية على أيديهم . ولكن شاعرنا العربى القديم قال ولا يزال قوله صحيحا : وقديما كان فى الناس الحسد . . وحديث ما يزال فى الناس . . وفى الشعوب أيضا ! أما ما هذا الذى يشفى النفوس من دائها ، فإننى لا أرى دواء ناجعا ولذلك فسوف يبقى ذلك الداء طويلا ، إلا إذا حدث شىء جليل ولا أرى ذلك بعيدا . .

ولكن الشىء الذى يبعث على العجب . ولا ينتهى عجبى ، هو أن العرب قد تجمدت ألسنتهم على تعبير قديم . . هو «التضامن العربى» . لقد مللت مناقشة هذا التعبير الأجوف . ولكن العرب لم يملوا . فلم يحدث قط أن اتفق العرب . لم يحدث قط أن تضامنوا . فقط مرة واحدة ، والفضل لله وللملك الفيصل ومادار بيننا من تنسيق استعدادا لحرب أكتوبر التى نصرت الأمة العربية على نفسها قبل أن تنصرها على إسرائيل . . وأنا أريد من عربى منصف واحد أن يدلنى أين هذا التضامن أو التوافق أو الاتفاق العربى على أية خطة ، على أى برنامج ؟ .

إن العرب لم يتفقوا إلا على شىء واحد : هو شتيمة مصر وشعب مصر . وياليت هذا الاتفاق قد أفاد أحدا أو جعل إسرائيل تنسحب من شبر واحد من الجولان أو من الضفة الغربية أو من القدس . . ولذلك فمن حق المؤرخين الأجانب أن يلعبوا بالألفاظ بسبب حيرتهم أمام هؤلاء العرب ، وفى حيرتهم هذه منتهى السخرية بنا . لأن معنى ذلك أن الذى يرونه ليس له نظير فى التاريخ . . مع أن التاريخ يعيد نفسه ولكن بصورة وإطارات مختلفة . لماذا ؟ لأن الطبيعة البشرية واحدة ، والشعوب فى كفاحها من أجل حريتها تسلك سبلا متشابهة . . إلا فى دنيا العرب !

ولا أمل فى أن يفعلوا شيئا ، إنما لا بد أن تكرههم الأحداث على شىء آخر -

وهذا هو الميلاد الذى سوف يجىء سنة ١٩٨٠ بعد المخاض الصعب فى أواخر العام الماضى وكل هذا العام . . ولكى نرى أوضح يجب أن نتجرد من كثير من المجاملات السياسية فلنكن فى غاية الصراحة مع أنفسنا . هل هذه الدول العربية فى الخليج «دول» حقا ؟ إن وجودها فى الأمم المتحدة لا يدل على أنها دول . إنما يدل على أنها أصبحت دولا فى ظروف مريبة غريبة . إن هذه الدول «كيانات» هلامية . . لا هى قادرة على أن تقف على قدميها ، ولا هى قادرة على أن تدافع عن نفسها . . وهى غير قادرة على أن تقف لأنها بلا جذور . . بلا أعماق ، وليس هذا تجريحا لأحد . إنما هى الحقيقة ، ونحن العرب لا نعرف الحقيقة ، لأننا مجاملون فى كل شىء على حساب الحقيقة . ولذلك فإذا كان ميلاد جديد فلابد أن يشمل هذه الكيانات الصغيرة .

سيادة الرئيس:

إذن فمن أين تهب عواصف التغيير والتبديل على هذه الكيانات الصغيرة أولا وعلى المنطقة كلها ثانيا ؟ . . إن رفض الدول العربية لمصر لم يكن إلا رفضا ذاتيا . . فهم لم يرفضوا مصر ، إنما هم حرموا أنفسهم من أن يكونوا «مع» مصر ، ولسنا – نحن المصريين – فى حاجة مستمرة لأن نقول : مصر فعلت كذا ، ولولا مصر ما حدث كذا . . وإن كان هذا هو الحق الذى نجد أنفسنا مضطرين إلى تكراره ، ليس غرورا ولا تعاليا . ولكنها الحقيقة التى ليست فى حاجة إلى أن نضعها فوق رءوسنا ورءوس الآخرين . فهل نكف عن التباهى بذلك ، وهل نعلم أجيالنا أن تتواضع فى الحق أمام الادعاء الكاذب والإهانات المتكررة ؟ إننا نخشى الغرور . . ونعوذ بالله من المن على الدول الشقيقة . . وهذه هى الحيرة التى نتعذب بها . . !

أجاب:

ولكن من الظلم أيضا ألا نعطى لمصر حقها . فنحن لا نتحدث عن مصر الحديثة ، إنما عن مصر فى كل العصور . فإذا قلنا : إن مصر أم الحضارات ، فنحن لا نعرض بأحد من الذين لا تاريخ لهم . . وإذا قلنا : إن الحضارة تحتاج إلى الحضانة . والحضانة هى استقرار فى المكان واستمرار فى الزمان ، فليس هذا إسقاطا على «الكيانات» المفتعلة التى ابتدعها الاستعمار البريطانى والفرنسى فى القرون الماضية . إنما هى الحقيقة . ونحن نعلم أجيالنا أن يعرفوا الحقيقة فى أدب . وأن تترسخ فى أذهانهم وقائع التاريخ فى تواضع . وبذلك لا نخلط بين التواضع والوضاعة – فالوضاعة ليست صفة أبناء الحضارة . ونحن أبناء أقدم الحضارات .

ولذلك كان الانسجام والهدوء والأصالة والصبر والتسامح من مقومات الشخصية المصرية . .

ونحن بكل هذه الصفات والمواصفات نمضى نحقق الخير لأجيالنا . ولا خير فى شعب أهين ولم يثأر ، وانهزم ولم ينتقم ، وانكسر ولم ينتصر بعد ذلك . وجربنا الحروب ، واليوم نمضى فى السلام . . فماذا فعل غيرنا ممن يملكون بعدد رمالنا ذهبا ، وبوزن أهراماتنا دولارات ؟ . . إنها ليست الدولارات التى تبنى الشعوب . . فالدولارات تبنى أشياء أخرى كثيرة لأبناء هذه الكيانات ، أمسك عن ذكرها تعففا وإيمانا بأن ما لدينا أبقى وأعظم . .

إن ما يحدث فى مصر هو بداية التغيير للأمة العربية كلها . فمصر فيها الشرعية واحترام المواطن لنفسه وبلده ، وأمنه على يومه وغده ، واحترام العالم كله له ، وانفتاح الدنيا عليه ، وما سوف يتدفق بين يديه وتحت قدميه من خيرات الأرض والماء والطاقة ، وعودة أرضه العربية له يوما بعد يوم . . وليس هذا كسبا لمصر وحدها . إنما هو كسب للشعوب العربية ، وليس للحكومات العربية . . فالحكومات العربية قد أحرجها الدستور الدائم فى مصر ، وأحرجتها الديموقراطية وتعدد الأحزاب . . وأحرجها الاستقرار والانسجام بين الشعب وقيادته . . وبين أحلام مصر وواقعها . وإذا كان ذلك كسبا بعيدا مؤكدا للشعوب العربية ، فإنه خسارة فادحة للحكومات والنظم الاستبدادية والقبلية فى العالم العربى . . لأن هذا الذى يحدث فى مصر يفضح النظم الطاغية التى تدعى العدل والحرية ، وتملأ أفواه الإرهابيين بالذهب . . إن هذه النظم الشمولية هى التى أجرمت فى حق الشعب الفلسطينى . . فهى التى لم تحترمه كشعب . إنما جعلته مجموعة من الإرهابيين والمخربين . . أعطتهم الذهب وشجعتهم على أن يختلفوا . فكأنها لم تكتف بضياع الفلسطينيين بل جعلت للضياع أشكالا ، وجعلت لهذه الأشكال ثمنا .

ومعنى ذلك أنها اشترت من الفلسطينيين حقهم فى تحرير أرضهم ، وأطلقتهم فى العواصم يخيفون الآمنين . . تماما كعصابات إجرامية بلا قضية . مع أن قضيتهم هى القضية . والكفاح من أجلهم هو الشرف الذى يدعيه الملوك والأمراء والشيوخ!

وهؤلاء الرؤساء هم الذين أطالوا عمر «الإرهاب الفلسطينى» وبذلك ضاعفوا غضب العالم عليهم . وأوجدوا لإسرائيل ألف عذر فى إبادتهم للشعب الفلسطينى . . وفى الشهور الأخيرة عندما لجأ الفلسطينيون إلى العقل وإلى النبرة

الصحيحة فى الحوار فى أوروبا وأمريكا ، كسبوا عطفا عظيما . وتساءل الناس فى أمريكا : ولماذا لا يكون لهم وطن ، كما أصبحت لليهود دولة ؟!

ولكن هذا العطف العالمى قد أغضب الذين يريدون للقضية الفلسطينية ألا تجد الحل . ولذلك فليس غريبا أن يطردهم القذافى من ليبيا . . لأنه طلب منهم أن يعودوا إلى الإرهاب كأن ينسفوا ناقلات البترول عند خليج هرمز أو فى قناة السويس . . مع أن المفروض بعد مؤتمرات القمم الرافضة الواحد بعد الآخر ، أن يكون للمنظمات الفلسطينية عظيم الاحترام من الجميع . . ولكم انكشف المستور بينهم . وعاد القذافى إلى «تعبير» الفلسطينيين بأنه أعطاها ، وأنه لن يعطيهم . وكلها تنصلات إن لم تبعث على الخجل . فإنها تعمق الشعور باليأس .

وإذا استأسد الفلسطينيون غربا فلماذا لا يفعلون ذلك شرقا فى سوريا والأردن ولبنان ؟ . .

فهل اكتفى بأن أشاطرهم الأحزان ؟ . لقد تجاوزنا كثيرا مرحلة الأحزان . وكبرنا على البكاء ، وتجاوزنا الأمل . وفعلنا ما هو أكبر ، فهل فعلوا شيئا ؟!

ومن المؤسف حقا أن الكثير من الاقتراحات التى عرضتها على الفلسطينيين قد عادوا إليها . . وأحمد الله أنهم نسوا أنها أفكار مصرية . . وأتمنى ، لو أستطيع ، أن أمحو كل ما اقترحته عليهم من حلول من ذاكرة الناس ، لكى يتبنوها على أنها أفكارهم هم . . ولكن يؤسفنى أننى لم أوت هذه القدرة الخارقة على إغراق الناس فى النسيان . .

ولو عثرت على فكرة مفيدة فى أية أرض ومن أى قلم ، فإننى سوف أسارع باعتناقها فالأفكار العظيمة لها أذرع وسيقان - هكذا علمنا التاريخ ، الذى لم يتعلموا منه .

سيادة الرئيس:

أنت حملت بعنف على ثورة الخمينى فى إيران ، وذهبت إلى «تكفير» آية الله روح الله الخمينى . وكنت يا سيادة الرئيس أول من أعلن أن ثورة الخمينى هى الثورة الثالثة فى التاريخ بعد الثورة الفرنسية والثورة الروسية . . فكيف اختلفت عندك معانى هذه الثورة ، مع أنه لا توجد ثورة بلا عنف ؟ . . فالثورة هى الغضب النبيل ، ويندر أن يغضب الإنسان دون أن يصرخ أو يهدد . . فهل يرجع ذلك إلى مزاج

مصرى هادىء أو مزاجك الخاص ؟ . الذى ليس دمويا . فأنت شاركت فى ثورة وقمت بثورة . . وفى الحالتين كان الغضب قويا . . ثم كيف تفسر فرحة كثير من المسلمين بثورة الخمينى ؟ . .

أجاب:

إن ثورة الخمينى قد بهرت العالم كله أول الأمر . فالرجل فى الثمانين وعاش مطرودا من بلاده ١٦ عاماً . واستطاع – من بعيد – أن يحرك الملايين من مواطنيه ويملأ قلوبهم بالسخط عاما بعد عام . حتى لم يعد الشاه قادرا على البقاء . .

والثورة كالعواصف هى أنظف ما عرفت الطبيعة . . ولا أحد يلوم الثورة . إنما اللوم كله على الثوار . .

ومن المؤكد أن أمريكا طلبت إلى الشاه أن يخرج . وهو فى مذكراته «رد على التاريخ» يروى ذلك . ولكن الشهود على الشاه وعلى الخمينى أيضا يؤكدون أن الثورة كانت نتيجة حتمية . فهنرى كيسنجر عندما زار الشاه مع نيكسون قادمين من روسيا ، قد اهتدى بذكائه الخارق إلى أنه أمام رجل قد انتهى . ولذلك فقد شخص كيسنجر مرض إيران بأن الشاه أراد أن يقفز إلى القرن العشرين . تماماً كما أعادها الخمينى إلى القرن العاشر . . كلاهما لم يعجبه واقع إيران . فهذا قفز بها وذلك انتكس بها فاستحق الاثنان أن ينطبق عليهما الحديث النبوى الشريف : « إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى » – أى أن الذى يريد حصانا وينطلق به حتى يرهقه . يموت الحصان تحته وبذلك لا يصل إلى هدفه . . فلا هو أبقى على حصانه . ولا هو بلغ ما يريد . .

وكيسنجر هو الذى اهتدى أيضا إلى أن الوضع فى إيران فى حالة قلق . . ثم هو راح يفرق بين نوعين من القلق . . القلق فى إيران والقلق فى اليابان . . فالشاه يقوم بتطوير عنيف لبلاده . وليس لديها استعداد لذلك . . فهو أسرع من الشعب . وهذا يؤدى إلى أن يكون متقدما على شعبه المتخلف . فتتسع الهوة بين الاثنين . وهذا من شأنه أن يقلق الناس ، وأن يجعلهم يتلفتون إلى «صيغ» سياسية أخرى تنقذهم من الضياع الذى أسقطهم فيه الشاه باسم التطوير العنيف . . أما القلق فى اليابان فهو قلق نفسى . . قلق القادرين على التطوير والمطورين . ولكن مشكلتهم أنهم يستعجلون كل شىء . . وعلى الرغم من أن اليابان تطورت بسرعة هائلة . فإن هذه

السرعة أقل من أحلام الناس ، ولذلك فقلق الناس سببه أنهم عاجزون عن تحقيق أحلامهم !

سواء خرج الشاه أو أخرج الشاه ، سواء هو الذى خرج أو هم الذين أخرجوه – أى الأمريكان أو آيات الله ، فإنه من السابق لأوانه أن نعرف الحقيقة وراء كل ذلك . ولكن من المؤكد لدينا جميعا أن إيران قد «لفظت» إمبراطورها لأسباب قومية .

وذهب الشاه . .

وإلى هنا ، وأنا كرجل مارست السياسة وأنا لا أزال شابا صغيرا ، أعرف حق الشعب وواجب زعمائه ، وفى نفس الوقت أعرف أين يقف الشعب ، أو أين يجب أن يقف ، ومن الذى يضع له الحدود والسدود ويحمى ماورثه من ثروات هائلة . .

أما الخلاف بين الشاه وآيه الله الخمينى فبسيط جدا وتقليدى تماما : الشاه يرى أن القوة حق ، والخمينى يرى أن الحق قوة .

ولكن عندما استعار الخمينى ملابس الشاه ، وارتضى ما رفضه بالأمس . وزاد عليه أنه جعل نفسه إنسانا معصوما من الخطأ ، فهنا لا أملك إلا أن أختلف معه وأشفق على إيران من غروره وغطرسته . . فإيران بعد الشاه لاتزال غنية . . إن عائدات بترولها تعادل عشرة ملايين دولار كل ساعة . . ولكن إذا استمرت المظاهرات فى الشوارع لمدة سنتين ، وتوقف الناس عن العمل ، والطلبة عن الجامعات ، وتوقفت الحياة تماما عن الإنتاج ، فهذا هو الخراب . وخراب إيران ليس عملا عاقلا ، إنما هو جنون . ولا يمكن أن يكون الجنون مما يدعو إليه الإسلام الذى أصبح الخمينى إماما له ومراجعا وفقيها . وهذه الكلمات ليست مترادفات لغوية . ولكنها درجات رفيعة عند المذهب الشيعى ، فالمرجع هو المهدى المنتظر ويليه الفقيه الإمام آية الله روح الله الخمينى ويليه الإمام آية الله العظمى كاظم شريعت مدارى . . وهكذا .

والبترول ليس إيرانى الجنسية . ولكنه وقود الحضارة الغربية . والبترول هو المقابل لألوف ملايين الدولارات التى تعيش عليها إيران . والتى بمقتضاها من أمريكا وأوروبا واليابان .

إننى كمسلم تمنيت للثورة الإيرانية أن تنجح . فليس أعظم من الإسلام دينا ،

وليس أروع من تعاليمه ولا أكمل . فإذا جاء رجل يصلح الفساد وينشر الحب ويبشر بالعدل ، فمن الذى لا يقف تحية له ويشاركه فى الدعاء بحسن الختام .

ولكن الثورة الإيرانية خرجت . . انحرفت . . أفلتت . . هل تركها الخمينى ؟ . أو هل هى التى تركته ؟ . لقد تقدم للخمينى كثيرون بالتجربة فرفضها ، وبالنصيحة فاستنكرها . ولا أحد يعرف بالضبط إن كان صمت الخمينى على الدماء التى سالت قد أغرى الجماهير بأن تتمادى . أو أن هذا الصمت كان تشجيعاً على تصفية حسابات قديمة . . أو أن الجماهير لا ترتضى إلا رجلا واحدا ، فاستدارت تغتال الذين حوله حتى لا يكون إلا أمام واحد أحد . .

وكما أن الثورة نتيجة لعوامل كثيرة ، فإنها أيضا مقدمة لتفاعلات أكثر . . فالثورة على الشاه أدت إلى الثورة على الإمام الذى ظهر للناس كما لو كان الشاه الجديد . . ولذلك تجددت الثورة عليه . .

وإذا كان الخمينى قد دعا فى الكاسيتات التى بعث بها من منفاه ، أن يكون للشعب الحق فى أن يحكم نفسه ، وليس حكم العائلة الواحدة أو القبيلة الواحدة ، فلذلك طالبت الأقليات بهذا الحق . . فتحكم نفسها بنفسها . . وفى إيران أقليات كثيرة . . الأكراد السنيون والعرب والبالوش والتركمان وأذربيجان . . وهم جميعا أكثر من ثلثى الشعب الإيرانى . .

فبدلا من أن يتحد الشعب الإيرانى وراء الإمام ، فإنهم وقفوا وراءه يطالبون بأئمة آخرين . . أى لقد تعددت الأئمة فى إيران . . وكان على الإمام الخمينى أن يؤكد أنه الإمام الأوحد . ولا إمام غيره . . ولذلك طاشت الرصاصات تغتال الأئمة الآخرين . . وبدأت الثورة تأكل بنيها . والمظاهرات فى الشوارع ، والعمال لا ينتجون . لقد انفرط العقد كما يقولون . . وتمزق الخيط الذى كان يمسك الناس صفا فى عدائهم للشاه ، بل إنهم وزعوا العداوة والبغضاء عليه وعلى الشاه . .

ومعنى ذلك أن ماكسبه الخمينى بسرعة قد أضاعه أسرع . فكأن الخمينى قد أفسد الثورة على الشعب الإيرانى . . بل إن الخمينى يفسح مجالا لأعمال أكثر عنفا ضده . . أو لحرب أهلية ، أو حروب بين قوميات متعددة . . وإذا تمزقت الدولة فإنها تصبح فى حاجة جديدة إلى من يوحدها بالقوة ، إن استطاع . . ومن النادر أن يظل هذا التمزق الداخلى طويلا دون تدخل أجنبى من السوفيب مثلا – فالحدود المشتركة يبلغ طولها أكثر من ألفى ميل .

فما الذى حققه الخميني لشعبه أكثر من طرد الشاه ؟

سيادة الرئيس:

هناك اجتهادات تتحدث عن «ما بعد الخمينى» أى بافتراض أن الثورة اشتعلت وحرقت إيران وما حولها . وأن دور الخمينى نفسه قد انتهى . . فالثورة زلزال عنيف ، وقد تصدعت له الصروح فى أماكن لم يخطر على بال أحد . . إنها هكذا آيلة للسقوط . . ألا ترى سيادة الرئيس أن ثورة إيران تسجل ميزة جديدة ، هى أنها أقصر ثورة كبرى فى التاريخ ، أنها أطول عمرا من صانعيها من آيات الله روح الله الخمينى وغيره ، وأن الخمينى لهذه الأسباب يستحق الاحترام ، وإذا كانت هناك أخطاء فإننا لا نعرف بالضبط حتى الآن دوافعها ، فليست لدينا معلومات مؤكدة ، إنما نحن نقرأ لأطراف النزاع ، وكل طرف يتهم الآخر ، والشعب الإيرانى هو الضحية ، أو الحقيقة هى المجنى عليها فى النهاية ؟

أجاب:

لو أن الخمينى قد وصل إلى إيران وتوفى بعد ذلك مباشرة ، لكان صاحب الفضل الأول فى هذه الثورة . ولأصبح بعد ذلك أسطورة ، أو لعبده الشعب الإيرانى ، وخرجوا بذلك عن الإسلام الحنيف ، لقد أراد الله بالإسلام خيرا أن عاش الخمينى لتظهر فيه كل عيوب البشر ، وليكون سببا قويا لأن يبحث الشعب الإيرانى عن بديل له . . إن كنت أرى من الناحية التاريخية أنه اختفى ، وأن الذى ظهر هو الشعب الذى يلعب بالسلطة ويلعب بالأمن ومستقبل إيران . .

ولكن أثر هذه الثورة قد تجاوز الحدود الإيرانية ، لأن الشيعة موجودون فى كل دول الخليج وفى العراق وفى سوريا وفى لبنان . . وقد استجاب الخمينى إلى عواطف الشيعة فى الخليج فطالب أول كل شىء بالبحرين ، وأغلبها من الشيعة ومن الإيرانيين أيضا . وكانت تحت الحكم الإيرانى طيلة القرن الثامن عشر ونصف التاسع عشر . . وتحرك الشعية فى كل دويلات الخليج . وفى الكويت التى رفضت الخمينى يوم أخرجه الشاه ، بينما سمحت للإيرانيين أن يفرشوا المطار بالسجاجيد العجمية يوم زارها شاه إيران . ويقال أن قيمة السجاجيد العجمية بلغت ثلاثة ملايين دولار !

وفى العراق حكومة سنية تحكم أغلبية من الشيعة .

وفى سوريا حكومة شيعية تحكم أغلبية من السنيين . . وفى لبنان مليون شيعى . وكل هؤلاء الشيعة قد تطلعوا إلى الإمام الخمينى يطلبون الخلاص – أى يطلبونه للخلاص أو للانضمام إلى إيران . وقد عاشت دويلات الخليج على الخوف الدائم من أن إيران هى سيدة الخليج ، سواء كانت إيران إمبراطورية فارسية أو جمهورية إسلامية .

وهذا الذى حدث فى الخليج نتيجة مباشرة لثورة إيران : ثورة إسلامية على الفساد الذى كان الشاه قمته ، وليس هو الشاه الوحيد فى الخليج . وإيقاظ للشيعة فى كل البلاد العربية .

وقد تفاوتت ردود الفعل ، فالعراق كانت قد سوت مشاكلها مع الشاه ، ولكن العراق تخشى من الشيعة ومن تحريك الأقليات الكردية فى الشمال . . ولذلك تثير العرب فى إيران ، وهم يعملون فى حقول البترول .

ومنعت دول الخليج مظاهرات التأييد للخمينى ، وطردت عددا كبيرا من العائلات الإيرانية . وطردت الكويت أقارب الإمام ، وانقلبت دويلات الخليج على الشيعة ، تقيد حركتهم وتحمى أمنها من مؤامراتهم ، وإن كانت التجارة فى الخليج فى أيدى أصحاب الملايين الإيرانيين .

وهذه الآثار البعيدة المدى لثورة إيران تدخل فى حسابنا . . أى أنها ميزة نذكرها لهذه الثورة . وإن كان فى استطاعة الخمينى بالعنف والعناد وادعائه العصمة ، أن يفسد كل شىء ، ولكنه لن يستطيع أن يعيد الصروح التى تصدعت إلى ما كانت عليه قبل الثورة .

ولذلك فالذين يقولون إنه سواء عاش الخمينى أو مات ، يرون أن الثورة قد حققت أهدافها البعيدة ، فقد سجلت المراصد السياسية زلزالا عنيفا مركزه «قم» المقدسة . . وإذا كانت بعض المراصد لم تسجل هذا الزلزال فلأنها تحطمت من شدة الصدمة . . فكان سقوطها تسجيلا مؤكدا لعنف الهزة السياسية والاجتماعية والدينية أيضا .

سيادة الرئيس:

إن لوما كثيرا ينهال على أدمغة الشعب الإيرانى بسبب احتجازه لخمسين من الرهائن الأمريكان ، مع أن هذا العمل ليس إلا استمراراً للموقف العدائى من

أمريكا التى ساندت الشاه وأتت به إلى الحكم أكثر من مرة . . فلم يكن فى وسع الشعب الإيرانى أن يضرب أمريكا مباشرة . فليس أمامه إلا أن يوقف تصدير البترول إليها ، وهو فى ذلك يقتسم مع أمريكا العقاب - أى أنه يتمشى فى ذلك مع تعاليم الشيعة الذين يضربون أنفسهم حزنا على مقتل على والحسن والحسين الذين قتلوهم من قبل . . أليس هذا العمل استمراراً فى رد الفعل العنيف المألوف فى كل الثورات ؟ . . أليس هذا العمل تنفيسا لضيق عام من أمريكا ؟ . . ثم ألا ينطوى هذا العمل على فهم سليم لعجز أمريكا عن عمل شىء لإيران حتى لو قتلت هؤلاء الخمسين . . وقد اغتال الإيرانيون عددا من الضباط والمبعوثين الأمريكان فى عهد الشاه السابق ؟ .

أجاب:

كان فى استطاعة الطلبة أن يقتلوا الرهائن . ولا يزالون قادرين على ذلك وأكثر . ولكن ما هى النتيجة ؟ من الذى سوف يدفع الثمن ؟ . . وما الذى نراه فى العالم كله الآن ؟ . . إنه لا توجد دولة واحدة تقبل أن يكون مبعوثوها رهائن لأى سبب . ولذلك خسرت إيران تأييد العالم لهذا القرار . ورأى العالم كله أنه اعتداء على الحصانة المعترف بها دوليا للسفراء ، وكل مبعوث هو سفير لبلده . أى عين ترى وأذن تسمع من أجل بلاده .

وقد أدانت ذلك الأمم المتحدة ومجلس الأمن ومحكمة العدل الدولية ووقف الشعب الأمريكى كله وراء كارتر . . وربما استحق الخمينى - عن غيرة قصد - شكر الرئيس كارتر ، لأنه أسعفه بقضية جعلت الشعب الأمريكى يؤيده ويفوضه أن يفعل ما يشاء !

وهذا ما يؤكد الرأى القائل بأن الخمينى رجل دين ، وليس رجل سياسة ، وإن كنت أشك تماما فى أن هذا الذى يأمر به أو يسكت عنه ، له علاقة بالدين الإسلامى الذى يقوم على الرحمة والحب . . فهؤلاء الرهائن أبرياء لا ذنب لهم .

ومن الغريب أن عددا من الأمريكان من الأدباء ومن المشتغلين بالسينما ، قد تخيلوا أن يقعوا رهائن ، فأذكر أن الأديبة الأمريكية مارى ماكارثى صدرت لها رواية بعنوان «وحوش ومهمة سرية» فى هذه الرواية أن عددا من الأمريكان ذهبوا ليحققوا فى الأعمال الوحشية التى يقوم بها الشاه فى إيران سنة ١٩٧٥ ، فسافروا فى طائرة مع عدد من تجار اللوحات الفنية . . واختطفت طائرتهم وأصبحوا رهائن .

وظهر فيلم أيضا عن جماعة من الأمريكان ذهبوا ليساعدوا قبيلة تعيش فى جبال إيران فى أن يكون لها حكم ذاتى ، وسقطوا فى أيدى البوليس السرى الإيرانى ، واعتقلهم البوليس ، وطالب البوليس لكى يفرج عنهم ، بأن يذهب إليهم الممثل مارلون براندو والممثلة اليزابيث تايلور . . تماما كما يطالبون اليوم بتسليم الشاه حيا أو ميتا . وهو رجل مريض لا يجد مكانا يموت فيه . . سبحان الله لقد انطبقت عليه الآية الكريمة ﴿ ما أغنى عنه ماله وماكسب ﴾ . ومن العجيب جدا أن أحد آيات الله يطلب من زوجة الشاه أن تغتال زوجها . فإذا فعلت فإنهم سيفرجون عن الرهائن . وواحدا آخر من آيات الله قد اهتدى إلى حل أكثر إنسانية ، فناشد ولى عهد إيران أن يغتال والديه . . فإذا فعل استحقت الأسرة المالكة كلها العفو الشامل . . فهل هذا من الإسلام : أن يطلبوا إلى زوجة أن تقتل زوجها المريض . وإلى ابن أن يقتل والديه ؟! .

سيادة الرئيس:

ألا ترى أنه من السابق لأوانه أن ترى تغييرات جذرية فى المنطقة العربية بسبب ما حدث فى إيران ؟ . . فنحن لم نقرأ ولم نسمع إلا عن مظاهرات أجهضت وعن عائلات طردت . . وكل ما هناك نوع من الترقب والخوف . . وكانت إيران قد أعطت النموذج الناجح أو القدوة الثورية ، لطارت عروش وتفرقت قبائل ، ولنصبت مشانق فى المنطقة العربية حيث يوجد الشيعة . . هل لا تزال هذه الأحداث المرتقبة فى دور المخاض ولم يحن بعد موعد مولدها ؟

أجاب:

أختار مثلا واحدا سوف تتلوه حوادث أكثر حدة ، ما وقع فى السعودية ، فقد فوجىء العالم كله بهجوم فى شهر المحرم وفى موسم الحج على المسجد الحرام وعلى الأسرة المالكة فى وقت واحد . . أى أن أشياء كثيرة محرمة قد انتهكت فى لحظة واحدة ، فاهتز ٨٠٠ مليون مسلم ، واندهش ألوف الملايين من سكان العالم . فما الذى أدهش العالم كله ؟

لم يكن أحد يتوقع أن شيئا من ذلك من الممكن أن يحدث فى السعودية ، فالسعودية فى عيون الناس : أمان واستقرار ورخاء وعدل وسلام ، ولا أحد يدرى ما هو الفرق بين أهل نجد وبين أهل الحجاز ولا بين ألوف الأمراء ولا المواطنين العاديين فى الجنوب والشرق . وقد كانت السعودية قد اتخذت لنفسها سياسة تقليدية : ألا

تكون طرفا فى أى خلاف . إنما تجيء فى النهاية تاجا على كل رأس ، محتمية بما لديها من مال وما فيها من مقدسات .

ولكن السعودية بعد الملك فيصل قد استدرجت إلى أن تكون طرفا . وإلى أن تقود الأمة العربية ، أو تحاول ذلك . . وكان عليها أن تدفع غالياً لشراء هذا المنصب الذى تورطت فيه .

وفى مؤتمر بغداد بلغ السعوديون أقصى درجات الخوف والفزع عندما هددهم حافظ الأسد بأنه من الممكن القضاء عليهم فى غرفهم . . ولذلك يجب أن يشتروا حياتهم . ودفعوا .

ووقعت السعودية فى أخطاء الشاه . . فكانت الهوة الهائلة بين الحكام وبين الشعب . ولم يشفع للأسرة الحاكمة أنها هى التى أسست الدولة . أو أنها تقيم القصور والعمائر والطرق . .

وفجأة احتل سعوديون مائة فى المائة المسجد الحرام وأقاموا فيه . . وكانوا قد استعدوا لذلك من شهور فوضعوا فيه الأسلحة والذخائر والطعام .

وتحركوا فى المدينة المنورة وفى الرياض . وكانوا يقصدون أن يأخذوا الملك والأمراء رهائن . ولكن لأسباب صحية تخلف الملك . أما ولى العهد فقد كان فى تونس . . ومن الواضح أن هؤلاء الثوار قد آمنوا بما فعلوا تماما . وأقسموا على الكتمان ، فلم يحدث أن واحدا منهم قد أبلغ عن الآخرين رغم ماتعرضوا له بعد ذلك من أساليب للضغط عليهم . .

وقيل إن واحدا منهم قد أعلن نفسه المهدى المنتظر . أى أنهم من الشيعة ، ولكن من المؤكد أنهم كانوا من السنيين ، وبعضهم من قبائل الحجاز .

وقد أطلقت النيران وتحطمت جدران وأريقت دماء . . واهتزت الأسرة المالكة السعودية لأول مرة منذ خمسين عاما ، وهذا ما لم يخطر على بال أحد قط . بل كان من المتوقع أن يحدث شيء من ذلك فى الخمسين عاما القادمة .

ولا تزال هناك مشكلات حية فى شرقى السعودية حيث يوجد السعوديون الشيعة ، فأكثر عمال أرامكو من الشيعة ، وقد مارس هؤلاء الشيعة أشكالا من الإضراب والاحتجاجات والسخط خلال عشرين عاما . كما أنهم فى السنوات الماضية كانوا يوزعون المنشورات فى المساجد ويضعونها فى السيارات .

سيادة الرئيس:

إننا أمام وضع يمكن أن يوصف بأن الراية إسلامية ولكن الهدف سياسى ولذلك يفضل المعلقون السياسيون أن يتحدثوا عن «هلال الأزمة» أو «حزام الأزمة» الممتد من المغرب إلى أندونيسيا مارا بكل البلاد الإسلامية فى إيران وأفغانستان وباكستان والولايات السوفيتية على حدود إيران . . وكل ما نتوقعه هو «نهضة إسلامية» . والغرب فى فزع لذلك . وهذا يفسر الدهشة التى لا تنتهى فى مواجهة هذه الأحداث . ، وظهور عدد كثير من الكتب يفسر هذا الإسلام «الجديد» الذى ظنه الناس نائما . . ولكنه يملك اليقظة ويملك فى نفس الوقت احتياطى الطاقة والذهب فى العالم كله . . فإن الإسلام يملك القدرة على البقاء . والقدرة على إقلاق الغرب المسيحى .

فإذا نحن عدنا إلى نظرية المخاض سنة ١٩٧٩ ، الذى يسبق الولادة فى سنة ١٩٨٠ ، فإننا لا نجد أن العام القادم هو بالضرورة عام الولادة . . فقد تنقلب الدول الإسلامية من التزمت الإيرانى والماركسية الأفغانية والمذهبية السورية والعراقية . ونعود من جديد إلى أننا أمام صورة جديدة لدول البلقان كما كانت قبل الحرب العالمية الأولى ، وعلى ذلك فسوف يكون عام ١٩٧٩ هو قمة المخاض لولادة صعبة .

أجاب:

لا . . إننى أسجل حادثين هامين جدا . . وأرى فيهما البداية المؤكدة لما أراه أمامى بوضوح تام : الحادث الأول : هو الرهائن الأمريكان . والحادث الثانى : هو الهجوم على المسجد الحرام .

فحادث الرهائن قد خلق واقعاً جديداً تماما . والهجوم على المسجد الحرام قد زعزع أركان الأسرة السعودية إلى الأبد . مهما استمرت مؤامرة الصمت على ما حدث . ومهما كانت هناك محاولات لإعطائه طابعا دينياً متهوسا . وإخفاء المدلول السياسى له . .

أما حادث الرهائن فهو اعتداء على أمريكا . فالسفارة أرض أمريكية . والرهائن أمريكان عددهم خمسون . وهم يعادلون بقية الشعب الأمريكى .

وقد أهينت أمريكا تماما . وثار الشعب الأمريكى وطالب باستخدام أقسى أساليب الانتقام . ولكن الحكومة الأمريكية حصلت من الشعب الغاضب على تفويض بأن تفعل ماتراه مناسبا .

ولكن ليس من السهل على أمريكا أن تضرب إيران دون أن تتفق مع حلفائها وأصدقائها ، فليس من المعقول أن تحارب إيران وتورط بذلك كل الدول الغربية التى تستثمر أموالها فى إيران ، أو تحصل على احتياجاتها من بترول إيران ، ولذلك كان لابد أن تحصل على موافقة كل الدول الحليفة . حتى روسيا فى محكمة العدل الدولية قد أيدت أمريكا . واتخذت أمريكا خطواتها العاقلة ، فجمدت أموال إيران ، وفرضت عليها حصارا اقتصاديا وبحريا ، واقتربت بأساطيلها من الخليج ومضيق هرمز .

ومن الممكن أن يتطور الموقف الأمريكى ، بعد المساندة العالمية ، إلى ما هو أعنف . .

ولكن المعنى الخطير فى هذا الموقف هو أن أمريكا تغلبت على عقدة فيتنام ، فقد أدت هزيمتها فى فيتنام وموت سبعين ألفا من جنودها ، إلى أن خسرت كل ما كسبته فى الحرب العالمية الثانية .

وأخطر ما خسرته أمريكا كما يقول كيسنجر فى مذكراته ، أنها خسرت ثقتها بنفسها ، وكانت خسارتها مضاعفة ، فقد أحس الغرب والحلفاء والأصدقاء أن أمريكا غنية حقا وقوية صدقاً ، ولكنها ليست القادرة على التمسك بما تدعيه من مبادىء السلام والتوازن الدولى ونجدة الحلفاء فى كل موقع فى العالم . .

وقد تجدد لدى الأمريكان بعد عقدة فيتنام ، أن أمريكا يجب ألا تكون حارس السلام فى العالم كله . وهذا ما أعلنه الرئيس الأمريكى فرانك هاريس فى أواخر القرن التاسع عشر ، بأن الله لم يفوض الشعب الأمريكى بأن يقوم بدور خفير الدرك لهذه الكرة الأرضية .

وقدطالب كثيرون بأن تنكمش أمريكا .

ولكن عقدة «الماركاثية» التى اجتاحت أمريكا ، والتى كان شعارها : امسك الشيوعى . هى التى دفعها إلى الدخول فى فيتنام لتحارب فى الغابات والمستنقعات ، معركة بلا شرف . فقد كانت فيتنام هى «أصغر جهنم» عرفها الإنسان ! .

أما الموقف الجديد ، أو الواقع الجديد الذى ولد فعلا ، فهو أن أمريكا بعد أن تخلصت من عقدة فيتنام ، لابد أن يكون لها «وجود» فى هذه المنطقة . وهذا «الوجود» يحتم عليها ألا تتكرر مشكلة فيتنام . . وهذا الوجود تحتمه الحضارة

الغربية التى تقوم على البترول المستورد من هذه المنطقة . . فلابد أن تحمى بقوتها شرفها ، وأن تحمى حضارة الإنسان . . ولن يتردد إنسان فى العالم الغربى كله فى الوقوف وراء أمريكا فى دفاعها عن المصانع والمعدات الحربية التى وضعتها فى مواجهة الإتحاد السوفيتى فى حلف الأطلنطى . .

إن بريطانيا فى سنة ١٩٥٦ قد جعلت إيدن يعلن أن بلاده سوف تدخل الحرب دفاعا عن آبار البترول . وكانت بريطانيا لاتزال موجودة شرقى السويس . وكان الجنيه الإسترلينى هو سيد العملات .

هذا الموقف الجديد قد خلقه الإمام آية الله روح الله الخمينى . . ثم إن دول الخليج أصبحت الآن تخشى على نفسها من داخلها - وهذا هو الموقف الجديد . فهى فى حاجة إلى من يدافع عنها ، فمن الذى ستلجأ إليه للدفاع عنها ضد الثائرين عليها من أبنائها ؟ . . هل تلجأ دول الخليج إلى العراق مثلا ؟ هل تلجأ إلى إيران وهى أحد مصادر القلق فى المنطقة ؟ .

إذن فلا مفر من أن تطلب إلى أمريكا أن تعينها على نفسها . هل تخاف دول الخليج من العراق ولا تطلب إلى أمريكا ذلك ؟ . . ألم يحدث عندما قامت الثورة الإيرانية أن طلبت السعودية إلى الطائرات الأمريكية أن تحلق فى سماء المملكة ؟ ألم يحدث أن استعرضت السعودية قواتها المسلحة أمام شيوخ وأمراء الخليج لتؤكد لهم أنها قادرة على أن تتولى الدفاع عن الجميع ؟ - لقد كان ذلك قبل حوادث العدوان على المسجد الحرام !

ألم يحدث أن أميرا سعوديا قد أعلن أنه لن يسمح لأية دولة كبرى بأن تتدخل لحماية الخليج ، فما موقفه الآن وبلاده عاجزة عن حماية نفسها من نفسها ؟

إن مصر على استعداد دائما أن تعطى تسهيلات للقوات الأمريكية إذا أرادت أن تدافع عن هذه البلاد العربية جميعا !

سيادة الرئيس:

ليس واضحا لنا تماما إن كان النشاط السوفيتى فى المنطقة سببه أن الأمريكان لايزالون يعانون من عقدة التدخل على نحو مافعلوا فى فيتنام ، أو هم العرب بما تستروا عليه من أخطاء فى مؤتمرات القمة . . أو أن اضطراب العرب وعجزهم عن

اتخاذ القرار هو الذى أغرى السوفيت باستغلال هذا الشلل السياسى . وكان السوفيت أكثر حسما فى القرن الأفريقى والمحيط الهندى وأثيوبيا وليبيا واليمن ؟

أجاب:

لكل هذه الأسباب معا . فقد ارتبطت اليمن الشمالية والجنوبية بمعاهدة سوفيتية . بل إن اليمن الشمالية أثناء أزمة الرهائن قد تعاقدت مع روسيا على إمدادها بالسلاح . بينما خرجت أمريكا عن الرجوع إلى الكونجرس ، وقررت إعطاء اليمن الشمالية ما يعادل ٤٠٠ مليون دولار من الأسلحة والذخائر . ولكن فوجئت أمريكا والسعودية بأن اليمن الشمالية لديها سلاح سوفيتى . وأصبحت اليمن الشمالية والجنوبية متقاربتين وتهددان الأمن السعودى . ومن المؤكد أن الكثير من أسلحة الثوار السعوديين قد جاءتهم من اليمن الشمالية ! كما أن هناك معاهدات بين ليبيا وأثيوبيا ، ومعاهدات بين اليمن وألمانيا الشرقية . .

وليس سرا نشاط السوفيت فى جنوب شبه الجزيرة العربية وعند مدخل البحر الأحمر وفى المحيط الهندى وهو أصغر المحيطات ولكنه أغناها جميعا . فعلى المحيط الهندى توجد حوالى أربعين دولة . وفى هذه المنطقة يوجد أكثر من ٦٠ ٪ من احتياطى البترول العالمى و٥٩ ٪ من الذهب و ٩٠ ٪ من الماس و ٨٠ ٪ من اليورانيوم . . وكل مصادر الكاوتش والشاى .

ثم إن روسيا ابتداء من العام القادم فى حاجة إلى بترول من خارجها ! وكان من الممكن أن يمضى هذا النشاط السوفيتى فى المنطقة دون أن يترك أثرا لدى المواطن الأمريكى العادى . فالأمريكان ، أقل الناس اهتماماً بالشئون الخارجية . ولكن حرب فيتنام بقدر ما أثارت الأمريكان ، أفلحت أجهزة الإعلام فى جعلها شيئا تافها . فلم يكن المواطن الأمريكى يفرق كثيرا بين أفلام الحرب ونشرات الحرب . . ولما انهزمت أمريكا فى فيتنام أصبح الأمريكى العادى يضيق بهذه الحروب وينصرف عنها . .

حدث ذلك عند حوادث أنجولا سنة ١٩٧٦ ، وحوادث زائير والقرن الأفريقى سنة ١٩٧٧ . واليمن سنة ١٩٧٩ . .

ولكن إيران شغلتهم تماما . . لأن إيران قد حركت قوتين خطيرتين : البترول والمسلمين . .

واتسمت السياسة الأمريكية بالإيجابية والحذر . . وقد قيل لى إن أمريكا لم تشأ أن تهنئ الدول الإسلامية بحلول العام الهجرى الجديد ، بينما أغرقت روسيا والدول الشيوعية كل العالم الإسلامى بالبرقيات والتهانى – مع أنهم لا يؤمنون بالله !

سيادة الرئيس:

نعود إلى البداية : وما الذى سوف يفعله العرب فى مواجهة الموقف الجديد فى الشرق الأوسط . . وهو متطور متدهور ؟ . .

أجاب:

لا أعرف كيف يتصرف العرب . وأريد أن أرى . وإن كنت قد عرفت قدرتهم ، فقد رأينا ما الذى انتهت إليه مؤتمرات القمة وما انتهت إليه جامعة تونس وهى آخر صورة هزلية للتضامن العربى . . والتى التقى فيها رئيسا دولتين فلم يكلم أحدهما الآخر . . والتى ترفع القذافى عن الذهاب إليها . .

هذه الجامعة العربية النشأة انتهت . وكان يجب أن تنتهى . ولن تكون هناك جامعة عربية . ولكن يجب أن تكون هناك جامعة إسلامية أوسع وأكبر .

أما هذه «الكيانات» التى تسمى دولا ، فيجب أن يعاد النظر فى علاقتها بمصر على هذا المستوى ، وبهذا الوزن والحجم ، وفى اعتبارنا تطاولها على مصر كبرى الدول العربية وأقدمها حضارة وأكثرها استقراراً واستمراراً فى تحقيق السلام .

* * *

استفتاء شعبى على معاهدة الصلح ..
جرجى ألكاتور : أول من تدخل سيناء المحررة !!

فى كل مرة تتخذ مصر قراراً مصرياً ، تقف بعض الدول العربية وترفع لافتتين .. إحداهما مكتوب عليها كلمة : مؤامرة ، والأخرى مكتوب عليها كلمة : خيانة .

أى أن مصر تتآمر على الأمة العربية كلها ، وأن مصر تخون مصر . . أى أن هناك دولا عربية تخاف على مصر أكثر مما تخاف على نفسها وعلى شعبها . .

أما أن هناك عربا يخافون علينا أكثر من أنفسنا أو يخافون علينا من أنفسنا ، فذلك غير معقول بقدر ما هو سوء ظن عظيم بمصر ، وحسن ظن عظيم بأنفسهم . .

وأما مصر تتآمر على الأمة العربية ، فليس هناك أى دليل على ذلك . ولكن هناك مظاهرات وشعارات ومؤتمرات رفض لمصر تنتهى كما تبتدىء عادة : بالوعيد بأن يفعلوا فى مصر كذا وكذا . . وليس من بين هذا الوعيد شىء واحد ضد إسرائيل نفسها ! .

ومن مظاهر التآمر المصرى أن هناك اتفاقا سريا دائما . .

فقبل حرب أكتوبر كان هناك اتفاق سرى على الانتصار على اليهود . . أو كان هناك اتفاق سرى على أن ينسحب اليهود . .

وقيل إن الجيش المصرى قد انهزم ! وحتى لا يغضب الجيش المصرى من هذه التهمة ، قيل تصحيحا لذلك : إنه كان فى استطاعته أن ينتصر لولا أن القيادة المصرية هى التى عوقت تقدمه حتى تل أبيب . . أى أن القيادة المصرية خانت الجيش والشعب والأمة العربية ! .

ولما كان فك الاشتباك الأول . . قيل هناك إتفاق سرى . . ولما كان فك الاشتباك الثانى قيل إن هناك اتفاقاً سريا ، ولما كانت مبادرة القدس قيل إن مصر أعطت كل شىء ، ولم تحتفظ للزمن بشىء . . ولما كانت اتفاقية كامب دافيد ، قيل إن هناك

معاهدة سرية - أى أن هناك شيئا تخفيه مصر عن الشعب المصرى وعن العالم كله . وهذا الشيء تخفية مصر ، لأنها لا تستطيع أن تواجه به الناس . . وهى لا تستطيع أن تواجه الناس لأن الذى تخفيه هو عار قومى - أى خيانة !

وعلى الرغم من الذى قاله الرئيس السادات ، والذى أعلنه بيجين عن صعوبة التفاوض مع مصر وعن تشدد الرئيس السادات ، وعلى الرغم مما قاله الرئيس كارتر من أن النقاش بين السادات وبيجين كان «وحشيا» وأنه لم ير فى حياته شيئا كهذا ، فهناك بين العرب من يردد نفس النغمة السخيفة دون أن يبذل جهداً أكبر فى البحث عن إطار جديد لها ، وهى : أن مصر ضاعت والقضية ضاعت ، وأن إسرائيل قد أكلت العالم العربى كله . .

هل سبب ذلك أن العرب لا يتصورون أنهم قادرون على فعل شىء ؟ إنهم معذورون فى ذلك ، فقد انهزمنا ثلاث مرات ، ولكننا انتصرنا مرة واحدة ، كانت تعويضا عن كل ماخسرنا . .

هل لأن بعض العرب لايريدون لقضيتهم أن تحل ، وأنهم يعيشون على هذه القضية كما تعيش الصقور الجارحة على جثة حيوان ميت ؟ صحيح ، فإن كثيرين من أدعياء الوطنية والمقاومة قد امتلأت أكراشهم بالطعام وجيوبهم بالفلوس وتزاحمت السيارات أمام شققهم الأنيقة فى عواصم العالم ، دفاعا عن قضية يجب أن تظل خاسرة إلى الأبد . .

هل لأن مصر قد جاملت الكثيرين من الأشقاء فأعطتهم أكثر مما يستحقون . . وتزنهم بالذهب . بلاد من تزنهم بالتراب ، هل لأن مصر قد غامرت بمصير مصر عندما جاملت هؤلاء الأشقاء فأطلعتهم على قراراتها . . واستشارت . فكان من نصيب مصر أن عوقبت على ذلك بسوء الظن وسوء الفهم من الأشقاء العرب .

وكما تعودت مصر فلا يزال النقاش يدور حول اتفاقية كامب دافيد . . بعد أن انتهى النقاش حول القدس . .

ومن المتوقع أن يتوقف النقاش على اتفاقية كامب دافيد ، عندما يبدأ الانسحاب من الأرض المحتلة . .

وقد دارت مناقشات فى الصحف والشاشة والميكروفون وفى مجلس الشعب ، وكان نصيب المؤيدين والمعارضين واحدا ، فكل واحد قال ما عنده فى السلام مع إسرائيل

والسلام فى العالم العربى ، بعد أن أصبحت أمريكا شريكا كاملا - وكان اشتراك أمريكا الكامل نجاحاً عظيما لسياسة مصر بعد انتصارات أكتوبر ومبادرة القدس . .

وقد رأيت أن أسأل مصدرا كبيرا مطلعا عن مضمون اتفاقية كامب دافيد . رغم أن هذه الاتفاقية قد اخترقت حاجز الغموض الذى تركه قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ .

سألت : هل أنت متفائل ، هل مازلت كذلك ؟

أجاب:

أنا بطبعى متفائل . ورغم أننى أكدت هذا المعنى كثيرا وبكل لغة وفى كل مناسبة فإن تفاؤلى ليس مجرد أن أبتسم للمصائب أو أستقرئ المقدمات والنتائج . ولكنه قائم على حسابات كثيرة معقدة . . هى مخلفات الحياة السياسية الطويلة الشائكة . . هى تركت أثرها فى نفسى ، وأنا تركت أثرى فى مسارها . . أنا متفائل ، بل أشد تفاؤلا من أى وقت مضى . . بل إننى أرى بوضوح ما سوف يحدث بعد شهور . . أرى إسرائيل تنسحب إلى ما وراء خط العريش - رأس محمد . وأرى إسرائيل تلغى الحكم العسكرى الإسرائيلى فى الضفة الغربية وغزة وتنسحب إلى نقاط الأمن ، وأرى أن المصابين فى حرب أكتوبر والمعوقين ، وهؤلاء الأبطال هم أول من يدخل الأرض المحررة . . وأرى أن ممثلين للأديان الثلاثة سوف يصلون على سفح الجبل الذى صعد إليه موسى وكلم الله ، ونزلت عليه الوصايا العشر ، وأرى وأسمع من سوف يقول إن هذه خيانة مصرية جديدة : إن مصر لم تسترد سوى أربعة أخماس سيناء فقط وإن الفلسطينيين فى الضفة وغزة ستنتهى معاناتهم بانتهاء الاحتلال الإسرائيلى ويعدون أنفسهم لتقرير المصير بإدارة فلسطينية كاملة . . وينسى هؤلاء أننا لم نسترد أرضا فقط أو لن نرفع المعاناة عن أهلنا الفلسطينيين فقط ، وإنما استعدنا شرفا وكرامة . . وأننا فى الطريق إلى حدودنا الدولية وسيادتنا الكاملة على أرضنا . . وأننا منذ اللحظة الأولى قررنا أنه لا سيادة لغيرنا على شبر من أرضنا - وليست قضية المستوطنات الإسرائيلية التى هى قرى صغيرة إلا نموذجا لذلك ، فإقامة كشك خشبى على أرض مصرية يساوى إقامة مدينة : كلتاهما اعتداء على سيادة مصر . . وشبر واحد يساوى مليون شبر . ولذلك فسوف تكون سيادتنا كاملة .

وهذا ما حققناه ، وما أراه الآن بوضوح ، فما الذى حققه الآخرون لمصر ، أو لأنفسهم ، أو للأمة العربية ؟ . . بينما نحن قد جعلنا اتفاقية كامب دافيد «نموذجا» أو «نسقا» لاتفاقيات أخرى عربية . . وسوف يفعل العرب ذلك . .

وسوف تفعل سوريا بالذات . . كما فعلت فى فك الاشتباك الأول والثانى ، فليس أمامها إلا أن تمشى فى نفس الطريق وسوف ترى ، وأنا أرى ذلك بوضوح ، بل أكاد أعرف ما سوف يعلنونه فى دمشق . .

ومن الغريب حقا أن سوريا ، وغيرها ، التى أعلنت فى قمة دمشق أن أمريكا هى العدو الأول للعرب قد عانقت سيرس فانس بعد ذلك بساعة واحدة . . ومن المضحك حقا أن نجد موكب فانس قادما من المطار ، يلتقى مع موكب القذافى متجها إلى المطار ، وأن يكون بعد ذلك حديث ودى بين السيد فانس والرئيس الأسد يستغرق أربع ساعات . . ولذلك فأنا متفائل ، كنت ولا أزال وسوف أبقى .

سألت:

من يقرأ الإطار الخاص بالصلح مع إسرائيل يجد أن هناك إسرافا فى تأمين إسرائيل . . أو بمعنى آخر يجد أن إسرائيل تطالب بالأمن والأمان لها بشكل مبالغ فيه . . ويجد أيضاً أن هناك تحديدا للقوات المصرية فى سيناء فلا تجاوز فرقة واحدة . . ولست رجلا عسكريا ، ولذلك فأنا لا أقدر بالضبط إن كانت هذه القوة العسكرية كافية أو دون الكفاية . . ثم إن من بين الخطابات التى تلقاها مجلس الشعب ، خطابا أرسل إلى الرئيس السادات فى القناطر الخيرية يوم أول أكتوبر . . فحوله إلى رئيس مجلس الشعب ، الخطاب مذكرة كتبها أربعة عسكريون من أعضاء مجلس قيادة الثورة المصرية – أو كما يسمون أنفسهم البقية الباقية من هذا المجلس – المذكرة كتبها : كمال الدين حسين بخطه وبأخطائه الإملائية أيضا ، ثم وقعها عبد اللطيف البغدادى وزكريا محيى الدين وحسين الشافعى . . وقد علمت أنهم عرضوها على السيد حسن إبراهيم فرفض أن يوقعها لأنها مظاهرة سياسية . . وأنه قد طلق السياسة ثلاثا . وقال لهم إنه لو كانت عنده ملاحظات فسوف يكتبها للرئيس السادات أو يقولها له . وأكثر من ذلك أنه من العدل لهم أن يعترفوا بأن دورهم قد انتهى . . فهؤلاء العسكريون الأربعة يفزعون من أن مصر لن يكون لها فى سيناء سوى فرقة واحدة . . فكيف يدافعون عن سيناء وعن مصر ضد إسرائيل بهذا العدد القليل من القوات ، ويرون فى قبول مصر لذلك تفريطا فى حقها وتدعيما لإسرائيل واستدراجا لها لكى تعتدى من جديد على مصر . . فما الذى تراه ردا على ذلك ؟

أجاب:

هذا شىء عجيب حقا . نحن بعد انتصارنا فى حرب أكتوبر وانهزامنا فى حروب قبل ذلك ، قررنا أن نجرب السلام ، أى أننا قررنا أن نتكلم ونناقش بالعقل

والمصلحة على مسمع من أمريكا ومشاركتها الكاملة ، فنحن أصلا نريد أن نتفق ليكون سلام ، ولسنا نريد أن نجلس ليغدر الواحد منا بالآخر . ورغم اتفاقنا على السلام ، فإننا فى حالة يقظة تامة لما قد يحدث ، نحن نفعل ذلك ، واليهود أيضا . والاستعراض العسكرى الأخير يؤكد كما وكيفا كيف إن مصر تتفاوض من قوة . وكل هذه بديهيات السياسة التى هى امتداد للحرب ، أو وسيلة لمنعها أو إشعالها . ونحن نريد ألا تكون هناك حرب . والعالم كله ، وإسرائيل قبلنا وقبل العالم كله . وهذه بديهيات معروفة الآن تماما .

أما الإسراف فى احتياطات الأمن . فاليهود معذورون فى ذلك . فخوفهم عمره ثلاثون قرنا . وخوفنا عمره ثلاثون عاما .

ثم إن اليهود هم المسئولون عن هذا الخوف العميق الذى استفحل فيهم . فهم قد أقاموا خط بارليف . وهو بالفعل تحفة عسكرية هندسية . وأقاموا وراءه خطين آخرين . صحيح أن هذا الخط نسخة من حائط الأطلنطى الذى أقامه الألمان فى وجه قوات الحلفاء . وآمن الشعب الإسرائيلى أن خط بارليف هو حصن الأمان ضد أى عدوان ، إن حاول المصريون القيام بعمل مفاجىء . . بل إنهم أقاموا حساباتهم العلمية الدقيقة على أنه لا أمل فى أن يحارب المصريون . وإذا حاربوا فسوف يغرقون مرة أخرى فى القناة ، كما غرق جنود فرعون وهم يطاردون موسى عليه السلام وقومه .

واليهود يعرفون هذا المعنى ويرددونه . حتى عندما جاء موسى ديان ، على أيام الثغرة ، إلى الضفة الغربية لقناة السويس ، نشرت صحفهم تقول : إن موسى قد عاد إلى مصر - مع أن موسى الذى خرج من مصر ، ليس هو الذى عاد ، والمسافة بينهما أكثر من ٣٣ قرنا !

وكانت انتصارات أكتوبر مفاجأة كبرى لإسرائيل وللعالم كله وسيظلون يطلقون عليها تعبيرهم الخالد إلى أن تقوم الساعة ، ذلك التعبير هو «الزلزال» . وأكبر عناصر هذه المفاجأة هى «الأداء» - أى أداء المقاتل المصرى . . فالأسلحة فى متناول الجميع . . بل إن أسلحة اليهود أكثر تطورا من الأسلحة المصرية . إذن لم يكن السلاح هو الذى انتصرنا به ، ولكن الذين يحملون السلاح .

لقد انتهت حرب أكتوبر . إن مجرد ذكر هذه العبارة وعدم الوقوف عندها ظلم للتاريخ واستعجال لسير الأحداث الأخرى التى جاءت بعد ذلك . لأن حرب أكتوبر لم تنته .

إن المبادرة إحدى نتائجها . والمبادرة نفسها لم تنته فاتفاقيات كامب دافيد إحدى نتائجها . وأى إنسان لديه معلومات عسكرية بسيطة يعرف أن سقوط خط بارليف ودخول قواتنا أكثر من ١٥ كيلو متراً فى سيناء تهديد للأمن الإسرائيلى تماما . . فلم تعد هناك موانع صعبة .

فقناة السويس أكبر عائق مائى عرفته كل الحروب الحديثة والقديمة . . إن قناة السويس ليست مثل نهر الراين الذى عبره الحلفاء بدباباتهم البرمائية . . ولم تكن هناك فى معركة نورماندى الرائعة . والتى تابعها الرئيس السادات وهو فى السجن ، سواتر ترابية . . ولم يكن وراء هذا كله ذلك الأعمى والغطرسة الإسرائيلية المطلقة . . بأنهم سوف ينتصرون إلى الأبد وينهزم العرب إلى الأبد .

وجاء فك الاشتباك الثانى ، فأصبحت لمصر مساحة أخرى عرضها خمسون كيلو مترا . وبعد معاهدة الصلح سوف تكون لمصر كل سيناء بمضايقها . . ومن يملك المضايق يملك سيناء . . ونحن ننسى أننا حطمنا بارليف فى ست ساعات . . وأصبح عندنا الآن نفق تحت القناة ، ونستطيع إذا نشبت حرب أو تعرضت سيناء لأى عدوان أن ندفع عن طريقه ألف دبابة فى ساعة واحدة . . ويتكرر نفس الشىء . . فى نفس الوقت من النفق الآخر . .

وقد اقتنعت إسرائيل بأنه لا توجد حدود آمنة . . فالأسلحة الحديثة تتجاوز كل الحدود . . وانهارت نظرية إسرائيل بأن الأرض هى التى تعطى الأمان . . ومن يملك أرضا يملك أمنا . . فهل ملكت إسرائيل أمنا عندما استولت على سيناء والجولان والضفة الغربية وغزة ؟ إن الأمان لا يجىء إلا بالاتفاق على ذلك . .

ونقطة هامة جداً ننساها عادة . . وهى أن إسرائيل منذ ١٩٤٨ لم تعرف الحرب على أرضها . إنما تدافع عن أرضها من فوق أرض الغير . . ولكن بعد اتفاقية السلام سوف تكون على أرضها ، وقد تمر العين على هذه العبارة بسرعة ، ولكن ليس هذا حال أناس عاشوا فى خوف ، وحاربوا فى خوف ، ويسالمون فى خوف . . وهم يريدون السلام ويحتاجون إليه ، تماما كما نريده ونحتاج إليه .

والذين لديهم أية معلومات عسكرية ، أو حتى كانوا مقاتلين ، يعرفون أن سيناء كلها فى أحلك الأزمات لم يكن بها أكثر من لواء . . أى ثلاثة آلاف جندى

وضابط . . ولم يحدث قط أن زادت هذه القوات على ذلك إلا فى الخمسينيات وقبل ثورة يوليو . . فقد كانت بها فرقة واحدة أى تسعة آلاف جندى وضابط . . فبعد هزيمة ١٩٤٨ ، وبينما الإنجليز يحتلون القناة ، كان لابد من حماية سيناء . . فكانت هذه الفرقة التى عمل بها أنور السادات وعبد الحكيم عامر وصلاح سالم . .

ولو أنصف الرئيس السادات لاكتفى بلواء واحد فى منطقة المضايق ، لأنه لم يعد هنا مبرر للخوف . مادامت جميع العوائق قد أزيلت أمام القوات المصرية . . ثم إن وجود فرقة فى هذه المنطقة فادح التكاليف ! .

سألت:

جاءت فى الوثيقة الثانية لإتفاقيات كامب دافيد هذه العبارة : «إنشاء طريق سريع يربط بين سيناء والأردن بالقرب من إيلات مع ضمان حرية المرور السلمى فيه لكل من مصر والأردن» . . وذهبت الاجتهادات فى تفسير هذه العبارة فى اتجاهات متضاربة . من بين الاجتهادات أن هذا الطريق سوف يكون تحت السيادة الإسرائيلية . ومن بين هذه الاجتهادات أن هذا الطريق سوف يسهل على إسرائيل أن تضرب مصر والأردن معا . . ومن هذه الاجتهادات أن إسرائيل بعد أن أصبح لها حق المرور فى خليج العقبة وخليج السويس ، لها حق المرور فى الأراضى المصرية والأردنية ؟ .

أجاب:

شىء عجيب حقا . أننا نجلس معا على أن نتفق على أن تكون هناك علاقات عادية متدرجة . وعلى المرور فى القنوات الدولية وفقا للقوانين الدولية .

أما المرور فى أرضنا أو دخولها فلن يكون ذلك إلا بموافقتنا . . ألسنا دولة ذات سيادة على كل شبر فى بلادنا ، فكيف يتأتى أن يحدث شىء على أرضنا أو على مائنا أو فى سمائنا دون موافقتنا ؟

ثم إن هذا الطريق يقع منه ٢٠٠ كم فى أرض مصر فى سيناء ويقع منه أكثر من ٣٠٠ كم فى الأردن . . أما المسافة التى يقطعها فى إسرائيل فلا تزيد على سبعة كيلو مترات – وسوف يؤدى هذا الطريق ، بعد إكمال رصفه إلى الربط بين المشرق العربى والمغرب العربى . وكانت إسرائيل بقيامها قد عزلت الشرق عن الغرب .

بل إننى لا أذيع سراً إذا قلت إن مصر سوف تكون عظيمة السعادة لو تفضل أحد من الناس أو إحدى الدول أو إحدى الشركات فشاركت فى رصف هذا الطريق .

وفى سنوات ٤٥ و ٤٦ و ١٩٤٧ كان هناك خط أوتوبيس يملكه رجل اسمه سالم سالم . وكان الأوتوبيس يبدأ من القاهرة ويعبر إلى القنطرة شرقا فى الثامنة صباحا ليصل بيروت فى الخامسة مساء مارا بالعريش وتل أبيب ويافا . وكان منتظما جدا .

وليس هذا الخط بدعا فى العلاقات العادية بين الدول . . فهناك خطوط ملاحية فى نهر الراين تشمل معظم أوروبا . . وكذلك خطوط ملاحية فى نهر الدانوب بين الشرق والغرب . . وهناك سفن الركاب بين دوفر فى بريطانيا إلى كاليه فى فرنسا ، ويستقل السائح سيارته حتى يوغسلافيا .

وكان مثل ذلك قطار «الشرق السريع» وقطار «السهم الذهبى» من برلين حتى بغداد . . وقبل ذلك بمئات السنين كان هناك «طريق الحرير» الذى يبدأ من باريس حتى بكين عاصمة الصين ماراً بتركيا والهند . .

وسألت:

النغمة السائدة الآن هى أن مصر انعزلت . . أن مصر انفصلت وأنها هى التى اختارت ذلك ، وأن هناك نغمة تقول : مصر للمصريين . وقد حدث ذلك بعد النكسة عندما ضاق المصريون بالهزيمة – وجدت ذلك بعد الانتصار فى أكتوبر عندما ضاقوا بالحرب . . وأن فى انعزال مصر وتقوقعها إضعافا للقوة العربية المناوئة لإسرائيل . .

أجاب:

من المخجل حقا أن تتحدث مصر عن الذى تفعله من أجل العروبة . وهو مخجل لأن فيه قدرا من المن أو التحدث بنغمة مصر على غيرها . . ولكن دون مَنّ على أحد فلنرجع إلى التاريخ القريب جدا . . مصر فى عهد أنور السادات . . ما الذى فعله هو ؟ . . ما الذى عرضه على المنظمات الفلسطينية ؟ . . ألم يطلب إليهم فى أبريل ١٩٧٢ . . أن تكون لهم حكومة مؤقتة ؟ ألم يعلن استعداده للاعتراف بها وأن يعطيها كل الحصانات الدبلوماسية ؟ . . وأكثر من ذلك ألم يطلب إليهم أن يبعثوا بقوة رمزية . . أربعين رجلا ليحاربوا مع الجيش المصرى ، أى مع ثلاثة أرباع مليون

مقاتل ، فإذا جلس للصلح مع إسرائيل قال إن الفلسطينيين قد حاربوا وإن لهم حقوقا . فما الذى فعله الفلسطينيون ؟ لم يبعثوا بهذه القوة الرمزية حتى اليوم !

كما أن الرئيس السادات قد أطلع ياسر عرفات على الموعد التقريبى لحرب أكتوبر ، وفوجىء بأن صحيفة «النهار» اللبنانية قد نشرت أن الحرب بين مصر وإسرائيل وشيكة الوقوع ، فأضاع بذلك كل الخدع التى دبرتها مصر لإخفاء موعد الحرب . .

ثم من الذى طالب بأن تكون فلسطين عضوا فى الأمم المتحدة ؟ ألم يطالب بذلك أنور السادات يوم تحدث فى الأمم المتحدة ؟ .

ثم ما الذى قاله فى الكنيست ؟ . . وما الذى تمسك به فى محادثات كامب دافيد ، وأسفر عن ضرورة أن ينسحب اليهود من سيناء فى نفس الوقت الذى ينسحبون فيه من الضفة الغربية ؟ .

وعلى الرغم من أن أحدا من سوريا أو من الفلسطينيين لم يفوض الرئيس السادات فى أن يتحدث باسم أى منهم ، فإن التزامه القومى حتم عليه أن يقوم بما هو واجب أخلاقى وبما هو شرف قومى .

ومن العار حقا أن نطلب إلى العرب أن يقرأوا ذلك الحوار الذى دار بين وليام كوانت مساعد مستشار الأمن القومى وبين السيد عيسى صباغ . . وإنهم سوف يجدون أن وليام كوانت يقول : « لا خوف على الأمة العربية من التمزق فهناك روابط عميقة جداً بينهم ولكنهم اعتادوا على الخلافات والمنازعات ، ولكن الذى بينهم كان بينهم وسوف يكون بينهم أعمق من أن تزعزعه هذه الخلافات العصبية العابرة » . . وهذا الذى قاله صحيح : فإننى أرى أن هذه الاختلافات بين العرب . . كالاختلافات بين أصابع اليد الواحدة طولا وعرضا وقربا وبعدا . . ولن يمضى وقت طويل حتى تنضم الأصابع بقوة على سلاح واحد . . أو على غصن زيتون واحد . . فنحن جميعا نريد السلام ، وديننا يطلب إلينا ذلك ، فإذا لم يكن سلام فالحرب ، وقد جربناها . ولكن إذا استطعنا أن نحقق السلام ما يمكن تحقيقه بالحرب ، مع أن هذا لم يحدث ، فلماذا الدمار والدم . . ألا يكفينا ما كان .

وألا يكفينا عارا دماء ودخان الأبرياء فى لبنان ، والقاتل عربى والقتيل عربى ؟ ! .

وهناك نقطة أحب أن ألفت النظر إليها . وهى أن «خروج» مصر إضعاف لدول المواجهة . وهذا صحيح . لولا أننى أعترض على كلمة «خروج» ، لأنه لماذا لا يقال خروج دول المواجهة عن الصف المصرى ، وهو الأقوى والأقدر فاعلية وأعمق أثرا ؟ . . لماذا ننظر إلى مصر على أنها هى التى أضعفت دول المواجهة ، ولا يقال إن دول المواجهة بعنادها وعشوائيتها هى التى تعمل على إضعاف مصر ؟ .

ثم ما الذى فعلته دول المواجهة أو دول الرفض ، أكثر وأعمق مما فعلته مصر ؟ وما الذى تستطيعه ، إن اتفقت ، من أجل حل القضية العربية ؟ .

إن مصر فعلت جهارا نهارا ، وعلى مرأى من ألف مليون نسمة وعبر الأقمار الصناعية ، ما تقوم به بعض الدول العربية سراً . . ولكن مصر اتخذت سياسة الانفتاح على الشقيق والصديق والعدو . . اتخذت سياسة العبور . . من الهزيمة إلى النصر ، ومن الحرب إلى السلام ، ومن الإقليمية إلى الدولية ، ومن المصرية الضيقة إلى القومية العربية ، وهى لا تمن على أحد ، وإنما ترى أن هذا قدرها . . فهى إن كانت الأخ الأكبر فهذا قدرها ، وإن كانت الأب فهذا نصيبها . .

سألت:

ماذا يحدث لو أن دول الدعم ، تحت ضغط التخويف أو التورط ، قطعت الدعم عن مصر . . أو طلبت إلى المصريين العاملين فيها أن يعودوا إلى ديارهم ؟ .

أجاب:

لم نصل بعد فى علاقتنا إلى هذا الحد ، ولكن هذا الاحتمال البعيد قد ورد فى المناقشة والتدبير لكل شىء . . وإذا حدث . . سوف تكون هناك حلول دولية . ويومها لن يشعر مصرى واحد بندم على أى شىء . . ولكن سوف يكون الندم من نصيب كثيرين غيرنا ، وأنا لا أريد أن أسبق الأحداث . . وفى الوقت الذى يراجع فيه كثير من الزعماء العرب مواقفهم .

وأنا على يقين من أن كثيرين سوف يباركون خطوات السلام .

ولكن قد علمتنى الحياة أن أجد لكل إنسان عذرا ، فكل زعيم له ظروفه الحزبية أو العائلية أو القومية . . ولابد ، لكى يكون الإنسان منصفا أن يجلس فى مقاعد الآخرين . . أو يدخل فى أحذية الآخرين كما يقول المثل الإنجليزى . .

سألت:

بين خطابات كثيرة تلقاها رئيس مجلس الشعب رسالة من السيدة هدى عبد الناصر تقول فيها إنها لاحظت فى الوثيقة الثانية هذه العبارة : «على أن يتمتع مواطنو الدولتين بحماية القوانين المطبقة فى دولتيهم» . وتعلق على ذلك بقولها : أى أن الإسرائيلى فى مصر يتمتع بحماية القوانين الإسرائيلية . وهى ترى أن فى ذلك عودا إلى الامتيازات الأجنبية . .

ألا ترى أن هذه العبارة تعيدنا إلى المناقشات التى أثيرت قبل ذلك عن بقاء المستوطنات الإسرائيلية على الأرض المصرية مع حماية قوات عسكرية لها ، وفى نفس الوقت أن يظل الإسرائيليون رعايا لإسرائيل على أرض مصرية . . مع أننا قد تجاوزنا هذه المشكلة نهائيا . .

وبالمناسبة فأنا لا أزال أذكر أننى رأيت فى التليفزيون الأمريكى حديثاً مع سيدة فى مستعمرة «ياميت» - أى البحر الصغير - سألوها عن رأيها فقالت : إننى لم أترك شاطىء ميامى لكى أحصل على الجنسية المصرية ، أى أنها تريد أن تظل إسرائيلية مستوطنة إسرائيلية وعلى أرض مصرية ؟!

أجاب:

هذا صحيح . وقد علق الرئيس السادات قبول اتفاقية الصلح على موافقة الكنيست على قضية إخلاء المستوطنات . وأعلن ذلك الرئيس كارتر أمام مجلس الكونجرس الأمريكى ، وسمعتم بيجين أيضا فى الكنيست يقول : هل رأيتم السادات وهو يزأر فى وجهى كلما ذكرت له كلمة المستوطنات على سيناء أو أية أرض عربية . .

فالكلام عن وجود مستوطنات أو سكان لها أو حرس لهم ، قد انتهى ، فلا مستوطنات ولا سكان ، وبالتالى لا معنى لأى كلام عن القانون الذى يخضعون له . . وإذا دخل سكان هذه المستوطانات نفسها من ميناء الإسكندرية أو مطار القاهرة فسوف يخضعون للقانون المصرى . لاشك فى ذلك ، ونفس الشىء بالنسبة للمصريين إذا ذهبوا إلى تل أبيب أو إيلات ، وهذه بديهيات ، ومن المضحك أن تكون موضوعا لنقاش . . ثم إن مصر هى التى أوردت هذه العبارة فى الاقتراح الذى قدمته . . ومعنى هذه العبارة أن يهود إسرائيل على أرضنا يخضعون للقانون المصرى ، والمصريون أو حتى اليهود المصريون فى إسرائيل يخضعون لقانون إسرائيل ! .

وأخيرا سألت:

ما الذى تتوقع أن يحدث عند عرض اتفاقية السلام على مجلس الأمن . . هل تعود روسيا إلى الامتناع . هل تستخدم الفيتو فترفض الاتفاقية ؟ .

أجاب:

أجيب عن هذا السؤال بسؤال آخر : ماذا حدث عندما طالبت أمريكا فى مجلس الأمن بانسحاب القوات الإسرائيلية من جنوب لبنان ؟ لقد أجيبت إلى طلبها فى ٢٤ ساعة ، من كان يستطيع ذلك ؟ ثم ما الذى فعلته روسيا ؟ امتنعت عن التصويت ، ومن ورائها تشيكوسلوفاكيا ، وهذا طبيعى ، ولم يكن فى استطاعة السوفيت ، أمام عملائهم فى المنطقة أن يرفضوا قراراً بخروج إسرائيل من لبنان ، حتى هذا القرار لم يخل من الصفاقة السياسية . . إذ كيف يمتنعون عن التصويت على سحب قوات يهودية تحتل أرضا عربية وتقتل عربا وتسيل دما عربيا ؟ .

وسوف يتكرر نفس الموقف عند عرض الاتفاق على مجلس الأمن . . وسوف يتفرج العالم كله ، وعملاء السوفيت فى المنطقة ، على القرار الذى يتخذه السوفيت . . فهل يستخدم السوفيت الفيتو ضد الانسحاب الإسرائيلى من الأرض العربية ، وضد الاستقلال الذاتى للفلسطينيين كخطوة أولى نحو تقرير المصير . . وضد الانسحاب من الجولان ، وضد الإفراج عن ألوف المعتقلين فى السجون الإسرائيلية ؟ وإذا لم يستخدم السوفيت الفيتو ، فهل يصوتون بالامتناع كما امتنعوا عن التصويت على خروج إسرائيل من لبنان ؟ ليتهم يتخذون أيا من هذين القرارين ، ليعرف العالم كله ما الذى يريده السوفيت . . أو ما هى حقيقتهم وما هو موقفهم من السلام فى الشرق الأوسط . .

وحتى إذا استخدم السوفيت الفيتو ، فإن الأمر أولا وأخيرا يعنينا نحن مع إسرائيل والأردن والفلسطينيين وأمريكا . . ثم يعنى الشعب المصرى فى المقام الأول وهو الذى سوف تعرض عليه هذه الاتفاقية فى استفتاء عام . .

نحن الذين نريد السلام . . ونحن الذين يجب أن نستدرك ما فاتنا . . أو نستدرك ما فوتته علينا الحروب المتوالية حتى أرهقتنا ، وتطاولت شعوب على إرادتنا ، وتعالت على ملايينا الأربعين الذين لهم الحق فى الرخاء والأمان . . ولهم الحق فى أن يجربوا ظلال السلام بعد أن تقلبوا على جمرات الحرب ؟ . .

الطويل الأنف والأخنف أيضا المتساهل فى كل شىء . . وفى شرفه قبل كل شىء ! .

انتهت الصورة التى اخترناها واسترحنا إليها ، ولم ندر أننا اخترنا معها الهزيمة أيضا ، لأن اليهود الذين حاربونا لم يكونوا هكذا مزيجا من السخرية والاحتقار !

أذكر أننى كتبت عن علبة يبيعونها فى إسرائيل ، العلبة مكتوب عليها «هذه العلبة بها هواء من الأرض المقدسة» ولا يقاوم الإنسان الضحك ، لأن اليهود يبيعون الهواء ، وحتى يفلت الإنسان من عدم تصديق الناس له فى مصر عندما يروى هذه النكتة ، فإنه يشترى هذه العلبة ، وقد اشتريتها وكتبت عنها ، وضحك الناس لذلك ! .

وجاءنى صحفى إسرائيلى وقال : أأضحكتكم هذه العلبة ؟

فقلت : جدا .

فسألنى : ثم ماذا بعد ؟

قلت : لا أفهم ، إنها نكتة والسلام !

وقال : ولم يفكر أحد فى شىء آخر ، فقط عثرتم على نكتة إسرائيلية ، وانتهى كل شىء ؟!

قلت : لا أفهم !

وكان رأيه أن هذا أحد العيوب المصرية ، فكل شىء : يبدأ بنكتة ، وتكون النكتة هى الهدف !

وقال إنه لو كان مصريا لفعل شيئا آخر ينافس به هذا الإسرائيلى الذى اخترع علبة الهواء هذه .

ثم نشطت غرائزه كيهودى وقال : أنا أستطيع أن أخرب بيت هذا الرجل الإسرائيلى . . أستطيع أن أصنع علبة مثلها تماما وأكتب عليها «هذه العلبة بها هواء من مقبرة توت عنخ آمون» . . وسوف يشتريها الأمريكان بمئات الألوف من الجنيهات كل سنة !

وهذا هو الفارق بيننا وبينهم فى الأشياء الصغيرة والكبيرة أيضاً ، إنهم تجار فى الدرجة الأولى ، ودينهم يقول لهم : إن الذى لا يكسب كل يوم يخسر كل يوم !

وهم يفكرون فى الكسب من وراء كل شىء ، أو هم يكسبون دون تفكير تماما كما أننا نتنفس دون أو نفكر فى ذلك . .

وعندما كنا فى واشنطون أثناء انعقاد قمة كامب دافيد دعانا إلى الغداء الصحفى المصرى اليهودى البير مزراحى ، وقبل أن نفرغ من الغداء جاءنا صاحب المطعم ليقول لنا إنه يهودى ، وإنه ابتهاجا بالسلام لن يتقاضى منا شيئا ، وشكرناه ، ثم عاد يقول : ولكى نسجل هذه المناسبة السعيدة لابد أن نلتقط عدة صور مع جميع موظفى المطعم ، وشكرنا الرجل ، ثم عدنا إلى الفندق فوجدنا البير مزراحى يتشاجر مع رجل آخر باللغة العربية وبألفاظ نابية . . ولم نفهم . وجاءنا يشرح لنا الموقف الغريب قال : إن هذا الرجل موظف عندى ، وقد أعطيته هذه الكاميرات لكى يلتقط لنا الصور فى المطعم هو الذى التقط الصور لاخلاف على ذلك ، وفى يوم إجازته الأسبوعية ، ولكنه استخدم كاميراتى أنا ، وهو تقاضى مائة دولار . . ولابد أن تكون لى عمولة ! .

فهو إذن قد تناول الغداء مجانا ، وأتى بمن يلتقط الصور ، ويريد عمولة ، ، وقد فعل ذلك دون أن يسألنا عن الذى يضحكنا فى هذا الموقف العجيب ! .

ولكن الذى فعله هو شيء عادى دون تفكير : لابد أن يكسب يوميا ، وإلا كان خسارة يومية أيضاً ! .

وإذا كان السلام مفاجأة لإسرائيل ، رغم أنها تحلم بذلك . . فإن السلام يجب ألا يكون مفاجأة لنا أيضا ، فلا يزال أمامنا متسع من الوقت لكى نستعد ، بشرط أن نبدأ فوراً .

وفى الصحف الإسرائيلية إعلانات عن رحلات سياحية إلى مصر . . وكانوا بعد حرب ٦٧ يعلنون فى الصحف : تعالوا إلى إسرائيل لتروا أهرام الجيزة !

ولكن الموقف مختلف تماما . . ثم إنه لم يعد يخفينا أن بيجين عندما رأى الأهرامات قال : إن أجدادى قد شاركوا فى بنائها ! .

والرد عليه سهل جداً : وهو أن أجدادنا أيضاً فى فلسطين ومصر قد ساهموا فى بناء هيكل سليمان - هذا باعترافهم أيضا .

ثم إن هناك ادعاءً يهودياً قائماً بأن الأرض كلها يهودية ، وأن كل الناس من أصل يهودى . . ولذلك لم يكن غريبا - كما أشرت فى هذا المكان منذ ثلاثة أسابيع - أن يطالب أستاذ جامعى يهودى بالضفة الغربية لنهر المسيسبى وقطاع المكسيك لأنه وجد هناك آثارا قديمة تشبه آثار الملك سليمان فى القدس !!

وفى الصحف الإسرائيلية إعلان عن كتاب بعنوان «دليل السائح الإسرائيلى فى مصر» كما أن عدداً من شركات السياحة فى مصر قد تلقت خطابات من شركات سياحية إسرائيلية . . وهذا طبيعى . . وسوف نذهب إلى هناك ويجيئون إلى هنا . .

وسوف يمضى وقت طويل قبل أن نتحقق من أن اليهود ليسوا بالضبط قصار القامة وأنهم لا يتكلمون من طرف أنوفهم الطويلة كما تقول النكت المصرية . . وقبل أن يروى نرتدى الأحذية ونستخدم الأسلحة الإلكترونية وقبل أن يتأكدوا من أن عدد طلبة المدارس فى مصر يبلغون عدد سكان إسرائيل والضفة الغربية وقطاع غزة والأردن !

والسلام علينا وعليهم أسلوب جديد فى الحياة ، إذا لم يكن قد تحقق فى ثلاثين عاما مضت ، فسوف يتم ذلك فى أقل من ثلاثين عاما سوف تجىء ! .

وفى سنة ١٩٧٤ فوجىء العالم كله بأن جنديا يابانيا ظل فى حالة حرب منفردة مدة ثلاثين عاما ، دون أن يدرى أن الحرب قد انتهت ، ولم يشأ الجندى اليابانى هيرو أووندا أن يضع السلاح إلا بعد أن أتوا له بقائد كتيبته وإلا بعد أن أمره بأن يلقى السلاح ، ثم أقام له الرئيس الفلبينى ماركوس حفلا استسلم فيه الجندى رسميا بأن أعطى سلاحه للرئيس ماركوس . . وأعاد الرئيس الفلبينى هذا السلاح إل الجندى اليابانى الذى فوجىء بالسلام ! .

وكانت المشكلة التى تواجه هذا الجندى كما يحدث فى كثير من أفلام الجنود العائدين من القتال ، هى أن يخلع ملابس الحرب وأسلحة الحرب ، ويتهيأ لإطار جديد من الحياة المختلفة تماما . . وقد أمضى هذا الجندى سنوات يقفز من الفراش عند سماع أى صوت . .

لقد احتاج إلى وقت وتدريب وتأهيل مستمر ليستعيد إحساسه بأن كل الذين حوله من الأصدقاء ، وأن صوت السيارات ليس صفارات إنذار . . وأن كل الطائرات التى فى السماء مدنية وليست عسكرية . . وأن كل أجنبى ليس جاسوسا . .

ونحن فى حاجة ، وهم أيضا ، إلى هذا التأهيل النفسى لكى يكون سلام طويل على الأرض ، وتكون محبة بين الناس . . وإن لم تكن محبة تامة ، فمصالح ودية ، وليس عجيبا فى التاريخ ، أن يكون أعداء الأمس أصدقاء الغد – وأمامنا ألمانيا وفرنسا وبريطانيا وأمريكا ، ثم مصر وفرنسا وأمريكا وعشرات من الدول فى كل مكان . .

ليس هذا غريبا ، ولكن الغريب جدا أن نظل فى حالة دهشة ، وننتقل من الدهشة إلى الاستنكار ، وتعاودنا الأوهام ونتخلص منها بالنكت ، ثم نلوم أنفسنا على أننا لم نكن فى مستوى السلام بين الأعداء والأصدقاء وأبناء الأديان الثلاثة الكبرى التى تدعو لإله واحد من أجل الخير العام . .

التطبيع .. وعلاقات أخرى ..

سيادة الرئيس:

أكاد أعرف إجابتك مقدما عن هذا السؤال ، لأنك كثيرا ما قلت : ليست هذه هى القضية . . إن القضية هى السلام . . ولكن الناس هنا وهناك يرون أن «تطبيع العلاقات» مع إسرائيل لا يزال قضية . . فعلى الجانبين لاتزال هناك دهشة واستغراب وتخوف ، وسوف يبقى ذلك طويلا . . فهى إذن قضية . صحيح أن الطريق إلى السلام طويل ، ومن مراحل السلام أن تكون العلاقات بين مصر وإسرائيل طبيعية ، وليس أصعب من أن تكون العلاقة بين أعداء الأمس شيئا طبيعيا ابتداء من يوم محدد ، كأن نقول مثلا : بالأمس كنا أعداء ، واليوم أصدقاء وإلى الأبد ؟ .

أجاب:

أعرف جيدا أن الصداقة لا تجيء بقرار ، كما أن الحب لا يجيء بمجرد إعلان الرغبة فى ذلك . . وقد ذكرت لك من قبل أننى منذ أحد عشر عاما توقفت فى مطار روما . وفوجئت بعدد من الإسرائيليين ، فابتعدت عنهم تماما ، ولا أدعى الآن أننى فكرت فى ذلك ، إنما كان عملا تلقائيا بلا تفكير . والذى فعلته فى ذلك اليوم هو ما كان يفعله أى مصرى ، فليس من السهل فى لحظة واحدة إلغاء كل مشاعر العداء والمرارة والثأر وسوء الظن ، فأنا شخصيا لم أستطع ذلك . ولابد أن غيرى لديه نفس الشعور ، وأنا عندما بادرت بالسلام كانت يدى على نبض الشارع المصرى والريف المصرى والمواطن المصرى ، وإذا كان صوتى عاليا يوم وقفت فى الكنيست فلأننى حشدت فى حنجرتى كل همسات المصريين . . وإذا رآنى العالم كله طويلا عريضا فلأننى لم أكن فردا . إنما كنت أربعين مليون مصرى ، بل مئات الملايين من الذين يحلمون بالسلام أملا بين الشعوب . .

ولكن يجب أن نعترف بأن السلام لم يجىء عفوا . فقد عملنا له ، وكانت حرب أكتوبر أولى خطوات السلام ، وكانت مروعة لإسرائيل بقدر ما كانت رائعة لمصر وللأمة العربية ، وكما أن انتصارنا فى أكتوبر كان مفاجأة لإسرائيل وللعالم ، فكذلك كان السلام ، وقد اختلفت الاجتهادات فى معنى حرب أكتوبر وما أحدثته من تغييرات هائلة فى المجتمع الإسرائيلى ، ولكن مهما اختلفت الآراء فإن معنى واحدا قد اتفق عليه الجميع : أن إسرائيل بعد هذه الحرب غيرها قبلها .

وكما يحدث فى نيران المدافع والقنابل أن يكشف الإنسان معالم الأشياء ، فكذلك فى لظى هذه الحرب ومن خلال الدموع اكتشفنا حقيقة هذا الصراع الطويل . فما الذى اهتديت أنا إليه ؟ اكتشفت أننا إذا مضينا من حرب إلى حرب فلن نكسب شيئا . وقد جربنا ذلك ، وتوالت الحروب بيننا حتى وصلت إسرائيل إلى الضفة الأخرى من قناة السويس . وكان من الممكن أن تصبح قناة السويس مثل الأردن حدودا بالقوة للتوسع الإسرائيلى . ولذلك كان لابد من عمل شىء . وجاء فك الاشتباك واحدا بعد واحد . ولم يكن فك الاشتباك إلا نوعا من التباعد بين قوات متحاربة ومستعدة لاستئناف القتال ، مهما كانت عبارات المفاوضين مهذبة ورقيقة ، ومهما كانت «خيمة» المفاوضات واسعة . . فإن «الخيمة» نفسها ليست إلا نوعا من «التستر» على إجراء لا يشرفنا أن نصارح به . . وإلا لجعلنا المفاوضات علنا : بالصوت والصورة .

ولو مضينا فى سياسة استرداد الأرض خطوة خطوة لتعددت الخطوات وطال طريق التحرير وضاق الناس . . ولذلك كان لابد من عمل شىء جرىء جديد ، وكانت مبادرتى بالسلام ، وهى ليست اختصارا لهذه الخطوات ، إنما هى إلغاء لهذا الأسلوب فى إنهاء حال الاشتباك ، ومنذ اللحظة الأولى أعلنت أن السلام ليس معناه إنهاء حالة الحرب ، وليس معناه الهدنة الطويلة ، لأن السلام والحرب متشابهان : فلابد من الاستعداد لذلك ، فكما أن الحرب تعبئة وتخطيط وتدريب وقرار ، فالسلام تعبئة وتخطيط وتدريب وقرار ، فالحرب فعل والسلام عمل .

وكما كان النصر فى أكتوبر صدمة أنقذت إسرائيل من غرورها وغطرستها ، فهو صدمة أنقذت مصر من عارها وهوانها ، وبعد هذه الصدمة فلابد أن نفيق وأن نفعل شيئا ، تماما كما يصحو الإنسان من نومه ، فلابد أن يفعل شيئا بعد ذلك . .

ولا أعرف حتى اليوم كيف أصف مشاعرى وأنا أصافح فى مطار بن جوريون كل

قيادات إسرائيل . . فجولدا مائير كانت ترى أن السلام معى مستحيل ، وعاشت لترى أنه ممكن ، وإن لم تعش لتجىء إلى مصر لتظهر فى صورة تذكارية أمام الأهرامات التى هى رمز باق لحضارة مصرية لا تموت ، بدلا من الصور التى التقطت لها فى السويس يوم تسللت القوات الإسرائيلية إلى الضفة الغربية ، فيما عرف بعد ذلك باسم «الثغرة» . .

وليس صحيحا ما جاء فى مذكرات إسحاق رابين الأخيرة ، من أننى لجأت إلى المفاوضات لأنه لم يكن أمامى غير ذلك . . لعله يريد أن يقول إننى اضطررت إلى مفاوضة إسرائيل . . لأننى غير قادر على القتال . . وعيب هذه العبارة أنه ليس صحيحا أننى اضطررت إلى المفاوضة ، بل أنا الذى اخترت المفاوضة ، لأننى قررت السلام ، وبادرت به منذ سنة ١٩٧١ والسنوات التالية . . وقررت الحرب فى سنة ١٩٧٣ أيضا . . وأردت أن أنقذ الجميع من الاستمرار فى دائرة خانقة لنا ، وهى الخروج من حرب لكى ندخل حربا لندخل إلى غير نهاية . . ولكنى أرى فى عبارة إسحاق رابين تعبيرا عن رؤية بعض الزعماء الإسرائيليين من أن الحرب هى القوة ، والسلام هو الضعف ، وأن الناس لايلجأون إلى الحوار إلا عاجزين ، ولا يلجأون إلى الدماء إلا أقوياء !!

فالسلام هو الذى يشغلنى ، ومن أجله وفى سبيله تصبح كل الخطوات ضرورية ، ولا يشغلنى أن تكون الخطوات طويلة أو قصيرة . ولا يشغلنى أن نجرى فنتعثر ، ولكن الذى يهمنى هو أن نمضى وألا نتوقف عن السير معا من أجل هذا الهدف النبيل . .

وعندما جاء أبا إيبان إلى القاهرة لاحظ أن اللافتات المعلقة فى شوارع مصر كلها تهتف للسلام . . وليس للسلام مع إسرائيل ، واستنتج من ذلك أن المصريين يريدون السلام عموما ، وليس السلام خصوصا . فليكن ذلك . ولا خلاف بيننا . . فالسلام مع إسرائيل هو حجر الأساس إلى السلام الشامل . ونموذج للسلام بينها وبين البلاد العربية . أطراف النزاع . أو السلام العربى الإسرائيلى هو صورة مثالية لكل الشعوب المتنازعة . ولا توجد فى العالم دولتان متجاورتان ليست بينهما مشكلة حدود . بما فى ذلك أمريكا وكندا . وروسيا والصين . وأوروبا الشرقية وأوروبا الغربية . وكل الدول الأفريقية !

ولا أستطيع أن أجرد الشعوب من تجاربها الطويلة . تجارب الفشل والمرارة وسوء الظن . ولا أستطيع إكراه الشعوب على أن تخالف طبيعتها . ولذلك فأنا لا أتعجل العلاقات الطبيعية . ولكنى أمهد لها الطريق . وأعلق على جوانبها مصابيح الأمل

والأمـان . وأترك للناس أن ترى أوضح وتسـمع أعـمق . والزمن كـفـيل بعـلاج كل أمراض الشعوب والحرب من أخطر أمراض الإنسانية !

والذى أسـمعـه من الإسـرائيليين الذين جـاءوا إلى مصـر . وكيف اسـتـقبلهم المصريون بهذه الطيبة والسماحة والأصالة . أكبر دليل تلقائى على أننا نعيش عصرا جديدا . أردناه فكان لنا .

سيادة الرئيس:

إن بعض الإسرائيليين الذين جاءوا إلى القاهرة أدهشتهم هذه الطيبة والسماحة فى لقائهم . وتحيروا فى أمرها . . حتى إن واحدا منهم تساءل : إما أن هذا الشعب المصرى لم يكن عدوا لإسرائيل فى يوم من الأيام ، لأننى لا أجد تفسيرا لهذه الرقة فى المعـاملة من كل الناس . وإمـا أن يكون المصـريون قـد صـدرت إليـهم تعليـمـات مشددة بأن يكونوا كذلك ، فأطاعوها طاعة عميـاء . . وإما احتمـال ثالث هو أننا لا نفهم المصريين . انتهى كلامه . . ألا ترى سيادة الرئيس أن هذا التصور . وهو واحد من أمـثـلة كـثـيـرة ، تـدل علـى أنـه لا يزال هناك وقـت طويل جـدا لكـى نفـهـم إسرائيل وتـفهمنا . وأننـا لذلك يجـب ألا ندفع الناس دفعا إلى تطبيع العلاقات مع إسرائيل ؟ .

أجاب:

أذكـرك بما قـالتـه صـحـفـيـة إسـرائيليـة فى المؤتمر الصـحـفى الذى انعـقـد فى الإسـماعيلية . سألتنى وكان سؤالها قريبا من هذا المعنى الذى نستدله الآن . .

قـالت : كيف نضمن أن الشـعب المصرى الذى اندفع بهذه الصور القوية مؤيدا للسلام . لا يندفع بنفس القوة داعيا إلى الحرب ؟ . . وتساءلت إن كـان هذا التعبير الهـائل فى سلوك المصريين جـاء نتيجـة أننى ضغطت على زرار فـاندفـعت الملايين تهتف بالسـلام . . وهى تخشى أن أعود فأضـغط على زرار آخر فتتعـالى صيحات الحرب ضد إسرائيل ؟

وأنا لا ألومـهـا على هذا التـصـور الخـاطىء . فـهى لا تعـرف مـصـر ولا تعـرف المصريين . ولكن يجب ألا نقف عند هذا الفهم الخاطىءللأمور ، إنما لابد أن نتعاون جميـعـا على أن نزيل سـوء الفـهم وسـوء الظن . فـقـد عـانينا منه الكـثيـر . وليـست الحروب إلا تراكمات من سوء الظن وسوء الفهم .

والتجربة اليومية هى خير علاج لذلك كله . . فعن طريق الاتصال المباشر اليومى الحر سوف تتخذ الأشكال والعلاقات والأشخاص حجمها ووزنها الطبيعى . ولن تكون هذه الخشية وهذا الخوف . . ولابد أن نجد لإسرائيل عذرها فى هذا الخوف التاريخى . . فهى لم تتعامل مع دولة عربية بهذا الاحترام المتبادل . وقد عانت إسرائيل فى تعاملها مع العرب وغيرهم . ونحن مختلفون . وهم يتشككون فى هذه الحقيقة . ونحن مطالبون بأن نؤكد لهم دائما اننا نعنى ما نقول . وفى ذلك راحة لنا ولهم .

وهذا هو الذى جعلنى أعلن فى الكنيست أن الذى بيننا هو «حاجز نفسى» وأن هذا الحاجز لا يمكن هدمه فى يوم ، ولا يمكن اختراقه فى ليلة . . ولا عند كل الناس بنفس الدرجة . .

وقد رأينا السيدة جيئولا كوهين فى الكنيست تمزق اتفاقية السلام . وتبكى على ضياع أرض إسرائيل - أى على أن بيجين قد أضاعها . وكونت لها حزبا ، أى أن هناك من يرون هذا الرأى . ورأينا «جماعة السلام الآن» . وقد التقيت بهم وناقشتهم . وهم شبان صادقون فى حبهم للسلام ، وسوف يكون لهم حزب . .

ولا بد أن يكون بيننا أيضا من يخاف السلام . . ويتوهم التغلغل الإسرائيلى إلى جميع مرافق الحياة فى مصر . فنمسى ونصبح وقد احتل رجال أعمال إسرائيل مصر كلها ؟! وهذه مبالغات وتهويلات مصدرها : أننا لا ننظر إلى الواقع الجديد بموضوعية . وهذا الخوف يجعلنا بدلا من أن نهدم الحاجز النفسى بين مصر وإسرائيل ، فإننا نبنى حول مصر كلها حوائط حواجز لوقايتنا من احتلال إسرائيلى جديد . . ونسينا ونحن نستسلم لهذه المخاوف أن أحدا لم يستطع ولن يستطيع أن يفرض علينا مالا نريد . . وأن كل الدول الأكبر من إسرائيل والتى تربطنا علاقات قديمة . لم تفعل ذلك فى عشرات السنين . . فكيف تستطيع إسرائيل أن تفعل ذلك فى عشرات الساعات أو الأيام . . وكيف تتخطى إسرائيل كل مؤسساتنا لتحقق ما تريد ونحن نيام . . إن مجرد هذا التفكير فيه إهانة لأنفسنا ، وفيه ترديد لروح الهزيمة التى جاءت بعد حرب ٦٧ . وأعتقد أن حرب ٧٣ قد شفت نفوسنا من هذا الخوف الذى كان مرضا طويلا استراح إليه عدد قليل من المثقفين المصريين . . وحاولوا أن يجعلوه مرضا قوميا متواطنا . فنستسلم للواقع . . ولذلك يجب أن نتنبه إلى أننا اجتزنا هذا المرض ودور النقاهة . ونحن الآن فى صحة وعافية .

وتطبيع العلاقات بين مصر وإسرائيل هو الأسلوب الصحى للسلام ، لكى نتجه إلى بناء مصر التى تهدمت علينا . . ومن الغريب أن يكون شعور بعض المصريين أننا نتعجل التطبيع . والحقيقة أن الإسرائيليين هم الذين يتعجلون ذلك . ولذلك فهم يتزاحمون على السفر إلى مصر والأقصر وأسوان . . إنهم يريدون أن يروا وأن يعرفوا مصر وأن يتعرفوا على فئات الشعب المصرى . .

وهم يفسرون ذلك بأنهم لا «يضمنون» المستقبل . . ولهذا يجب أن ينتهزوا هذه الفرصة . . هم الذين يتعجلون . وهم الذين يندفعون ويتدافعون . . ويدهشهم جدا أننا لا نفعل ذلك . . وبعضهم يتصور أننا لا نهتم بالتطبيع مثلهم . . وأن الأمر لا يعنينا بنفس الدرجة . .

وهذا الفهم استمرار فى عدم الإدراك الصحيح لمشاعرنا . وهذا أكبر دليل على أننا مختلفون فى النظر إلى الأشياء ، فليس ميزة أنهم هكذا مندفعون ، وليس عيبا فينا أننا هكذا راسخون . . إنما يجب أن نضع خطا فاصلاً للمزاج المصرى والمزاج الإسرائيلى . . وإيقاع الحياة عندهم وإيقاع الحياة عندنا . . إننا مختلفون . وسوف نبقى كذلك ، ولا أحد يريد أن يغير الآخر . إنما فقط أن يعرفه كما هو ، وأن يحترم مشاعره .

وليس هذا حال السياح العاديين . بل الزعماء الإسرائيليون فى دهشة من ذلك . ولا يريحهم إلا أن يتأكدوا بأنفسهم . .

فقد رأينا سفيرهم بن اليسار عندما خرج من المعبد اليهودى فى شارع عدلى . نزل إلى الناس ليلمسهم بنفسه . . أيديهم وأجسادهم ، ويسمعهم يهتفون للسلام . .

وموشى ديان عندما ذهب إلى خان الخليلى ، فقد أذهله أن يكون بين مئات المدنيين الذين يعرفون من هو ، فلم يجد إلا حفاوة بالسلام وإيمانا به . .

حتى بيجين حاول أن يهبط من السيارة فى الإسكندرية ليلتحم بالناس ، لنفس السبب . .

وكذلك فعل شارون فى الإسكندرية . .

وعيرز فايتسمان وزوجته يترددان بانتظام على محلات الحلوى التى يملكها الفلسطينيون فى القاهرة . .

وكثير من السياح الإسرائيليين حريصون على أن يفاجئوا المصريين بكلمة

شالوم . . أى ليعلنوا من أول لحظة أنهم إسرائيليون ، ليروا ماذا يحدث على وجوه المصريين وفى عيونهم . . فلم يروا إلا السماحة والسلام . .

وعندما جاء وفد حزب المابام قالت عدنا شرير المتحدثة باسم الحزب ، وهى مصرية الأصل ، إن أول شيء لفت نظرها فى مصر هو اختفاء المصابين بالرمد . . وهو معنى لم يخطر على بال أحد . . ولكنها عندما تركت مصر من ثلاثين عاما ، كان الرمد منتشرا . وعندما ذهبت إلى مصانع المحلة الكبرى ، لم تجد فى الطريق الزراعى لا الساقية ولا الشادوف ولا الطنبور . . ثم إن مصانع المحلة الكبرى هى أحدث ما يعرف العالم من أجهزة للغزل والنسيج . .

أو ما حدث لأحد الكتاب الإسرائيليين عندما وقف على كوبرى أكتوبر ونظر إلى النيل فوجد ورقة على سطح الماء . . هذه الورقة حددت له سرعة الماء ، وكان ماء النيل بطيئا ، فقال إنه يكاد يختنق . لأنه اعتاد على السرعة ، ولكن هذا الهدوء قاتل . . أي قاتل لما اعتاد عليهم من عادات !

وغير ذلك لابد أنهم رأوه وسمعوه فى مصر .

أو المصريون الذين ذهبوا إلى إسرائيل قد بهرتهم المزارع الصغيرة والمسافات القصيرة بين المدن . . والجو الأوروبى . وتنوع معالم الوجوه بين أوروبية وآسيوية وأفريقية . . أو الذين ساروا فى شوارع تل أبيب وحيفا ، فلم يجدوا شيئا باهرا . . والسؤال : ما الذى كان يتوقع أن يراه المصريون ؟ وما اسم المنظار الذى وضعوه على أعينهم ليروا به إسرائيل ؟! .

إنه نفس المنظار الذى وضعه الإسرائيليون على عيونهم أيضا : إنه الدهشة والخوف .

وكل ما نحتاج إليه الآن ، نحن وهم أيضا ، هو أن «نضبط فتحة العدسة» – تماما كما يفعل المصورون قبل التقاط صورهم . . وهذه عملية دقيقة فنية . . ولكنها فى نفس الوقت ليست صعبة . إنما تقوم بها الشعوب من تلقاء نفسها . . ومن واقع تجربتها . . وبإحساسها الصادق . .

فهذه العلاقات الطبيعية بين الرسميين من البلدين لا تحتاج إلى مجهود كبير . وليس من الممكن أن يكون كل إسرائيلى صديقا لكل مصرى ، أو العكس . . ولكن

يجب أن نهيىء الجو العام أو المناخ المناسب للعمل المشترك من أجل صالح البلدين . وكل شىء يبدأ وينتهى بمصالحنا . وبكامل إرادتنا . .

وإذا كان عدد من السياسيين أو أساتذة الجامعات أو المفكرين من البلدين قد التقوا ليتفاهموا لأن بينهم لغة مشتركة ، ثم كتبوا هنا وهناك ، فإن الشعب سوف يكون أبسط وأعمق فى تعامله . لأن تعامل الشعوب مباشر . وتعامل المثقفين من خلال مذاهب ومناهج . .

وقد رأيت فى أفلام الحرب العالمية الثانية كيف إن بعض الجرحى والأسرى والمقاتلين تجمعهم الظروف الصعبة معا . فيرفع الواحد منهم الضمادة من فوق عينيه ، ويرتسم الذعر على وجهه . . لأنه قد وجد نفسه فى معسكر الأعداء ، وفجأة تمتد الأيدى وتتسع الابتسامة . . إنهم جميعا بشر . . وإنهم كارهون للحرب والدمار . . وتنتهى الأفلام الحربية هذه النهاية السعيدة . وهى نهاية سهلة سينمائيا ، ولكنها فى الواقع صعبة . . فنحن لم نستطع أن نحقق الابتسامات العريضة فى القدس والقاهرة والإسكندرية وحيفا إلا بالحرب ، ثم بمفاوضات السلام والصدق والحرص عليه ، والتضحية من أجل الهدف الأكبر وهو السلام .

ومن أجل «ضبط إيقاع» تطبيع العلاقات دعوتكم من أيام . فقد كان هدفى ولايزال هو أن أعطى «النبرة الصحيحة» أو «الطبقة الصوتية» المناسبة ، فلا تنتقل إلينا عدوى الخائفين حولنا ، أو حتى الخائفين فى إسرائيل أو فى مصر .

ويجب ألا نخلط بين العلاقات المثالية بين الشعوب ، أو حتى بين الأفراد ، وبين العلاقات الطبيعية . فمن الطبيعى أن يختلف الناس والدول . ومن الطبيعى أن تكون العلاقات ودية وأن تكون فاترة . وأن تميل من المصلحة ، وأن تبتعد عند الضرر . . فليست إسرائيل بيننا إلا واحدة من الدول . ولكن اكتسبت وضعها الخاص بسبب هذه العلاقات الجديدة بيننا ، ولهذه الحساسيات الشديدة فى كل شىء – وهم أشد حساسية منا فى كثير من القضايا .

ويجب أن ننظر إلى العلاقات الدولية ، على ضوء مصالحنا ، كما ينظرون إلى سفن الفضاء التى يصححون مسارها من حين إلى حين ، حتى لا تضيع فى الفضاء بعيدا عن الهدف وتصحيح المسار أو التصحيح هو من أهم معالم أسلوبى فى الفكر والقرار . بل إن الذى أدعى أننى حققته لبلدى لم يكن تصحيحا فقط ، إنما هو

تصحيح مستمر أدى إلى ابتداع واقع متجدد هز وجدان العالم كله - وليس هذا رأيى ، إنما أنقله عن ألوف المؤرخين والمفكرين وأساتذة الجامعات .

وتحضرنى صورة بريئة رسمها طفل إسرائيلى بعد مبادرة السلام . ولا أعرف كيف استطاع هذا الطفل الصغير أن يلمس هذه المعانى بصدق ، رغم ضيق الوقت . . رسم أحد الفراعنة يركب حصاناً . . ثم أحد الفراعنة يركب سيارة . ثم ثالث يركب طيارة . . وصورتى أركب صاروخا وأهبط به فوق القمر رافعا علما مكتوبة عليه كلمة السلام . . إن الواقع التاريخى أقرب إلى خيال هذا الطفل المرهف الإحساس . . فما حدث هو مراحل من التاريخ ينسخ بعضها بعضا . . أو يصحح بعضها البعض ، ليرتفع لواء السلام !

سيادة الرئيس:

بسبب كثرة الأحزاب السياسية فى إسرائيل والمذاهب الدينية ، كانت الخلافات بينها شديدة وفى كثير من الأحيان لا يستطيع المواطن المصرى البسيط أو حتى المثقف أن يتابع ما تنشره الصحف أو الإذاعة . . وأقرب المعانى إلى ذهنه : أنهم يمثلون علينا ، أو أنهم يوزعون أدوار المسرحية ليضللونا فلا ندرى أيهم الحكومة وأيهم المعارضة وأيهم معنا وأيهم ضدنا . . أو من هؤلاء الذين نفاوضهم ؟ . . ويصعب على المواطنين فهم علو النبرة فى التصريحات الرسمية المصرية ردا على المواقف الإسرائيلية من بناء المستوطنات أو الحكم من بناء المستوطنات أو الحكم الذاتى أو القدس . . ونحتار فى الفهم ، ونعجز عن فهم القرار . .

أجاب:

إننا ندور معا حول معنى واحد ، هو ضرورة الاقتراب أكثر لنرى أوضح . ولن يجىء هذا إلا بأن نقرر ابتداء : أن الاقتراب ضرورة ، وأن الأمان أسلوب ، وأن الهدف هو السلام وأن نقوم بما هو طبيعى بصورة طبيعية - وهى عبارة كنت قد احتفظت بها منذ أيام السجن لبرناردشو . .

أما الخلافات الحزبية والدينية فى إسرائيل ، فهذا شأنهم . ولا دخل لنا فى ذلك . ولكن واجبنا هو أن نعرف وأن نتابع . . وكما أن لديهم أحزابهم ، فعندهم أيضا أساليبهم فى الحكم . ونحن لا نريد أن نحمل عنهم همومهم . إنما فقط هو أن نتواصى بالصبر عليهم ، وأن نجد لهم العذر أو المبرر أحيانا . فالتركيبة الاجتماعية

والسياسية والعنصرية فى إسرائيل شديدة التعقيد . ومن منطلق هذا الفهم . يجب أن ننظر إليهم .

ولكن مهما اختلفوا فإن القضية التى أمامنا واحدة : أننا اتفقنا على أن يكون بيننا سلام ، وعلى نسق السلام مع مصر يكون السلام مع الدول العربية .

والذى يتابع الصحف الإسرائيلية أو جلسات الكنيست يجد أن أصواتا كثيرة تقول : إننا أعطينا المصريين ، وهم لم يعطونا شيئا . إننا أعطيناهم سيناء والقناة والآبار والمضايق والمناجم ، فما الذى أخذناه فى مقابل ذلك ؟ .

ويمكن الرد على ذلك بأن تقول : إنهم لم يعطونا إلا أرضنا . . أى أن مصر استردت الأرض التى احتلتها إسرائيل .

ولكن يجب أن نتصور أنه كان من الممكن أن تظل هذه الأرض تحت الاحتلال الإسرائيلى مائة سنة أخرى إذا لم ننتصر فى أكتوبر ، وإذا لم نتفق على السلام . فكأننا أخذنا منهم ما كانوا يودون أن يحتفظوا به من أرض وثروات مصرية ، وأن يشاركونا بعد ذلك فى قناة السويس – هذا إذا أردنا أن نعيد إليها الملاحة الدولية ! .

وربما كان ذلك هو التفسير المعقول لصراخ المجندات الإسرائيليات عند نزول العلم الإسرائيلى . . إنهن وملايين آخرين يشعرون بأن العلم الإسرائيلى ينزل ، وأنهم يتراجعون إلى الوراء . . ثم أنهم ليسوا على يقين مما سوف يحدث بعد ذلك . فالخوف موجود وسوء الظن موجود .

وأنا أفهم صراخ المجندات الإسرائيليات عند ارتفاع العلم المصرى ، تماماً كصراخ الفلسطينيات عند ارتفاع العلم الإسرائيلى فى القاهرة . فالمعنى واحد : أن مصر تتقدم فى سيناء وإسرائيل تتراجع . ثم أن إسرائيل تتقدم إلى قلب مصر .

ولابد أن الإسرائيليين قد بكوا قبل ذلك عندما ارتفع العلم المصرى على خط بارليف . .

وأن الروس قد بكوا أيضا عندما وضع الأمريكان أول علم لهم على سطح القمر . .

إننى أجد كل ذلك رد فعل منطقيا . ولكن يجب ألا يفوتنا ذلك دون مناقشة ، وهى أن عملية السلام شاقة . . وأنها تلقى مقاومة . . ولكن الشىء المؤكد أنها تتقدم ، وأننا يجب ألا نقع فى غلطة أن السلام قادر على حماية نفسه ، وأنه مثل

كرة الجليد كلما تدحرجت ازداد حجمها . هذا التشبيه يوضح المعنى ، ولكنه فى نفس الوقت يجرده من عناصره الضرورية للبقاء . وهى أن السلام عمل مستمر ، وإذا لم ندفعه فى الطريق الصحيح ونستمر على ذلك ، تجمد وأصبح جموده فشلا ويأسا ونكسة . .

ولا تزال العبارة التى قالها نابليون للقيصر الروسى الكسندر فى مدينة تلست سنة ١٨٠٧ صحيحة . . قال له : إذا أردنا السلام فلابد أن نتوقف عن استخدام الوخز بالإبر الذى يسبق الحرب .

أى أن الحرب تبدأ من أشياء صغيرة موجعة ، ثم تتعاظم تلقائيا لتكون حتمية فى النهاية ! ونحن يجب ألا نستسلم للأخطاء أو الانفعالات العابرة ، وأن نرى أنه من الضرورى أن تكون هناك أعلام عالية . . أن يكون ذلك إعلاناً لاحترامنا بعضنا البعض وأن يكون ذلك اعترافاً بحقوقنا التى اتفقنا على التمسك بها . .

سيادة الرئيس:

على الرغم من أنك كررت كثيرا أن حرب أكتوبر هى نهاية الحروب . أو تتمنى أن تصبح كذلك ، فإن الدولتين مصر وإسرائيل تتسابقان فى التسلح من أمريكا ومن غيرها . . ومعنى ذلك أن الأموال التى ننفقها على التسليح ، لم تتجه إلى أغراض أخرى . . فكيف يتفق سلام مع هذا الاستعداد ؟

ولو كان ذلك شيئا مقبولا أو متوقعاً أو مسَلماً به ، ما احتجت إسرائيل على تسليح مصر ، ولما بلغنا فى نشر صفقة الأسلحة مع الصين . . ألا يدل ذلك على أن الخوف من وقوع حرب مع مصر لا يزال قائما فى إسرائيل . . وأن العبارة التى تقول : لا سلام إلا فى ظل الحرب ، لا تزال تصدق على مصر وإسرائيل ؟

أجاب:

كنت أتصور أننى سوف أنهى حياتى السياسية بانتصارات أكتوبر . . وما حققته لمصر وللأمة العربية من مجد عظيم . . ولو عدت بذاكرتى إلى ما حققته لبلدى ، فإننى أشعر بمنتهى السعادة . ولكن الجمود الذى أصاب الموقف والحياة والفكر بعد ذلك ، هو الذى أثارنى وحفزنى إلى أن أكمل ما بدأت .

ولما كانت مصر الغد هى الموجودة اليوم ، فأملى عظيم فى أن أجعل جيل أكتوبر هذا هو جيل السلام ، ليس بين مصر وإسرائيل وحدهما ولكن بين إسرائيل والعرب ، وبين العرب والعرب أيضا . .

ثم ألف باء العسكرية أن تكون على استعداد دائما . فالسلام يتم مع الاستعداد لكل ما يمكن أن يقضى عليه . . فلا أحد يدرى ما الذى يخبئه المستقبل . وأنت ترى المنطقة العربية والشرق الأوسط كله يحترق . وليس من الضرورى أن يكون استعداد مصر عسكريا من أجل الدفاع عن نفسها فقط ، بل ربما احتجنا إلى ذلك دفاعاً عن الأشقاء العرب أيضا . فهذا واجب مصر فى كل العصور . .

ومن الطبيعى ، مع التوتر العام المستمر فى إسرائيل ، أن يكون الفكر صارخا والانفعال ملتهبا . . وكذلك فى الهيئات اليهودية فى أمريكا . . وفى داخل كواليس الكونجرس أيضا . . وهذا يجب أن نتوقعه . فإذا حدث يجب ألا نندهش له ، لأننا قد عرفنا المزاج العام فى الفكر السياسى والعسكرى فى إسرائيل . .

وسوف تبقى هذه الحساسية . وكل ما نستطيع نحن أن نعمله هو أن نتفادى أن تنتقل إلينا . .

وليس غضب إسرائيل على ماجاء على لسان حسن التهامى فى صحف الكويت ، إلا نوعا من ذلك . . فحسن التهامى قد تناول إسرائيل بغضب وعنف . وعلى الرغم من أنه يعبر عن رأيه الشخصى ، فقد سألته عن تفاصيل ما نشره فى بلد اتخذ لنفسه شعارا هو التشهير بمصر . وقد أنكر حسن التهامى كل «التأويلات» التى فهمها الإسرائيليون ، وسوف يكتب لى توضيحا لذلك .

والذى ألاحظه على الإسرائيليين من انفعال ، أعيبه على المصريين أيضا . فنحن منفعلون ، وأحيانا عصبيون عند معالجة قضايانا الداخلية وينسى الصحفى المصرى ، وقد كنت صحفيا ، أن الذى يكتبه يسلم به القارىء . إن لم يسلم به كله فهو يصدق معظمه . فإذا كان الصحفيون يبالغون فى حجم القضايا والمشاكل ويثيرون الناس ، فمن الذى يوجه الناس ويشرح لهم ويخفف عنهم ؟ إذا كان الطبيب مريضا ، فمن الذى يعالج الطبيب نفسه ؟ .

مثلا : لقد تناقشت مع كثيرين عن حال الشباب فى الجامعات . واختلفت معهم لأننى أعطى لهذا الشباب الحق والعذر فى كثير من تصوراته وسلوكه . إننا

نخطىء كثيرا جدا إذا تصورنا أنه من السهل على أى شاب أن يكون معتدلا . . فالاعتدال لا يجىء إلا فى مرحلة متأخرة من العمر . أما الشباب ، وقد كنت شابا ، وأعرف ذلك جيدا ، فهو ملىء بالحيوية . . مندفع . حساس متطرف . وبهذا التطرف يريد أن يؤكد ذاته ، ويجد أن مقاومته هى اعتداء على ذاته ، وبسبب ثقته الشديدة بنفسه يرى أنه هو على صواب وأن غيره خطأ . وقد يكون هذا الغير هو الأب أو المدرس أو رجل القانون أو رجل السلطة أو رجل الدين . وليس فى كل ذلك أى عيب ، لأن العيب يتعلق بالسلوك . أما ما يتعلق بطبيعة الإنسان فيجب أن يلقى الاحترام وحسن التقدير . فما الذى أفزع الناس من شباب مصر ؟ .

إنهم مواطنون متعلمون ، كل واحد له مشاكله الاجتماعية والنفسية والمادية . . ومن الطبيعى أن يتوجع وأن يشكو . وقد واجهت الشباب قبل ذلك وتحدثت إليهم ، وازددت اطمئنانا عليهم ، أى على مستقبل مصر . . لأنهم مستقبل مصر . وهم لذلك أمانة فى عنقى .

إن بلدنا كما قلت كثيرا بلد مؤمن . فالدين عميق فى نفوسنا ، والإسلام رحمة وتسامح وسلام . ولذلك اتخذ الشبان السلوك الدينى أسلوبا فى التعبير عن متاعبهم . ولقد أحسنوا الاختيار . ويجب أن ننظر إليهم من خلال نظرتهم هم . . أى من خلال الإسلام الحنيف .

وأنا أختلف مع الذين ينظرون إلى الشبان كأنهم كائنات غريبة شاذة . فالذى نراه ليس شاذا ، إنما هو نوع من تأكيد الذات والاستقلال بالرأى والفكر . كلنا جربنا . فإن وجدنا شيئا غريبا عن المألوف يجب أن نتعاون على فهمه والاقتراب منه . وإن وجدنا شيئا منحرفا فالمجتمع نفسه والدولة بمؤسساتها كفيلة بصيانة الشعب . .

ولكنى كأب وكمسئول عن ملايين الشباب ، أبادر بالبحث عن عذر ، وقبول الحوار . . ولست أضيف جديدا إذا قلت : إن مناجم مصر وآبارها وتربتها وعزتها وغطاءها الذهبى لكل معاملاتها هى : هؤلاء الشبان .

ولا أجد فى هؤلاء الرجال من يرفع يده فى وجه مصر ، ولا من يلقى عليها الوحل ، ولا من يبيعها لمن يدفع أكثر ، يفعل هؤلاء المحترفون الخونة من الرجال الناضجين خارج مصر والقلة الهزيلة فى الداخل هؤلاء الذين لم يعرفوا العيب . ولو عرفوه ما احتجت إلى أن أعد لهم قانونا سوف أعرضه على الهيئة البرلمانية يوم ٢ مارس قبل تقديمه لمجلس الوزراء . .

ومن الغريب حقا أن قانون العيب هذا قد كشف عيبا آخر فى هيئات تتمتع بعظيم الاحترام . . رغم أن القانون الذى نوقش فى هيئات محترمة لم يكن إلا إحدى «المسودات» وقد تسربت إليهم . . فكانت مناقشتها العاجلة خطأ مضاعفا واستعجالا للأمور . .

وكل ذلك قد وقع من رجال بالغين ناضجين . .

أما شباب مصر فهم فى القلب وعلى الرأس والعين من شعبهم العظيم .

سيادة الرئيس:

هل مفاوضات الحكم الذاتى بين مصر وإسرائيل وأمريكا قد تجمدت عند منولوجات طويلة بين جميع الأطراف ، دون أن يتقدم أحد بشىء ، حتى أصبح لا مفر من قمة ثلاثية . . ويقال فى سبب ذلك إن الخلافات فى هذه المفاوضات اتخذت شكلا «لغويا» . .

فالمصريون يرون أن إسرائيل تعطل كل شىء . والإسرائيليون يرون أن شيئا قد طرأ على سلوك مصر بعد انسحاب العريش – رأس محمد ، وأن هذا السلوك المصرى المتشدد كان متوقعا ؟ . .

أجاب:

أضيف هذا أيضا إلى سوء الظن ، وإلى أن التطبيع على أعلى المستويات لم يتحقق بعد . . وقد سمعت كثيرا من قبل وقرأت . بل حدثنى زعماء إسرائيليون بأنهم يتوقعون أن تتوقف مصر عن المطالبة بالحكم الذاتى بعد انسحاب إسرائيل إلى ما وراء خط العريش – رأس محمد . .

وبعبارة أخرى : إن الحكم الذاتى والقدس تكتيك مصرى وليس استراتيجية مصرية . . أى أننا نطالب بهذا كله إلى أن تنسحب إسرائيل ، وبعد ذلك نرفع أيدينا . وأنا لا أفهم أن يقول الفلسطينيون ذلك أو العرب عموما . لأن معنى ذلك أن اتفاق السلام مع إسرائيل هو حل منفرد . وهذه نغمة كريهة قبيحة . لابد أن نكون قد مللناها جميعا . حتى العرب ملوها ، فقد ثبت لهم عكس ذلك . فمازلنا نطالب بالحكم الذاتى ، وما زلنا نطالب بانحسار الاحتلال العسكرى .

وقد تناقشت مع مناحم بيجين فى الإسماعيلية وحيفا والإسكندرية وأسوان فى كيفية إجراء الانتخابات فى الضفة الغربية وغزة .

وقضية القدس ناقشناها فى كامب دافيد . واعترضت على الطريقة التى وردت بها القدس . وقلت لكارتر : إن صياغتها ضعيفة جدا .

والإسرائيليون هم أيضا لا يصدقون ، أو لا يريدون ، وهذا أفضل لهم طبعا ، إن الحكم الذاتى والقدس هدف قومى . وإننى أعلنت ذلك دائما ، فى مصر وفى إسرائيل وفى أمريكا وفى كل مناسبة دولية . وسوف أمضى فى ذلك مهما كلفنى من عناء .

وقد سألنى بيجين فى كامب دافيد : إذا كان الفلسطينيون لم يفوضوك فى الحديث عنهم ، فلماذا تعذب نفسك معهم . . نحن نعرفهم أكثر منكم ! .

ولكن تحرير الضفة الغربية بما فيها القدس حتى يكون أمرها بيدها ، خط قومى ، قرره الشعب المصرى ، وهو جاد فى تحقيقه .

سيادة الرئيس:

شكراً على هذا الجهد العقلى الهائل من أجل توضيح كلمة واحدة هى «التطبيع» الذى سوف يكون سلوكا عاديا بين الناس بالتدريج دون حاجة إلى مناقشات لغوية أو فلسفية . .

أجاب:

أظنه شكسبير هو الذى تساءل يوماً : وماذا فى كلمة ؟ ولو عاش شكسبير فى عصرنا لوجدنا أن فى كلمة واحدة الشىء الكثير . . ولو عاش معنا فى كامب دافيد لوجد أن فى «الحرف» الواحد الشىء الكثير من العذاب والعناء وتغيير مسيرة الشعوب . .

ولا أزال أذكر حديثا معك فى مجلة «أكتوبر» قد نشرته الصحف اليومية فى نفس الوقت . . وجاءت فيه كلمة واحدة أشعلت النار فى إسرائيل ، حتى بيجين نفسه سمعت أنه قال عنى : إننى نيرون . . ذلك الإمبراطور الرومانى الذى أحرق روما وهو يغنى ! .

فقد كنت أتحدث عن المطارات الإسرائيلية فى سيناء وقلت : إننى لست فى حاجة إليها . . «فليحرثها» اليهود ! .

ونشرت إحدى الصحف هذه العبارة هكذا : فليحرقها اليهود . .

وفزع الرأى العام الشعبى والرسمى والصحفى والسياسى فى إسرائيل من استخدام كلمة الحرق - وليس الحرث ! .

ولهم العذر فى ذلك . . فتاريخ إحراق اليهود بالجملة فى أفران بوخنفالد وداخاو وأوشفتس : حية فى كتهبم وأفلامهم وبكائهم . .

ولا أستطيع أن أطالب كل الشعب الإسرائيلى بأن يتعلم العربية ، وأن يقارن بين ما جاء فى مجلة «أكتوبر» وما نشر فى الصحف الأخرى . .

إن الجو العام فى إسرائيل مشحون بكل المعانى والمخاوف التى تحدثت إليك عنها .

ولكن مع حسن النية وصدق العزم ، والتفاهم والتقارب ، تعتدل المقاييس فى أيدينا . .

وأظن أننى سوف أقول شيئا من ذلك بعد قبول أوراق اعتماد سفير إسرائيل فى القاهرة . .

* * *

في حديث مع الرئيس مبارك

أنا مستعد للذهاب إلى أية عاصمة عربية إذا........

لا توجد اتصالات سرية مع أية دولة عربية، وإذا حدثت فسوف أعلنها..

الأمريكان أحسوا بغلطتهم ولذلك فهم يصلحون توربينات السد العالى.

سيادة الرئيس:

بعض المشتغلين بعلم النفس السياسى لهم ملاحظات على الزعيم الراحل فى أيامه الأخيرة . فقد رأوا أنه كان عصبيا جدا فى المؤتمرات الصحفية وفى اللقاءات الشعبية . ويرون أن هذه الحالة العصبية قد أرهقته بصورة واضحة . وأن من مظاهر الإرهاق أنه لم يعبأ كثيرا بالتحذيرات التى وجهت إليه من أن هناك خطرا على حياته . ويقال إن هذه التحذيرات كانت تتعلق بالأيام السابقة على العرض العسكرى وبالعرض العسكرى نفسه . ولذلك - فى رأيهم - فإن الزعيم الراحل بدلا من أن يبعد عن الخطر فإنه اقترب منه أكثر . . ويضربون لذلك مثلا ما يحدث لنا عادة عندما نفاجأ بسيارة مسرعة ، فإننا بدلا من أن نبعد عنها فإننا نلقى بأنفسنا عليها . .

فأجاب:

إننى لم ألاحظ ذلك . فقد كنت مع الزعيم الراحل طول الوقت . وكان هادئا فى كل شىء . ولهذا فإننى أرى أن هؤلاء المحللين قد ذهبوا بعيدا . . بعيدا عن حقيقة الرجل يرحمه الله . .

سيادة الرئيس:

هل ترى أن الأحداث الأخيرة التى جاءت بعد اغتيال الزعيم الراحل أصبحت معروفة المقدمات ؟ . . أى هل لها علاقة بما كنا نسميه بالفتنة الطائفية أو الفتنة الدينية أو الجماعات الدينية المتطرفة أو الجماعات المتطرفة . . أو الجماعات الإرهابية ؟ . . هل ترى أن ظواهر العنف هذه قد لقيت منا ما تستحقه من الدراسة والتحليل ، حتى نعرف أسبابها ونتوقع نتائجها . وبذلك نتفادى وقوعها ، وإذا وقعت نتفادى تعاظمها أيضاً ؟ . .

فأجاب:

لا أريد أن أتناول هذه القضية الخطيرة . فالتحقيق لايزال مستمرا . ولا أريد أن أدلى بأى تعليقات أو تفصيلات عن الذى حدث . حتى لا يؤدى ذلك إلى الإضرار بالصالح العام . لأن هذه القضية هى من صميم أمن هذا البلد . وعندما ينتهى التحقيق ويصبح كل شيء واضحاً تماما ، سوف نعلن ذلك على الشعب . ومن حق كل إنسان أن يعرف ، ومن واجب المتخصصين أن يدرسوا ويحللوا لنعرف أين يكمن الداء وأين يكون الدواء . ولذلك أرى أن أية إشارة أو اجتهاد في التفسير والتبرير سابق لأوانه . فلننتظر لنرى . ولن يطول بنا الانتظار . .

سيادة الرئيس:

ألم يثبت بعد ، إن كان هذا الذى حدث يوم ٦ أكتوبر وبعد ذلك . . تفكيرا خارجيا وتدبيرا مصريا . . أو هل كان كله تفكيرا وتدبيرا مصريَين ؟ . . ثم ما هو الفرق بين الحالتين ؟ . .

أجاب:

لا أستطيع أن أقطع بشيء الآن . لابد أن ننتظر نتائج التحقيق . لكن يمكن أن أقول إنه إذا كان التفكير أجنبيا ، فمعناه أن جهات خارجية لها أهداف داخلية . . أما إذا كان مصريا من أوله لآخره ، فواجبنا أن نعرف الأسباب . فإذا اهتدينا إليها فلن نخفى شيئا عن الشعب . .

سيادة الرئيس:

لقد أعلن الزعيم الراحل أنه لا مانع عنده من أن يقوم بمبادرة أخرى ، فيستقل طائرته ويهبط بها فى الرياض ليشرح للأمراء السعوديين ما حدث فى القضية

العربية ، واشترط لذلك أن يجد أحدا إذا فهم القضية اتخذ فيها قرارا . وهو لم يذهب لأنه لم يجد هذا الأحد من القادة السعوديين . فهل ترى أنت ما كان يراه الزعيم الراحل ؟ . .

أجاب:

إنها فكرة جيدة . وفكرة سليمة تماما . ولكنى لا أريد أن أخلق للسعودية أو لغيرها مشاكل سياسية . فقد يكون السعوديون غير مستعدين لمثل هذه الخطوة . ولكنى على استعداد لأن أذهب إلى السعودية أو إلى أية دولة عربية أخرى لشرح القضية وحسم النزاع الذى بيننا ، إذا وجدت وقتا مناسبا لذلك . .

سيادة الرئيس:

إن بعض الدول رفضت مشروع الأمير فهد ، أو النقط التى عرضها حلاً للقضية الفلسطينية وتحقيقا للسلام فى الشرق الأوسط ، هل ترى أن الخلاف حول هذا المشروع السعودى يتيح مزيدا من التقارب بيننا وبين هذه الدول ؟ . .

أجاب:

نحن لم نرفض هذا المشروع مثل بعض الدول العربية . . بل لم نعترض عليه . وما قاله الزعيم الراحل هو أن هذا المشروع لم يأت بشىء جديد ، ولكنه ربما كان موضوعا صالحا للحوار . وأكتفى ، فى الوقت الحالى ، بهذا تعليقا على هذا المشروع . .

سيادة الرئيس:

كيف تصف الموقف المصرى العربى الآن ؟ . . نحن لا نريد أن ندخل فى خناقات كلامية مع الدول العربية . . وفى نفس الوقت نحن ننتظر أن تخطو هى خطوة نحونا . . فهل هى سياسة الباب المفتوح أو نصف المغلق أو هى سياسة الباب الموارب ؟ . . فإذا كانت كذلك فما الذى نتوقع نحن أن تفعله الدول العربية التى تريد أن تؤكد لنا ولغيرنا أن الخلاف الذى كان بيننا هو خلاف بينها وبين شخص الزعيم الراحل ، وما دام قد غاب ، فالخلافات أيضاً ؟ . .

أجاب:

أنا لا أريد أن أتحدث عن الذى فات . فكل ما فات له ظروفه ومتغيراته . ولكنى أريد أن أفتح صفحة جديدة . وقد أعلنت أننى لن أهاجم أحدا ، حتى الذين يهاجمون مصر ويعرّضون بها ، لن أتعرض لهم . . وأنا أريد أن أهيىء للجميع فترة

هدوء للتفكير والتأمل والمراجعة . فمن يدرى ربما اهتدى أحد من الإخوة العرب إلى الطريق السليم . أنا لا أستبعد ذلك . ثم إننى لا أتعجل شيئا . لأنه لا يمكن أن تتغير المواقف فى يوم وليلة ، هذا مستحيل ، إنها مسألة وقت . ولن أمسك يدى عن يد عربية تمتد لى بالتفاهم والمصافحة والمصالحة فى ضوء عملية السلام . .

وقد لوحظت أنه حتى الصحف الكويتية قد غيرت لغتها ونبرتها . وقد قرأت عبارة تقول : إن الذى يطلب من مصر أن تلغى اتفاقية كامب دافيد ، يقفز من دائرة الممكن إلى دائرة المستحيل . وأرى أن هذا تعبير دقيق ومنطقى . فلا يوجد مصرى يرفض تحرير أرضه . ولذلك فنحن اخترنا السلام الذى يحقق لنا حسن الجوار مع إسرائيل ، ونتمنى أن يكون مع كل الإخوة العرب أيضاً . وخطنا فى ذلك كله واضح تماما . .

وأنا أطلب إلى الإخوة العرب أن يعيدوا حساباتهم . وأن يأخذوا قراراتهم . . وأمامهم شهر وثلاثة وعشرة شهور . .

وأحب أن أوكد بمنتهى الوضوح أنه لن يحدث أى اتصال بيننا وبين أية دولة عربية ثم نتستر عليه . . سوف يكون كل شىء علنا . .

وليس صحيحا ما يشاع من أن هناك اتصالا سريا بين مصر والمملكة العربية السعودية . فإذا حدث أعلناه . هذا مبدأ . وليكن ذلك معلوما للجميع . .

سيادة الرئيس:

هناك تخوف أن توجس من أن يؤدى التقارب العربى إلى تباعد إسرائيلى ، كما أدى التقارب الإسرائيلى إلى تباعد عربى . فكيف نحقق هذه المعادلة الصعبة ؟ . .

أجاب:

هذا يدهشنى حقا . لأن هذا معناه أننا نقترب من العرب «إغاظة» فى إسرائيل ونقترب من إسرائيل «نكاية» فى العرب . وليس هذا صحيحا . إننا نحرر أرضنا ونحقق السلام لنا ولغيرنا . ولا يستطيع أحد أن يلومنى على تحرير أرضى . فليس السلام لهوا ولعبا . إنها سياسة حياة . إنها خط الحياة نفسها . والذى نتمناه هو أن نحقق للشعب الفلسطينى أقصى ما نستطيعه من أمن واستقرار ، والرأى له بعد ذلك . .

ونحن حين نختار السلام فلأننا نريد أن نوفر الأموال الطائلة التى ننفقها على

الأسلحة والذخيرة . ثم نوجهها بعد ذلك ، إلى رخاء الشعب المصرى الذى عانى كثيرا بسبب ويلات الحروب وأهوالها النفسية ونفقاتها المادية . ولذلك فلا رجوع عن السلام . هذه حقيقة مؤكدة . ولا أقبل ، ولا نقبل فيها مناقشة أو مساومة . .

وأحب أن أقول للإخوة العرب إن علاقتنا الممتازة مع إسرائيل سوف تكون فى صالح العرب فى المستقبل . سوف نكون قادرين على حل خلافاتهم مع إسرائيل . إنهم لا يرون ذلك بوضوح الآن ، ولكن من المؤكد أن هذا ما سوف يحدث . وأذكر أننى عندما قابلت الرئيس الفرنسى فرنسوا ميتران قلت له : إننى أعلم أنك صديق حميم لإسرائيل . ولا حساسية عندنا بسبب ذلك . ولكن صداقتك لإسرائيل سوف تفيدنا فى قضية السلام . تماما كما سوف يستفيد العرب من صداقتنا لإسرائيل ، وقد يبدو هذا الذى أقوله غير واضح الآن . ولكن عملية السلام علمتنا أن نعمل من أجل المستقبل البعيد . وهذا هو المستقبل البعيد الذى سوف يواجه الإخوة العرب أرادوه أو لم يريدوا . .

سيادة الرئيس:

قابلت السيد عيزر فايتسمان وزير الدفاع الإسرائيلى السابق بعد لقائه بك . . وقال لى : إن الحديث معك قد ملأ نفسه بالطمأنينية . . وقابلت السيد شيمون بيزير زعيم حزب العمل وقال لى : إنه عندما التقى بك فى العام الماضى وكنت نائبا لرئيس الجمهورية سألك عن الأولويات فى مصر ، فقلت له : الإسكان . ولما سألك عن الأولويات هذه المرة وأنت رئيس للجمهورية ، قلت له : الأمان . . واستنتج السيد بيريز من هذه الردود القاطعة الواضحة أنك رجل عملى ، وأن رؤيتك واضحة ، وأنك واثق من نفسك . ثم قال إن الحديث معك قد ملأ نفسه بالطمأنينة أيضاً . فما الذى قلته فأراحهما تماما ؟ . .

أجاب:

قلت إننا سوف نفى بكل ما التزمنا به . وأن الاتفاقية التى وقعها السيد مناحم بيجين رئيس الوزراء والزعيم الراحل أنور السادات ، قد وقعها شخصان نيابة عن شعبين ودولتين . وهى لذلك سارية المفعول . وقلت لهما ما قاله لى السيد مناحم بيجين ، إن هذه الاتفاقية ليست فى حاجة إلى أن نوقعها من جديد مع الرئيس المصرى الجديد ، لأن الاتفاق كان بين دولتين . وهذا صحيح ، وقال لى أيضا السيد

بيجين إن سلامنا أبدى Peace Forever فرددت عليه قائلاً : فعلاً إنه سلام أبدى . وكفانا جميعا ما أصابنا فى ثلاثين عاما ! .

سيادة الرئيس:

إن الإسرائيليين يؤكدون من حين إلى حين أنهم ملتزمون باتفاقية كامب دافيد . وتنفيذها حرفيا . فما الذى يجعلك تثق بما يقولون ، وأنت تعرف أن المفاوضة معهم عنيفة ، وأنها كثيرا ما تعثرت وتوقفت بسبب كلمة أو علامة أو مسألة لغوية أو فقهية ، وأنت تعرف أن هناك من يتمنى ألا تصل مصر إلى يوم ٢٥ أبريل القادم . لأنهم يعلمون أنه فى هذا اليوم تبلغ مصر قمة تحديها بالسلام . . أى بإنجازات السلام . ففى ذلك اليوم تقول مصر : هذا ما حققناه بغير العرب ، فما الذى حققه العرب بغير مصر . . والذين لا يريدون لنا تتويج إنجازات السلام أكثرهم من العرب وأقلهم من اليهود ؟ . .

أجاب:

إنها خبرتى الطويلة مع إسرائيل ، فقد كنت إلى جوار الزعيم الراحل . رأيت وسمعت وناقشت كل ما يتعلق بالمفاوضات الصعبة مع إسرائيل . وتعبنا وتعبوا أيضا . ولكن كما قال الزعيم الراحل إنه عندما يوقع الإسرائيليون على أى اتفاق ، فإنهم يحترمونه . وهذه حقيقة . وقد أحسست بذلك فى مواقف كثيرة . . وعندما جاء السيد بيجين إلى مصر أخيراً أكدت له احترامنا لكل كلمة أعلناها ، ولكل ما اتفقنا عليه . وأكد لى أيضاً هذا المعنى . فالسلام فى صالحنا نحن الاثنين . ونحن فى حاجة إليه . إنها حياة . ولا رخاء لمصر بغير سلام . وليست هذه نظريات جديدة أو اكتشافات سياسية كانت مجهولة . إنها بديهيات السياسة المصرية أو الإسرائيلية . إنها بديهيات العصر . فالذى بدأناه بالسلام نريد أن نكمله بالرخاء . .

وقد أكد لى السيد بيجين ما سبق أن أكده للرئيس السادات – رحمه الله – فى شرم الشيخ وفى الإسكندرية مع التزامه بالاتفاقات التى بيننا ، وأنه سوف يسلمه بقية سيناء طوبة طوبة . وعاد فذكرنى بما سبق أن قاله للزعيم الراحل فى شرم الشيخ من أن هناك بعض المواطنين فى إسرائيل قد جاءوا من المستوطنات لمقابلة الزعيم الراحل . ولكن السيد بيجين قال للزعيم الراحل : أنت حر . إذا أردت أن تقابلهم ، فالرأى لك ، وإذا رفضت منعناهم من المجىء إليك . . وإذا قابلتهم وسمعت منهم أى شىء ، فهذا رأيهم هم . وليس رأى الحكومة . لأن الحكومة

ملتزمة أمام الشعب الإسرائيلى والشعب المصرى والعالم المحب للسلام بكل ما اتفقنا عليه . لا جدال فى ذلك . .

سيادة الرئيس:

كيف تفسر ما أعلنه وتراجع عنه ثم عاد فأعلنه السيد رفائيل إيتان رئيس الأركان الإسرائيلى عندما شكك فى السلام أو دعا إلى بناء المزيد من المستوطنات ؟ . .

أجاب:

لا شأن لى بما يقوله السيد إيتان . فليقل ما يشاء وليعدل عنه بعد ساعة أو يوم . فالذى يعنينى هو ما تعلنه دولة إسرائيل . فنحن نتعامل على مستوى الدولة ، وليس على مستوى الأفراد . وكما نعلم ففى إسرائيل مذاهب وأحزاب كثيرة . هذا شأنهم . أما شأنى فهو ما تقرره الدولة فى أعلى مستوياتها . .

سيادة الرئيس:

لقد ذهب السيد كمال على نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية إلى إسرائيل لاستئناف مفاوضات الحكم الذاتى ، فى نفس الوقت الذى تنعقد فيه لجان عديدة لتطبيع العلاقات بين البلدين ، فما هى التوجيهات ، التى زودت بها المفاوض المصرى الكبير تيسيرا للصعوبات بين البلدين ؟ .

أجاب:

لم أزوده بشىء مطلقاً . فخط الدولة واضح . ولم يُجَد شىء يجعل من الضرورى أن أصدر إليه تعليمات جديدة . وقد تكون إسرائيل قلقة على بطء بعض عمليات التطبيع . وأرى أنه لا داعى للقلق . فكل شىء يمشى بهدوء . والذى نراه يمشى بهدوء ، يراه الإسرائيليون شديد البطء أو أنه توقف تماما . وهذا طبيعى . فمزاجنا مختلف . ولكن من متابعتى لسير المباحثات أجد أن الطرفين قد أخذ يتفهم أحدهما الآخر . ومن هذا التفاهم المستمر سوف نصل إلى أحسن ما نريد . والعبرة بالنتائج وأنا على يقين أنها سوف تكون فى صالح الشعبين اللذين يريدان السلام . .

سيادة الرئيس:

بعد أيام سوف تجرى مناورات مشتركة بين مصر وأمريكا والصومال وعمان ، تعرف باسم «النجم الساطع» . . ما هى أبعاد هذه العمليات العسكرية المشتركة ؟ . . ولأى هدف ؟ . .

أجاب:

إنها مناورات عادية جدا فى إطار التعاون المشترك . وليست موجهة ضد ليبيا ، كما يتوهم الإخوة هناك . وأنا أؤكد أنها ليست موجهة ضد ليبيا . وليس صحيحا أننا سوف ننتهز فرصة هذه المناورة لتهجم قواتنا على ليبيا . لا صحة لكل ذلك . كل ما هناك أن طيارينا يتدربون على طائرتى الأواكس الأمريكيتين اللتين تراقبان الحدود . وسوف تعود هذه القوات الأمريكية بعد أيام فليست عندنا نية هجوم على أية دولة ، عربية . وإذا كنا قد اتفقنا مع إسرائيل على أن تكون حرب أكتوبر هى آخر الحروب ، فهل من المعقول أن نبدأ حربا مع دولة عربية ؟ . . وأنا أطمئن ليبيا وغيرها تماما ، فنحن لا نريد أن ندخل حربا مع أحد . .

سيادة الرئيس:

حتى إذا تدخلت ليبيا فى السودان ؟ . .

أجاب:

بالنسبة للسودان لنا تحفظ ، فبيننا وبين السودان اتفاقية دفاع مشترك . وأرجو من إخواننا فى ليبيا ، ألا يدفعونا إلى قتالهم . ولن نبدأ عمليات حربية ضد أحد وأتمنى أن تكون العلاقات بيننا هى حسن الجوار والاحترام المتبادل . .

سيادة الرئيس:

اليوم يصادف مرور ٢٥ عاما على العدوان الثلاثى على مصر . وقد أدى هذا العدوان الثلاثى إلى خروج بريطانيا وفرنسا من المنطقة ودخول أمريكا والسوفيت . . هل ترى أن هذا هو كل ما حدث من تغير فى المنطقة ؟ . .

أجاب:

لا أريد أن أتناول موضوع العدوان الثلاثى الآن . فليس هو موضوع الساعة الذى يشغلنا . فقد مضى وانقضى ذلك العدوان . بكل مافيه من أخطاء هنا وهناك ، لانريد أن نعود إلى الوراء ، لأننا مشغولون بالحاضر كثيرا ، وبالمستقبل أكثر ! . .

سيادة الرئيس:

أين كنت عندما وقع العدوان الثلاثى ؟ . .

أجاب:

كنت مدرسا فى الكلية الجوية . ثم انتدبونى فى غرفة عمليات منطقة قناة السويس . .

سيادة الرئيس:

تذكر أنه منذ ٢٥ عاما رفضت أمريكا أن تعطى مصر قرضا لبناء السد العالى ، وكانت حجتها أن مصر دولة مفلسة لا تستطيع أن تسدد مثل هذه الديون الضخمة فتقدم الاتحاد السوفيتى وأقام السد العالى . واليوم يقوم الخبراء الأمريكان بإصلاح توربينات السد العالى ، فما معنى هذا التغير الذى حدث فى السياسة الأمريكية ؟ . .

أجاب:

لقد أحس الأمريكان بغلطتهم . وقد سمعتها من كثيرين ، ومن كبار المسئولين . وكان ذلك بعد حرب أكتوبر . فهم الآن يساعدوننا فى إصلاح توربينات السد العالى . وأرى أن هذا طبيعى جدا . لأن العلاقات بيننا قد تطورت كثيرا على أساس من الاحترام المتبادل وعدم التدخل فى شؤننا . على عكس ما يشاع الآن أن الأمريكان يتدخلون فى شئوننا . وهم يعلمون تماما أننا لا نقبل ذلك : لا من الولايات المتحدة ولا من أية دولة أخرى ، وقد رفضنا قبل ذلك تدخل السوفيت فى شئوننا مما دعا الزعيم الراحل إلى طرد عشرين ألفا من الخبراء فى أسبوع واحد . .

سيادة الرئيس:

هل هناك أى أمل فى تحسن العلاقات المصرية السوفيتية ؟ وإذا كان هناك فما هى الشروط التى تضعها مصر لذلك ؟ . .

أجاب:

إن الوقت كفيل بإصلاح العلاقات بين البلدين . أما الشروط فبسيطة جدا ، وهى الاحترام المتبادل وعدم التدخل فى شؤننا – وقد كانت هذه هى المشكلة الوحيدة التى أساءت إلى العلاقات الودية بين البلدين . .

سيادة الرئيس:

هل عندك أمل فى خروج السوفيت من أفغانستان ، وأى توقع لدخلوهم بولندا وإيران ؟

أجاب:

أرجو أن يخرجوا من أفغانستان ، وشعوب أخرى تأمل مثلنا . فنحن لا نقر مطلقا احتلال دولة كبرى لدولة صغيرة حرة ذات سيادة ، ثم إنها دولة إسلامية أيضاً .

أما دخـول السـوفيت بولندا وإيران فالذين يراقبون مسار الأحداث لا يستبعدون ذلك ! . .

سيادة الرئيس:

ما الذى تقصده بالضبط عندما تعلن أن سياستك هى الاستمرار فى سياسة الزعيم الراحل ؟ . . ألم تظهر مواقف اقتضت منك أن تتخذ قرارا مخالفا أو مغايرا حتى الآن ؟ . .

أجاب:

عندما أقول إننى أسير على نفس الخط السياسى للمرحوم السادات فإننى أقصد المبادىء العامة : السلام . . وإقامةعلاقات مع الإخوة العرب على أساس السلام أيضاً . . لا رجوع عن ذلك . . ولا رِدَّة . . فالرئيس كان يود أن يصلح ما بينه وبين العرب . . وكان يهاجم أحياناً . . ولكن لكل مجال مقال . . وكل ظروف لها أسلوب . . ولكن الخط السياسى واحد . . وكذلك أقصد الحالة الاقتصادية للبلد . . فلابد من تطوير الموقف الاقتصادى وتصحيح مساره بصفة مستمرة . وكان الزعيم الراحل قد اختار ذلك ومضى فيه .

ولكن . . قد تقتضينا الظروف أن نواجه مواقف جديدة تحتم علينا اتخاذ إجراءات أو قرارات للصالح العام .

فالرئيس الراحل كان قد ألغى قانون الطوارىء . ولكننى أعدت هذا القانون بعد اغتياله وانتشار العنف والإرهاب ، وذلك حفاظا على سلامة الدولة وأمن المواطنين . .

سيادة الرئيس:

ما الذى استفدته من علاقتك العميقة بالزعيم الراحل ؟ وكيف تتفق معه وتختلف عنه فى تناولك وتقديرك لشئون الدولة ؟ . .

أجاب:

لقد كنت الرجل الثانى ، ولهذا السبب كنت أرى أكثر مما كان الرجل الأول . . وقد أتيحت لى فرصة عظيمة لكى أشاهد الأحداث والقضايا . وكنت أناقش الرئيس السادات – يرحمه الله – فى جميع ما يعرض له من أمور . وأحياناً يكون

لى رأى مختلف . ولكن خبرته أكبر وتجربته أوسع . وكان يرى رأيا آخر ، ويتخذ قراراً غير الذى كنت أتصوره . وعندما يتخذ هو القرار ، فإننى أتبناه فورا ، لأن هذه هى المصلحة العليا للبلد ، أعتقد أننى استفدت الكثير جدا من قربى من الزعيم الراحل .

سيادة الرئيس:

سؤال أخير . . هل أنت أيضاً متفائل بطبعك ؟ . .

أجاب:

أنا رجل واقعى جدا . وأنا أومن بالحكمة التى تقول : لايأس مع الحياة ، ولا حياة مع اليأس ! . .

سيادة الرئيس:

شكراً . . وشكرا على الكلمة الرقيقة التى تفضلت ووجهتها إلى زملائى فى هذه المجلة فى عيدها الخامس . .

* * *

مبارك وسياسة الجسور المفتوحة على كل الأطراف..

فى يوليو ١٩٥٩ كتبت مقالا عن ليلة أمضيتها فى أحد المطاعم الهندية ، واعترفت بأننى غرقت فى الحضارة القديمة والنهضة الحديثة . فالعين تتعثر فى الألوان ، والأنف يخوض فى العطور ، والقدمان تتخبطان فى الأرض الحمراء ، والقلب يدق مع الموسيقى الباكية ، والعقل شارد مع المستقبل البعيد المستحيل . . وقلت إن الفرقة الموسيقية كانت من إسرائيل . وانتهى المقال بهذه العبارة . وفى الصباح وجدت تكذيبا رسميا منشورا فى كل الصحف الهندية . وعرفت أنه نشر أيضا فى الصحف المصرية .

وكان معنى التكذيب أن الهند لا تسمح لفرقة من إسرائيل أن تعمل فى بلادها ، مع أن الهند قد اعترفت بإسرائيل سنة ١٩٥٠ ، بعد أن اعترفت بها دولتان إسلاميتان هما : تركيا وإيران - وفى الهند ١٥٠ مليون مسلم . ولا تزال لإسرائيل قنصلية فى بومباى . ولم تجرؤ دولة إسلامية أو عربية واحدة أن تطلب من الهند إغلاق هذه القنصلية . ولن تفعل الهند ذلك . وقد جاء اليهود إلى الهند عندما انهدم معبد سليمان لأول مرة قبل الميلاد بخمسة قرون . جاءوا على سفن فينيقية ، ونزلوا فى بومباى فى الشمال ، وفى ولاية كيرالا فى الجنوب ، واستقروا فى مدينة كوتشين . ولا يزال هؤلاء اليهود لغزا تاريخيا. فهم يزعمون أنهم من نسل النبى سليمان . وأكثر المذاهب اليهودية لا تعترف بهم !

وموقف الحكومة الهندية منذ ذلك الحين لم يتغير ، ولن يتغير . فهى قد اعترفت بإسرائيل التى تنافست أمريكا وروسيا فى الإقرار بوجودها فى سباق تتابع بفارق دقيقة واحدة لصالح الفريق الأمريكى ! ، فإسرائيل دولة قامت ، ولكن الهند تستنكر وجودها على أرض فلسطينية . وتستنكر أن وجود إسرائيل يطرد وجود الدولة الفلسطينية ، ولذلك فالهند على علاقة طيبة مع كل الأطراف ، ولكنها مع

العرب أعرض وأطول وأعمق ، لأن عائدات هذه العلاقة من البترول والدولارات أكبر وأضخم . أما العبارات الرقيقة الهندية التى تحرص الهند على استخدامها ، مع الابتسامة والانحناء والأدب ، فتلك أصول صناعة السياسة . فالسياسة كانت ولاتزال : سفالة أنيقة !

فإذا أحد استنكر كلمة «السفالة» فليس سياسيا . وإذا أحد أعجب بكلمة «أنيقة» فليس هنديا !

وأنت فى الهند عندما ترى الحاوى يخرج الأفعى من الصندوق ، ويروح ينفخ فى الناى فترقص ، أو إذا رأيت أحدا يمشى على الحبل ، والحبل فى الهواء لا يمسكه أحد ، أو إذا رأيت طفلا يتسلق جبلاً ، ولا يزال يتسلقه حتى يختفى ، إذا رأيت عددا من ثعابين تتجمع وتكتب اسمك على الأرض ، وإذا رأيت رجلا يرتفع فى الهواء ويظل واقفا بعيدا عن الأرض ، فيجب ألا تقفز إلى نتيجة واحدة : هى أنهم جميعا من الحواة . والحقيقة أنهم ليسوا كذلك . إنما هم كوادر حزبية تتدرب على التوازن فى الشارع السياسى !

وفى الهند لا يحتاج الزعيم السياسى إلى مصافحة ٧٠٠ مليون مواطن ، وإنما يكفى أن يضم يديه المفتوحتين إلى صدره وينحنى ، وبذلك يكون قد بالغ فى احترام الجميع . وليس من الضرورى أن يقول لك أحد : نعم ليدلك على أنه موافق على ما تقول . إنما هو يهز رأسه يمينا وشمالا وتكون هذه الإيماءة كافية للدلالة على ما يريد . . فهو يهز رأسه مرة إلى اليمين ومرة إلى اليسار ، أى أنه فى حركة واحدة لا ينحاز إلى اليمين ولا ينحاز إلى اليسار . إنما إلى الاثنين معا . وهذا هو معنى عدم الانحياز فى السياسة الهندية . فعدم الانحياز – فى الأصل – ألا تتجه إلى أمريكا وتقف هناك ، ولا تتجه إلى روسيا وتظل هناك . . وإنما عدم الانحياز إلى أحد ، هو الانحياز إلى الاثنين حسب الضرورة . والهند قد تقدمت كل الشعوب فى ذلك وهى قدوة حسنة !

وفى الأسبوع الماضى زارها الرئيس الفرنسى فرانسوا ميتران قادما من مصر ، وقد كتبت عن الرئيس الفرنسى أبدى إعجابى بواقعيته السياسية . وأرى أنه هو أيضا قدوة أو أنه هو القدوة . لا أحد يظلمه مظهره الخارجى مثل فرنسوا ميتران فهو مربع الشكل ، ويمشى مفتوح الساقين كأنه مدرب خيول ، وعندما يرتدى القميص والبنطلون يخيل إليك إنه ميكانيكى . وعندما يمشى فى مزرعته تحس أنه فلاح لم

يمر على أية مدينة . والخلاصة أنك لا تصدق أن فرنسا بلد الجمال والنور والحرية قد وضعت على رأسها رجلا غليظ الملامح خشن الكلمات ولكن عندما قرأت مذكرات ميتران اكتشفت أننى أخطأت كثيرا جدا ، ففرنسا لا تضع أحدا على رأسها . إنما تضعه على قلبها فليس فوق رأس فرنسا : إلا المثل العليا من العدل والحرية والمساواة . ولكن قلب فرنسا مثل معدتها وأحضانها تتسع للكثيرين . . ففرنسوا ميتران رجل يتذوق الأدب الرفيع والموسيقى والغناء . ثم إنه يحسن التعبير ، وقد قرأت له صفحات عن وصف الزهور ، وعن جمال مدينة البندقية ، وعن الشعراء الإغريق والفرنسيين . فليس معقولا أن يكون رئيسا لفرنسا من لايدرك بعمق مقومات الثقافة الفرنسية . . ويستحيل أن تتوج فرنسا رجلا يعتبر إهانة لكل مقدساتها . ولذلك اختارت ميتران ، لأنه كل ذلك ، ولأنه أكثر واقعية . ولأن بقدر عشقه لقلب فرنسا وعقلها ، فإنه أكثر عشقا لمعدة فرنسا وجيبها . ولذلك اختط لنفسه طريقا : رفاهية الشعب الفرنسى ، ولو أدى ذلك إلى أن يضحى بحب الشعب له . إنه قانع باحترامه .

وفرنسوا ميتران رئيس فرنسا المنحازة إلى حلف شمال الأطلنطى . وهو حلف عسكرى ، وفرنسا عضو فى السوق الأوروبية المشتركية ، وهى حلف اقتصادى . وعضو فى حوار «الشمال والجنوب» ، وهو حلف سياسى ، ولكن فرنسا منذ أيام ديجول وبومبيدو ودستان ، تقف إلى جوار أمريكا ضد روسيا ، ثم بنفس الرشاقة تقف إلى جوار روسيا ضد أمريكا . بل إنها تقف ضد زميلاتها فى حلف الأطلنطى . وهى تنظم كراهيتها للروس ، وتنظم صداقتها للأمريكان . فكل شىء منظم وكل شىء بحساب . أو بعبارة ميتران التى أعلنها فى الهند – قلعة الانحياز – : إن فرنسا ترفض الصمت واللامبالاة . . أى أنها تعيش على الحوار والمشاركة . أى لابد أن تكون طرفا نشطا فى كل الذى يدور حولها ، ويدور عليها ويدور بها . وهى قاعدة بيولوجية معروفة : فالجماعات البشرية التى انعزلت فى الغابات أو فى الكهوف انقرضت وماتت . لأنها لم تكن على صلة بأحد حولها . وكذلك انقرضت الديناصورات أيضا . لأن الديناصور الضخم بطىء الحركة ، يشبه كومة الحيوانات خاملة جامدة عاشت فى مكان واحد ، فماتت فى نفس المكان – تماما كما تموت الأشجار فى مكانها وفوق جذورها أما حياتها ففى الحركة والتوافق مع كل الظروف ، والتوافق هو الحوار بين المتناقضات . والسياسة هى علم التوافق بين الأضداد .

وفرق كبير بين التوافق والتطابق ، فالأحلاف العسكرية تقوم على التوافق . وبذلك ففى داخل الأحلاف خلافات : فى حلف وارسو بين روسيا وبولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا وفى داخل الجمهوريات السوفيتية نفسها . وفى حلف الأطلسى خلافات بين أمريكا وأوروبا وبين فرنسا وبريطانيا حول تجارة السلاح ، وبين ألمانيا وفرنسا وإيطاليا حول صناعة النبيذ ، وفى حلف عدم الانحياز بين الهند وباكستان ، وبين الهند والصين ، وبين إيران والعراق ، وفى حلف الدول الأفريقية لا يزال الصراع على الحدود بين ليبيا وتشاد وبين أثيوبيا والصومال وبين المغرب والجزائر ، وهناك جامعتان للدول العربية : واحدة فى القاهرة والأخرى فى تونس ، وهناك خلاف العرب مع مصر وخلاف العرب على لبنان . وفى أسبوع واحد في الهند التقى ثلاثة من الزعماء : أنديرا غاندى وميتران وحسنى مبارك . ميتران زعيم فى دول الانحياز ، والآخران زعيمان فى دول عدم الانحياز ، وهى فرصة لنرى كيف تنحاز الدولة غير المنحازة . وكيف لا تنحاز الدولة المنحازة . ثم نتساءل : إذن فما الانحياز ؟ وما هو عدمه ؟ ثم كيف نلوم أحدا على أنه انحاز بعض الوقت أو كل الوقت ؟ كيف تكون كوبا الماركسية اللينينية دولة غير منحازة ، وكذلك اليمن الجنوبية وأثيوبيا ويوغوسلافيا وألبانيا - وهى دول شيوعية تماما ؟!

وفى نفس الوقت كيف تختلف الدول الآسيوية والأفريقية حول الصيغة المصرية لإجلاء القوات الإسرائيلية عن أراضيها ؟ كيف تتهم مصر بأنها قد انحازت إلى أمريكا عندما استعانت بها على إخراج اليهود من أراضيها ؟ وأمريكا كانت ولاتزال هى الدولة الوحيدة القادرة على ذلك ، فروسيا لا تستطيع . وكل دول العالم الثالث لا تستطيع . ولا الدول الأوروبية مجتمعة استطاعت أو سوف تستطيع إننا عندما نلجأ إلى الدول الأوروبية فلكى نستعين بها للضغط على أمريكا ، فإذا استطاعت مصر وحدها أن تضغط على أمريكا ، وتحقق ما تتمنى أن تحققه بقية الدول العربية التى لاتريد أن تلجأ إلى أمريكا مباشرة . وإنما تستعين عليها بدول آسيا وأوروبا ، فما هو خطأ مصر ؟

إن أحداً لا يجرؤ الآن على أن يفتح عينيه فى عينى مصر . . ولا أن يضع ساقا على ساق فى حضورها . فلم تفعل مصر إلا ما تتمنى أن تفعله وتفعله كل دول عدم الانحياز فى آسيا وأفريقيا ، وكل الدول الأوروبية ، بل روسيا نفسها !

ولاتزال الصيغة السياسية التى استخدمتها مصر فى حل القضية المصرية

الإسرائيلية ، هى الصيغة المقبولة أو المرفوضة . فأكثر العرب رفضوها وبعضهم قبلها . وكل المبادرات العربية والفرنسية المصرية ليست إلا شروحا وهوامش للصيغة المصرية ، وحتى لو رفضت مصر صيغتها القديمة فالموقف كما هو ، وهو أن هناك صيغة وحيدة اختلفت عليها العرب ، ومن ورائهم أوروبا وآسيا ، تستوى فى ذلك صيغة ريجان وصيغة الملك فهد وصيغة مصر وفرنسا معا ، فإذا الجميع رفضوا أو قبلوا ، فهم أمام اتفاق كامب دافيد القديم ، أو الاتفاق المعدل .

والأمثلة كثيرة على أن «عدم الانحياز» ليس إلا الانحياز ولكن بصورة أخرى . فالهند مرتبطة بالاتحاد السوفيتى ارتباطا عميقا . وقد استعانت بالسوفيت لتواجه اعتماد باكستان على أمريكا وترسانة السلاح فى الهند سوفيتية ، وترسانة السلاح فى باكستان أمريكية . وعندما طلب الرئيس السادات قطع غيار من الهند رفضت ، لأن المعاهدة السوفيتية الهندية تحرم على الهند أن تعطى السلاح أو قطع الغيار لأية دولة دون إذن من روسيا . ثم إن الهند قد اشترت مفاعلات ذرية من أمريكا ، ونصت المعاهدة بين البلدين على ألا تبيع الهند «النواتج الثانوية» للمفاعلات لأى بلد آخر حتى نهاية القرن . ورفضت الهند هذا الشرط . وحتى لا تتجه الهند إلى روسيا وافقت أمريكا على أن تقوم فرنسا ببيع الوقود الذرى للهند !

وكان الرئيس الفرنسى ميتران قد أعلن كثيرا جدا أن الدول التى تنتج السلاح يجب أن تراعى الله . وأن يكون لديها ضمير ، فلا تعطى هذا السلاح للدول التى تقهر الشعوب ، أو لدول التفرقة العنصرية . وقد هدد الرئيس الفرنسى بنزع السلاح من المعرض الدولى الذى أقيم فى باريس لتطور أسلحة الدمار . ولكن فرنسا تبيع ٨٣٪ من سلاحها إلى الدول العربية . . وتبيع السلاح – سرا – إلى جنوب أفريقيا ، قاعدة التفرقة العنصرية فى أفريقيا . وتبيع السلاح إلى الأرجنتين التى لاتزال فى حالة حرب مع حليفتها بريطانيا .

ثم وافقت فرنسا على قبول الشرط الذى رفضته الهند : فهى لن تسأل الهند أين تذهب قنبلتها الذرية . ورفضت أن تسألها على من تطلق هذه القنبلة اليوم أو غدا .

وقبل ذلك كانت الهند تصنع الطائرات السوفيتية وكذلك الأسلحة . . ثم إن كل دول عدم الانحياز ودول الانحياز تتبارى فى بيع السلاح لإيران والعراق وإسرائيل والدول العربية . إذن فما هو بالضبط معنى الانحياز ودلالة عدم الانحياز ؟ . .

يجب ألا نشغل بالنا كثيراً بمعانى مثل هذه الكلمات . ففى القاموس السياسى شقيقات لها بلا معنى واضح مثل : الديموقراطية الدكتاتورية والحرية والعدالة والمساواة ، ومن أجل هذه الكلمات الذهبية مات مئات الملايين من البشر بسبب هذا الغموض المقدس ؟!

ولكن أقرب المعانى إلى الواقع هو : الإنحياز أن تنحاز لبلدك . وعدم الانحياز هو ألا تنحاز إلا لبلدك . أى أن المعنى البسيط جدا لكل هذه الشعارات الشاعرية هو : المصلحة . . مصلحة بلدك . وأن تحقق ببراعة . أو ببهلوانية . فليس من السياسيين من لا يمشى على الحبل ومن لا يخرج الكتكوت والثعبان من جيب واحد . فإذا لم يفعل فيجب أن يتخلى عن مقعده لمن هو أكثر اقتداراً على أن يسبح فى الماء دون أن يبتل ، وأن يتكلم دون أن يفتح فمه ، فليست أنديرا غاندى وميتران آخر من يفعل ذلك من أجل الوطن .

والدول الصغيرة – غير المنحازة لروسيا وأمريكا ، أو المنحازة لأمريكا وروسيا – تعلم حقيقة بسيطة : وهى أن روسيا تشجع عدم الانحياز لأمريكا ، وأمريكا تشجع عدم الانحياز لروسيا ، وهذا التشجيع مادى . فإذا أعطت روسيا السلاح ، سارعت أمريكا فأعطت القمح ، ولا يهم الدولتين العظميين كثيرا أن تشتعل النار فى الدنيا كلها ، لأن النار تحتاج إلى وقود ، والوقود هو السلاح أو هو الكراهية . وإذا أدى السلاح إلى إهلاك الشعوب ، والكراهية إلى إحراقها ، فهى بعد ذلك ضحية لإحدى الدولتين . وهذا هو المكسب الحقيقى . وكل الحروب والكفاح ، واللون الأحمر فى أعلام الشعوب ، دليل على أنها في حرب مع عدو داخلى وعدو خارجى . وهى تريد أن تخرج سالمة من هذه المعارك !! . .

وهناك قصة عربية قديمة للدلالة على هذه المعانى . . هى قصة معاوية . . فمعاوية هو الذى قال : لو كانت بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت ، إذا شدوها أرخيتها ، وإذا أرخوها شددتها ! – قمة البهلوانية السياسية والواقعية النفعية ، ولأن الناس عاطفيون فالساسة يعلمون أن الشعوب تكره الحقائق العارية ، ولذلك يلفون هذه المعانى فى عبارات شعرية بليغة . والشعر ليس هدفا ، وإنما هو يقوم بدور السفرجى فى وليمة النذالة السياسية !

والسيدة أنديرا غاندى عندما قالت لنا : إنها تدعم الصداقة إذا كانت هناك ، وتخلقها إذا لم تكن هناك ، فنحن يجب ألا ننخدع بعبارتها الحكيمة ولا بصوتها الهادىء ونبراتها الناعمة . ولذلك يجب أن نبادر وأن نضع فى مكان كلمة الصداقة

«المصلحة» . . وهكذا يستقيم المعنى ، فالهند عندما كانت فى حرب مع باكستان لم تقطع علاقاتها بها وعندما كانت فى حرب مع الصين ، سبقت شعوب العالم كلها فطالبت بعضوية الصين فى الأمم المتحدة لا حبا فى الصين ، بل استدراجا لها إلى المحكمة الدولية ، ولتضعها تحت طائلة القانون السياسى والدبلوماسى ! .

وعندما أخرجت الهند «عدم الانحياز» من القاموس السياسى ، أضافت تعبيرا آخر لا يفيدنا كثيرا ولكنه يدل على التحرر من القاموس الغربى المفروض علينا من مئات السنين ، فالأوروبيون ، ونحن فى الشرق أيضا ، عندما نتحدث عن الصين والهند واليابان نقول الشرق الأقصى أى أن الصين (١٠٠٠ مليون) ، والهند (٧٠٠ مليون) ، واليابان (١٥٠ مليونا) ، تقع شرقى لبنان وعددها مليون أى أن آسيا كلها تتحدد جغرافياً بموقعها من قبرص ولبنان مع أن العكس هو الأصح ، ولذلك فالهند قد اخترعت تعبيرا يشير إلينا جميعا فقالت إننا نقع فى غرب آسيا فمشاكل الشرق الأوسط هى مشاكل غرب آسيا لأن الشرق الأوسط كله لا يزيد فى عدد سكانه على إحدى الولايات الهندية ، ومن حق اليابان أن تصف أمريكا فتقول إنها شرقى آسيا .

وكما أن عدم الانحياز لا يهمنا كثيرا ، فكذلك غرب آسيا ، أو شرقيها لا يقدم ولا يؤخر . وقديما قال شكسبير : وماذا فى اسم ؟

وقد ضحكت السيدة أنديرا غاندى عندما سألتها : لا تؤاخذينى يا سيدتى . . أريد أن أوجه إليك سؤالا من الناحية المنطقية فقط ، فالرئيس ميتران عندما كان فى مصر قال إن هناك تطابقاً بين آرائه وآراء الرئيس حسنى مبارك . . وعندما جاء إلى الهند أعلن أن هناك تطابقا بين آرائه وآرائك . . فما هو هذا التطابق بيننا ؟ .

وكانت ضحكتها كافية فى الدلال على الذى أريد أن أعرفه . أى أن مثل هذه العبارة من علامات رجال السياسة . وأنها ليست إجابة وإنما هى امتناع عن الإجابة . . ومغالطة أيضاً . فليس من الضرورى أن تتطابق وجهات نظرنا . وإنما الخطأ أن تكون كذلك . فلابد من الاختلاف ، والشىء الطبيعى بين الساسة وبين الدول هو أن يختلفوا ليدفعهم ذلك إلى تعديل المسارات وتصحيح المفهومات . والتوفيق المستمر بين القواميس المتداولة بيننا . ولذلك لم تضف السيدة أنديرا غاندى إلى ضحكتها شيئاً . فالمعنى الذى أرادته عرفناه ، ولأننا عرفناه فهو ضحكتها ، لم نطلب إليها مزيداً من الإيضاح !

ولذلك فلسنا فى حاجة إلى أن نجهد رءوسنا فى البحث عن أسباب زيارة

الرئيس حسنى مبارك إلى الهند . وهل هناك علاقة بين زيارة الرئيسين المصرى والفرنسى . . فالمعنى واضح تماما ، وهو أن الرئيس مبارك يريد أن يفتح الأبواب والقنوات ، ويقيم الجسور بين كل الأطراف ، وأن يذيب الجليد بين العرب وإسرائيل ، ولنفس السبب . فالسلام مع إسرائيل ليس معناه الحرب مع العرب ، فلا عداوة أكبر من التى بين روسيا وأمريكا ، ولا توجد علاقات فى التجارة والفضاء كالتى بين الدولتين ، وإذا كان الميزان التجارى بين مصر والهند هزيلا لا يتجاوز عشرين مليون جنيه ، أكثرها لصالح الهند ، فليس معنى ذلك أن نقفل دفاترنا وأن ننعزل عن العالم الثالث ، ودول عدم الانحياز . . إن الهند نفسها لم تفعل ذلك مع أن الذى تكسبه من البلاد العربية هو عشرون مليار دولار . فهى من أجل هذه المليارات لم تقطع صلتها بأصحاب العشرين مليونا . وإذا كانت الدول العربية قد ساعدت مسلمى الهند بألف مليون فإن مصر قد ساعدتهم بألف جنيه فقط ! . .

وواضح من سياسة الرئيس حسنى مبارك أنه لا يتعجل النتائج ففى العلاقات الإنسانية لابد من السلوك الشخصى . وكذلك فى العلاقات السياسية أيضا وقد يكون ذلك نوعا من الرومانسية الخرافية عند الدول الكبرى لأن الشخص لا يهم . ولكنه ليس كذلك فى الدول العربية - مثلنا - شعوب عاطفية ، والابتسامة تساوى الملايين . وهناك قاعدة أخرى : إنه حيث لا يوجد قانون فالعلاقة الشخصية هى القانون ، وهى القانون العربى دائما .

ولذلك أساء الناس فهم زيارة الرئيس مبارك إلى السعودية للعزاء فى وفاة الملك خالد ، وعابوا عليه أنه فعل ما لم يفعله السعوديون الذين لم يبعثوا وفدا للعزاء فى الرئيس السادات . ولكن الرئيس مبارك بعث يعزى فى وفاة برجنيف أيضا . مع أن الروس لم يمدوا يد العزاء فى وفاة السادات . . وبعث من يعزى فى وفاة السيدة عليزة بيجين ، وعلى الرغم من أن العزاء فى وفاة زوجة بيجين كان من قبيل البرتوكول فقط ، فإن السيد بيجين رأى فيه دلالة سياسية فليكن . المهم أن تكون هناك صلة عزاء أو صلة تهنئة . أن تكون هناك شعرة معاوية .

وقبل ذلك كانت زيارة الرئيس حسنى مبارك ليوغسلافيا ورومانيا . والمعنى واحد أيضا وهو مصلحة مصر . .

وعندما زار الرئيس مبارك الرياض ، لم يسترح بعض الناس ، وكان حكم الناس

عاطفيا ، ولكنه اختار المدلول السياسى . . وعندما رفض زيارة القدس غضب بعض الناس . وكان غضب الناس سياسيا ، ولكنه اختار المعنى العاطفى . إنه وراء مصلحة مصر . .

ومن أجل مصلحة مصر العاجلة ، كان اهتمامه البالغ بمشاكلها الداخلية . وفى مقدمة هذه المشاكل : العمل والإنتاج وتوفير احتياجات الناس من القمح والأرز والمسكن والعمل . .

ومن أجل ذلك كانت زيارته للهند ، فالهند قد استطاعت أن تصل إلى حالة الاكتفاء الذاتى . أى أن الهند لا تستورد حبة قمح - بينما مصر تستورد ٧٠ ٪ من طعامها ، وقد أعلنت الهند «ثورة خضراء» هى تخصيص ولايات كاملة لزراعة القمح . ولها فى ذلك تجارب من الضرورى أن نعرفها بسرعة . وأن نوفد إليها العلماء والخبراء . والهند تنتقل الآن إلى مرحلة الاكتفاء بما لديها من الأرز ، وبعد ذلك بالعدس ، ثم الحبوب المنتجة للزيوت . ومن يتفرج على الدكاكين فى الهند يجدها عامرة بالصناعات المحلية . فكل شىء من صنعها لاستهلاكها . والأجانب فقط هم الذين يستوردون سياراتهم ومشروباتهم وملابسهم .

ولابد أن نستغل هذه العلاقات الجديدة مع الهند فى تحسين الزراعة وتطوير الصناعة ، وخاصة استخراج الطاقة من المفاعلات النووية . فالمفاعلات التى لدينا قديمة . وسوف نقوم مرة أخرى باستيراد قطع الغيار من الهند ، فالذى نستورده من كوريا الشمالية وألمانيا الشرقية ليس كافيا . ولا مانع لدى الهند ولا قيود عليها بينما كانت القيود علينا عندما أنتجنا صاروخى القاهر والظافر وكذلك الطائرات الحربية - وكانت القيود سوفيتية . فقد قبلنا كل القيود التى رفضتها الهند ، ولنا عذرنا يوم فعلنا ذلك ، ولا عذر لنا اليوم . .

أما فى مجال السياسة فالهند متحمسة تماما لحل القضية الفلسطينية على النحو الذى يراه أكثر الفلسطينيين تطرفا . لاحبا فى المسلمين ، وهم أقلية فى الهند ، ولا حرصا على العروبة ، وهى دولة بها مائة لغة ، لكن حرصا على العلاقات التجارية الضخمة ، وحرصا على أربعة ملايين عامل وتاجر هندى فى الخليج ، وما لم تكن العلاقة المصرية العربية آخذة فى النمو فإن الهند لن تبعث لنا «بشوال» قمح . لأن هذا «الشوال» مخاطرة كبرى لا تقدر عليها الهند . . إذن فتحسن العلاقات العربية المصرية يدفع الهند إلى تدعيم علاقتها معنا . وهذا مفهوم ومقبول ومحترم أيضا .

وسوف يؤدى ذلك كله إلى حل المشاكل بين مصر وبقية دول عدم الانحياز فى شهر مارس القادم عندما ينعقد فى نيودلهى . .

وفى الهند يشيرون إلى الفاروق بين موقف الهند أيام الرئيس السادات وأيام الرئيس مبارك . فقد أرسل الرئيس السادات خطابا إلى السيدة أنديرا غاندى . لم تشأ أن تفتحه . ولم ترد . فقد كانت غاضبة منه لأنه هاجمها بعنف يوم رفضت بيع قطع الغيار لمصر . وكانت وقتها خارج الحكم ، فأوجعها ذلك مرة أخرى ، أما ترحيبها بزيارة الرئيس مبارك ، رغم ارتباطاتها المحددة إلى نهاية سنة ١٩٨٤ ، فدليل على أنها ترحب بعودة العلاقات . .

والرئيس حسنى مبارك يريد أن يوضح باستمرار أنه ليس جمال عبد الناصر ولا هو أنور السادات ، وإنما هو امتداد لهما ، ولذلك فلديه من الإنجازات السابقة ما يجب أن يضيف إليها ، ومن المشاكل ما يدفعه إلى وضع مبادرات جديدة لحلها ، ومن المتغيرات الدولية ما يحتم عليه أن يواجهها ويختار مصلحة مصر . . فإذا فعل ، وسوف يفعل ، فلا لوم عليه ، لأن هذه هى القاعدة الذهبية لكل الدول وكل الكتل وكل الأحلاف .

وهناك كلمة شعبية شهيرة تقول : الباب الذى يجىء منه الريح ، يجب أن تسده لتستريح - إلا فى السياسة . لأنه لابد أن تكون هناك أبواب وأن تكون هناك رياح ، والرياح لا تدخل من الأبواب المغلقة . وإذا أغلقت الأبواب اجتاحتنا الرياح . والسياسة هى أن نفتح الأبواب شبرا أو شبرين : وأن نستفيد من اتجاه الرياح ، وأن نملأ بها أشرعة زوارقنا . وليست هذه ميوعة سلوكية . وإنما هى المرونة الواجبة . وليس هذا استسلاما للواقع ، وإنما هو استغلال له . وليس واقعيا من يسد الأبواب ، ولا واعيا من يتجاهل الرياح . فالسياسة هى أن تفتح وتوارب وألا تغلق بابا أبدا ، والسياسة هى أن تدور مع الرياح وأن تحنى لها .

والخلاصة : أن السياسى تاجر يرتدى البدلة ، والتاجر سياسى يرتدى الجلباب .

والسياسة مثل الحب : تعبير مهذب عن رغبة غير مهذبة ! . .

* * *

الصراع بين آيات الله وجنرالات الشاه ..

عند منتصف ليلة ٣١ ديسمبر سنة ١٩٧٧ وقف الرئيس كارتر يهنىء إمبراطورية إيران بالسنة الجديدة ، ويتقدم ليقبل الشاهبانو . . ويتقدم الشاه فيقبل روزالين كارتر ، فى الوقت الذى تعزف فيه الموسيقى لألفيس بريسلى تقول :

«حبنى بحنان» .

وقال كارتر فى هذه المناسبة السعيدة : إنك أيها الشاهنشاه تعيش فى جزيرة من الأمان وسط بحر من القلق !

ومنذ ذلك اليوم السعيد لم تعرف إيران هذا الأمان . . بل إنها دفعت ملكها إلى أن يترك البلاد باكيا ممزقا . ولم تهدأ الثورة عليه . !

اثنان خارج إيران الآن ولأول مرة : شاه إيران وآية روح الله الخمينى ! ولا أحد يعرف متى يعود الخمينى الذى ألقى به الشاه خارج إيران سنة ١٩٦٣ . . ولا متى يعود الشاه نفسه .

وأية محاولة لمعرفة ما يجرى فى شوارع طهران والمدن الأخرى أقرب إلى قراءة الفنجان . كما أن الذى يحدث فى إيران كلها نوع من الخلط العنيف لمركبات الدين والسياسة . . وإن كنا لا نعرف كم فى المائة دينا ، وكم فى المائة سياسة ؟ . . حتى هذه السياسة لا نعرف كم فى المائة مجرد غضب عام ، وكم فى المائة يسارا شيوعيا ؟ .

ثم الجيش هل هو مظلة لهذه الحركات ؟ . . هل هو دخان لها ؟ . . هل هو الذى سيحمى هذه الخلافات ؟ . .

ثم من هو الطبيب الذى يستطيع أن يرج زجاجة الدين والسياسة ليقدمها شرابا شافيا معافيا للشعب الإيرانى ؟ .

إن المظاهرات ليست ثورة . ولكنها تخلق الثورة ، ثم إن المظاهرات بلا صيغة سياسية متطرفة ليست ثورة . وكل ثورة تحتاج إلى شجاعة . وكل شجاعة تحتاج إلى بصيرة . وكل بصيرة تحتاج إلى إرادة . . هنا فقط يمكن أن يقال إن «فورة» أو «غضبا عاما» قد أصبح من ملامح الثورة . . فالثورة بلا صيغة فكرية : حركة عمياء . . والصيغة الفكرية إن كان الذى فى إيران ثورة شعب . . أو غضبة رجال الدين ، أو فتنة تضم كل العناصر . .

إن ما يجرى فى إيران من الناس ودماء الناس قد سرق كاميرات السينما والتليفزيون . وغطى على كل حوادث آسيا وأفريقيا . . وعلى الصراع العربى الإسرائيلى . . فالمشكلة فى الشرق الأوسط لم تعد خلافا على حدود أو على استرداد أرض محتلة . إنما الخلاف سيكون بين دولتى الوفاق على موارد الطاقة . .

هل تضيع إيران من أمريكا . . أى هل تسمح أمريكا لروسيا بأن تقوم بانقلاب شيوعى يستولى على آبار إيران والخليج ؟

إننا لا نعرف الحسابات المعقدة التى بين دولتى الوفاق . . ولكن من المؤكد أن هناك اتفاقات مستمرة بينهما على مناصفة الكرة الأرضية والكواكب الأخرى . . وإلا فالمواجهة ، والمواجهة فناء لهما ولكل ما تختلفان عليه من أرض وطاقة . ولذلك فلا حاجة بهما إلى المواجهة . إنما الدولتان تتفقان فيما بينهما .

والذى حدث فى إيران ليس جديدا . . إنه همس طويل يحول إلى صراخ . فشاه إيران ابن ملك متواضع الأصل ، لم يتعلم القراءة والكتابة إلا فى الثلاثين من عمره – مثل خروتشيف – ولكن هذا الملك قد ربى ابنه تربية ملكية تماما . ونصبه ملكا سنة ١٩٤١ . وكان الملك معبود الجماهير ، مثل الخمينى تماما ، وقد هرب الشاه من ثورة بلاده سنة ١٩٥٣ ، ليعود إليها بعد خمسة أيام . . وقد اضطر الشاه بعد ذلك فى سنة ١٩٥٧ أن ينشىء السافاك أى البوليس السياسى . لمواجهة أية مؤامرة لقلب نظام الحكم أو تعكير الأمن العام فى البلاد .

وكان من ضحايا البوليس السياسى : آية الله الخمينى ، فقد جاءه البوليس السياسى سنة ١٩٦٣ مرتديا مسوح رجال الدين . وخدروا الرجل ونقلوه فى سجادة إلى المطار ليجد نفسه فى العراق ، وهناك أقام سنتين فى مدينة النجف الأشرف ، ومن النجف كان يتصل برجاله . ثم انتقل إلى باريس بعد ذلك .

وكان الشاه يحلم بأن يجعل بلاده مثل السويد . وكان يقول دون ملل : قبل نهاية القرن سوف تكون إيران فى جمال ورخاء واشتراكية السويد . .

وبدأ الشاه نفسه يطبق العدالة الاجتماعية ، و «الثورة البيضاء» . . والإصلاح الزراعى ، ومحو الأمية ، وإجبارية الخدمة العامة لكل خريجى الجامعات ، فقد كان عليهم أن يعملوا جميعا فى الريف قبل أن يتم توزيعهم على المدن ، وساهمت أخته وزوجته فى محو أمية الشعب الإيرانى .

وانفتحت إيران على الغرب والحياة الغربية . . ورأى رجال الدين أن إيران لم تنفتح وإنما تفسخت وتعرت تماماً فى السينما وفى الصحف وفى الحياة الاجتماعية . . عرت المرأة صدرها وساقيها ، وعرى الفقراء صدورهم وسيقانهم حتى الموت . . وثار رجال الدين على هذا التحلل فى بلد لا يرى فيه الرجل وجه زوجته إلا يوم زفافها ! .

وكان الخمينى يبعث «بالكاسيتات» إلى إيران يقول فيها : الصمت طريق إلى جهنم ، السكوت نصف الطريق إلى النار . الاستسلام هو النار نفسها . . ثوروا عليه . .

وكانت صرخات الخمينى مثل صرخات يوحنا المعمدان ضد هيرود ملك اليهود وضد زوجته المنحلة وضد ابنتها سالومى التى رقصت عارية عندما قطع الملك رأس يوحنا المعمدان . وقدم لها الرأس على طبق من الفضة !!

واستطاع الشاه أن يضرب الشوعيين والمناوئين ، ولكن من الصعب عليه أن يفعل ذلك كل الوقت لكل الناس . فبلاده بينها وبين روسيا ألف ميل من الحدود المشتركة . وبعد أن انضمت أفغانستان إلى المعسكر الشيوعى . أصبحت الحدود المشتركة بينه وبين أول دولة شيوعية وآخر دولة شيوعية أكثر من ٢٥٠٠ ميل !

وتمت معاهدة سرية بين الشاه والرئيس نيكسون على إمداد إيران بكل ما تحتاج إليه من أسلحة متطورة . وأصبح الجيش الإيرانى (نصف مليون مقاتل) ثالث جيش فى العالم ، ومزودا بآخر ما ابتدعه الأمريكان من الطائرات المقاتلة . وقاذفات القنابل وطائرات الرادار . كما أن لديه غواصات ألمانية . ومن بين قوات الجيش الإيرانى مائة ألف فى سلاح الطيران !

وفى إيران ٣٨ ألف خبير أمريكى . من بينهم ١٨ ألفاً فى مدينة أصفهان

وحدها . وكان الأمريكان فى المدن المقدسة يسببون ضيق الشيعة وغضبهم . وثورتهم على الشاه وعلى أمريكا . وليس من قبيل الصدف أن يكون أول ضحايا الثورة على الشاه ثلاثة من الأمريكان اليهود !

وعندما اتخذت المظاهرات شكل الثورة فزع الأمريكان على أسلحتهم المتطورة على حدود إيران وروسيا . فهناك محطات إنذار مبكر وأجهزة تصنت إلكترونى على حركة الصواريخ والطائرات السوفيتية فى جنوب الاتحاد السوفيتى . تماما كالأجهزة التى وضعتها أمريكا على الحدود المشتركة بين تركيا وروسيا وبين مصر وإسرائيل ، وهى نفس الأجهزة التى استخدمتها أمريكا قبل ذلك بين فيتنام الشمالية والجنوبية . .

وكان الشاه ينفق ثلث الميزانية على التسليح .

وكانت أمريكا راضية عن ذلك باعتبار أن الشاه حارس الخليج ، كما كانت إسرائيل حارسة لقناة السويس . .

وعندما دعا الشاه ملوك ورؤساء العالم سنة ١٩٧١ فى مدينة بريسبوليس لإحياء ذكرى ٢٥ قرنا على وفاة الملك قورش العظيم أنفق الشاه مئات الملايين على إقامة الخيام الذهبية . وعلى لحم الطاووس . وعلى سجاجيد الملوك والرؤساء . وعلى ملابس الجيش ، وعلى إضاءة طهران وبريسبوليس . وإقامة فنادق جديدة . ويومها جمعت إيران نوعين من الكائنات وأبعدتهما عن عيون الضيوف : الأفاعى والشحاذين . . واستفادت إيران بالأفاعى . فقد بعثت بها إلى معهد الفخر الرازى بالقرب من طهران . حيث يستخرجون الأمصال من سموم الأفاعى والعقارب والعناكب لعلاج الذبحة والروماتيزم . . أما الفقراء فقد اختفوا عن العيون والآذان ليظهروا بعد ذلك فى مظاهرات خرساء ، ثم فى مظاهرات صاخبة . .

ومع الأسرة المالكة عاش الإقطاعيون والرأسماليون واليهود . ولذلك فقد جمعتهم الثورة فى سلة واحدة . وتمنت إحراق الجميع . .

إن الشاه أراد أن يكون هو قورش العصر الحديث . ولذلك فولى العهد اسمه قورش أيضا . فهل كانت مهرجانات بريسبوليس هى «العشاء الأخير» لشاه إيران ؟! إن الذى حدث وسوف يحدث فى إيران ليس إلا نموذجا لما يمكن أن يطبق فى بلاد أخرى مشابهة . فإذا نجحت التجربة الثورية فى إيران انتقلت عدواها بنفس الأسلوب إلى بلاد غيرها قريبة منها . .

ولذلك فالشرق الأوسط يتعرض إلى مخاض «عنيف» يسبق ولادة صيغ جديدة . ولا يمكن أن تكون الصيغ الجديدة إلا كسبا للشعوب التى تجاهلتها الحكومات المطلقة فى المنطقة . . ولذلك فلن يكون استقرار عشرات السنين . .

ومن مظاهر الخوف أن بعض الدول العربية ، بدأت تتحد على كذب وعلى تضليل - كالذى يحدث بين سوريا والعراق . فالذى بين سوريا والعراق أبشع من الذى بين روسيا والصين ، وكل ما بينهما من اتفاق هو أن سوريا اسمها دولة البعث الرائد ، والعراق اسمه : دولة البعث القائد فسوريا هى رائدة البعث ، لأن ميشيل عفلق السورى هو صاحب فلسفة البعث التى تبنتها سوريا ثم طردته . فذهب إلى العراق هاربا من بلده . .

وإذا كان اتفاق بين البلدين فلصالح سوريا ، فسوريا فى حاجة إلى أموال العراق ثمنا للبترول الذى سوف ينساب من كوكوك فى شمال العراق إلى ميناء بانياس على البحر الأبيض . وسوريا فى حاجة إلى التجارة مع العراق ، بعد أن استولت على أسواق لبنان . ثم هدمت لبنان على من فيها من المسلمين والمارون والفلسطينيين . ولا أحد يعرف لماذا دخلت سوريا لبنان ولا كيف تخرج منها . ولا أحد ناقش ذلك فى مؤتمر بغداد !

ولكن لابد أن تخرج سوريا من لبنان هذا العام ، ولذلك فسوف تحاول عصابة العلويين أن تجد لها «تعلة» أو سببا أعرج لخروجها . . وفى نفس الوقت تشغل الشعب السورى بشىء يعوضه عن الخسارة الفادحة فى أرواح الناس وأمنهم وتجارتهم - وتجارتهم هى الأهم . وبعد سقوط عصابة العلويين سوف تعود سوريا إلى ما كانت عليه : انقلاب اليوم على انقلاب الأمس استعداد لانقلاب الغد !

وسوف ينفرد العراق بدول الخليج التى يعامل شعوبها على أنها رعاياه .

ولهذا السبب فالاستقرار فى إيران كان ضمانا وأمانا لدول الخليج ، لأن إيران كانت قادرة على حمايتهم من العدوان العراقى . أو من التسلل الشيوعى إلى سلطنة عمان - مثلا - أو إلى إمارات الخليج ، وسوف يبدأ التسلل الشيوعى إلى الكويت قبل أية دولة أخرى . فالجو مهيأ تماما لذلك !

والعراق أكثر تهورا من الاتحاد السوفيتى . لأن السوفيت لهم حسابات مع أمريكا . وهم إذا دخلوا بلدا فإنهم يحاولون قبل ذلك أن يكسبوه قبل أن يكبلوه . .

أما العراق فقادر على الاغتيالات والانفجارات . وبذلك تغلى مياه الخليج ، ويفتقد أهلها الأمان الذى سحبته إيران عندما قررت حكومتها الحالية أن تقفل بابها عليها . . عملا بآية فى التوراة تقول : « وهل أنا حارس لأخى » - قيلت هذه الآية عندما قتل قابيل أخاه الوحيد هابيل مدعيا أن أحداً غيره هو الذى قلته ؟!

وإذا كان الشيعة أغلبية فى إيران ، فإنهم أقلية فى باكستان وأفغانستان وتركيا ، وأقلية فى جميع البلاد العربية الأخرى . . وأهل السنة أقلية فى إيران . غير أنها أقلية نشطة . ولها دور كبير فى تثبيت الأوضاع والتيارات الفكرية فى إيران .

ولكن عندمـــا يكون الموقف دينيـــاً ، فـــلا خـــلاف بين المسلمين من كل المذاهب ،فهل هو موقف دينى فى الدرجة الأولى ؟ هل الشاه كان ضد الدين ؟ وهل الحكام الشموليون فى المنطقة ضد الدين ؟

لم يكن الخلاف من أجل قيام «الدينوقراطية» أى حكومة رجال الدين . وإنما الخلاف سياسى اقتصادى اجتماعى دينى .

إن الواجهة دينية ، ولكن الوجهة ليست دينية . .

والقضية الآن : من الذى يسرق الريح من أشرعة سفن الأعداء ؟ أو من الذى يسرق مشاعل الخصوم المتظاهرين ؟ هل يستطيع شاهبور باختيار رئيس الوزراء أن يستعين بالجيش لتسيير المظاهرات له بدلا من أن تسير ضده وضد الشاه ؟!

إن الرئيس محمد داود قد فعل ذلك فى أفغانستان !

هل إذا اعتقل آية الله الخمينى أو قتل يكون ذلك نهاية الصراع بين «آيات الله» وبين جنرالات الشاه ؟ أو هل هى البداية ؟

إن الصورة تغيرت تماما فى منطقة الشرق الأوسط . ولا يمكن التفاوض فى أية قضية دون أن تكون قضية إيران أمام عين الجميع .

فالثورة فى إيران قد أعلنت مقاطعة إسرائيل وحرمانها من البترول . وفى نفس الوقت قتلت عددا من اليهود وهدمت عليهم معابدهم . وكان البترول الذى تعطيه إيران لإسرائيل أحد عناصر فك الاشتباك الثانى . .

والآن وقبل الاتفاق على انسحاب إسرائيل من آبار البترول المصرية ، أعلنت

أمريكا استعدادها لتعويض إسرائيل عن هذا البترول ، فتشترى لها بترولا من المكسيك أو فنزويلا . ولا تزال أمريكا تدفع أكثر ، ولا تزال إسرائيل تطلب تعويضا أعلى وأغلى ! وتحاول إسرائيل أيضا أن تحصل على غاز طبيعى من إنجلترا ومن النرويج .

وإن كانت إسرائيل قد ادعت - كما فعلت يوم ٤ يونيو ١٩٦٧ - أنها اهتدت إلى مصدر جديد للطاقة وذلك بإطلاق أشعة الليزر على نوع من الصخور فتتحول إلى مسحوق إذا عصرته أصبح بترولا جديدا !

والاتحاد السوفيتى بدأ يسفر عن موقفه . فدفع الشيوعيين إلى المظاهرات ضد الشاه ثم ضد الخمينى . لأن الخمينى يدعو إلى جمهورية إسلامية متطرفة . ثم عادت موسكو تؤيد الخمينى - وهو تأييد مؤقت طبعا . حتى تمشى معه بعض الطريق ثم تنفصل عنه أو تنقض عليه - وقد رأينا صورا هزيلة من الاتفاق المرحلى بين اليمين واليسار فى حوادث الشغب يومى ١٨ و ١٩ يناير من العام قبل الماضى . .

كما أن الأمريكان أيضا قد اتضح موقفهم فى نفس الوقت . فتوالت التصريحات الرسمية تدعو للشاه بأن يثبت الله خطاه على طريق الإصلاح الجذرى . . وفى نفس الوقت تتصل أمريكا بآية الله الخمينى ، وتبعث إليه بالنائب العام السابق . .

ولم يذهب الشاه إلى أمريكا حيث تعيش أمه وأخواته وأولاده . لأن أمريكا لم ترحب بسفره بل لم تدعوه رسميا . وأخطر من أن أمريكا أرسلت قائد الطيران روبرت هيزر إلى إيران . والتقى بالشاه وأبلغه كلمة السر المتفق عليها مع السوفيت : دورك انتهى !

وهذا يذكرنا بما فعله السوفيت أنفسهم فى تشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٦٨ عندما أرسلوا الماريشال جريتشكو إلى براج ليقابل رئيس الوزراء دوبتشك ويقول له : دورك انتهى !

وتحركت أمريكا إلى أبعد من ذلك فأرسلت طائراتها إلى السعودية !

وكان ذلك نقطة تحول وأول شفاء من عقدة فيتنام . التى تولدت عند الأمريكان بسبب أبشع هزيمة أصيبت بها فى كل العصور ؟

فهل صحيح دور الشاه انتهى ؟

فالجيش لا يزال قويا . ولايزال مواليا للحكومة الشرعية القائمة . الموالية للشاه ، أو للنظام الملكى . ولم يتصدع الجيش بعد . ولم تنشب حرب أهلية بين طبقات الشعب وفئاته وبين الجيش . .

فالجيش لم يجد نفسه بعد فى وضع يدفعه إلى القيام بانقلاب عسكرى لصالح الشاه أو ضده . لا أحد يعرف . فنحن نرى ونسمع من بعيد . . والذى نسمعه مضطرب . والذى نتمناه هو السلامة . .

ولما طلب الرئيس السادات إلى شاه إيران أن يجىء إلى مصر فى طريقه إلى أمريكا . فلأن الرجل فى محنة . ولأنه وقف إلى جوار مصر فى محنتها . إبان حرب أكتوبر وبعدها ، ولأنه أيد مصر فى مبادرة السلام ، فيوم هبط احتياطى البترول عندنا ، أمر الشاه بأن تتحول ناقلات البترول من أوروبا إلى الإسكندرية ، ويوم عجزنا عن بيع القطن دفع لنا ما يعادل ثمن القطن ، ويوم تأزمت المواصلات ساهم الشاه فى تفريج هذه الأزمة ، فبعث إلينا بثلاثمائة أتوبيس مرسيدس . أحرقت مظاهرات ١٨ و ١٩ يناير أربعين منها . ولم ندفع مقابلا لذلك كله ، فقد شاء الشاه أن يجعلها قروضا مؤجلة السداد .

وفى تكريم الشاه تكريم وامتنان للشعب الإيرانى كله .

وسوف يعود الشاه إلى القاهرة ليقيم فيها على نفقته . واشترط ذلك ، وأصر عليه .

وبدأ المحللون لسياسة إيران يتعجلون سير الأحداث . ويقلبون فى كتب التاريخ ليجدوا نظيرا لما سوف يقع . .

وهناك من يقول إن الذى نراه فى إيران أو فى المنطقة ليس له نظير فى التاريخ . فلم ير القرن العشرون ثورة دينية . .

ويرون أيضا أن الموقف أخطر بكثير جدا مما نتصور . فنحن أمام إعادة ترتيب «البيت الإسلامى» . فالبلاد الغنية بالبترول هى البلاد الإسلامية ، ففيها الدين والدنيا ، ولذلك فقد أضاعت الدين .

والبلاد التى بها دين وليست لها سياسة : فالدين سياسة . .

والبلاد التى بها سياسة وليس لها دين : فالسياسة دين .

وعلى ذلك فكل الحروب دينية أو لها أساس دينى ، أو كأنه دينى . .

وقد أصدرت مؤرخة فرنسية اسمها هيلن ديكوس كتابا عن الاتحاد السوفيتى ، بعنوان «الإمبراطورية المتصدعة» تتحدث فيه عن المسلمين فى الاتحاد السوفيتى ، وعددهم ثمانون مليونا يعيشون بالقرب من إيران وأفغانستان ، وهؤلاء المسلمون ليسوا كوالين للماركسية . بل إنهم متمسكون بدينهم ، ولا تستبعد المؤلفة أن يتماسك المسلمون فى الإتحاد السوفيتى وتكون وتكون لهم دول مستقلة ، أو يطالبوا بذلك . .

ويحرص الاتحاد السوفيتى على ألا تكون لهؤلاء المسلمين أية صلة بالدولة الإسلامية . وفى نفس الوقت لا يستطيع الروس أن يتعرضوا للدول الإسلامية حتى لا يثيروا المسلمين السوفيت . . أو حتى لا يوقظوا العقيدة الدينية . وإن كانت هذه العقيدة قد تيقظت وعملت ضد الماركسية والإلحاد وترى المؤلفة الفرنسية أن محمدا ﷺ يكتسح ماركس فى روسيا !

فهل نحن حقا نرى ترتيبا جديدا للخريطة الإسلامية فى المنطقة وفى العالم كله ، إن الذى نراه فى ليبيا هو محاولة لذلك ، ففى ليبيا : إسلام متعصب لدرجة الخروج على الإسلام . وفى نفس الوقت هناك وجود سوفيتى ألمانى شرقى كوبى فى ليبيا وفى أفغانستان وباكستان واليمن الجنوبى . . وفى أثيوبيا المسيحية أيضا . .

ويقوم السوفيت بتشديد التعصب لهم فى هذه البلاد . ولذلك رأينا الاغتيالات اليمنية ، وسوف نرى التخلص من منجستو ، وسوف نرى صورا وأشكالا للاضطرابات على حدود باكستان وأفغانستان من قبائل البلوخ . . وسوف نرى تحريكا جديدا للأكراد على حدود سوريا والعراق . .

ثم راح المؤرخون يقارنون بين شاه إيران وبين الملك تشارلز الأول (١٦٠٠ - ١٦٤٩) الذى حاكموه وأعدمه الجيش الذى كان يعتمد عليه . .

ويرون فى شاه إيران صورة جديدة للويس السادس عشر (١٧٥٤ - ١٧٩٣) الذى أعدمته الثورة الفرنسية . .

ويرون فيه أيضا صورة لنيقولا الثانى آخر قياصرة روسيا والذى أعدمته الثورة الشيوعية . هو وجميع أفراد أسرته . .

وإنها لصدفة غريبة أن يزوره فى أسوان ملك اليونان قسطنطين الثانى آخر ملوك اليونان والذى هرب سنة ١٩٦٧ أمام انقلاب عسكرى . .

وصدفة أخرى أن يموت الفنان الكبير صلاح منصور أثناء وجود الشاه فى أسوان .

وصلاح منصور قد مثل على الشاشة : الملك فاروق آخر ملوك مصر . والإمام أحمد آخر ملوك اليمن ورومولوس العظيم آخر أباطرة روما !

إن أوراق اللعب كثيرة ومتنوعة على مائدة السياسة . . إن كرات كثيرة فى الملعب . . إن هناك عددا كبيرا من الأيدى الظاهرة والخفية . . ولابد أن نتنبه جميعا إلى أن الذى حدث فى آسيا وفى إيران قد فتح شهية دولتى الوفاق . ولا تزال القيم الأخلاقية سند الدول الصغيرة . والمصالح المادية حافز الدول الكبيرة ، وإذا كانت السياسة هى فن السفالة الأنيقة . فيجب أن نحترس ونحن نصافح الدول الأعظم .وإن نعد أصابعنا بعد ذلك - وليست هذه نكتة ولا محاولة لأن أخفف وطء الواقع المر . إنما يجب أن نتنبه إلى ما نحن مقبلون عليه . . وأن نسارع بتحرير أنفسنا قبل أن نضطر إلى ذلك وبعنف . فإيران ليست بعيدة عن أحد . .

أما نحن فى مصر فقد تجاوزنا مرحلة تحرير القرار المصرى منذ قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ . وما عانيناه بعد ذلك ليس إلا ثمنا فادحا لحريتنا . . وليست حرب أكتوبر إلا خطوة فى طريق التحرير . والمبادرة تكملة ونتيجة لذلك ، وما زلنا نحاول ونجاهد ونعانى والدعوة إلى التحرير مفتوحة للجميع . .

وقد أعلن آية الله روح الله الخمينى : إن إيران فى حاجة إلى عشر سنوات من الاستقرار والاستمرار فى العمل لكى تعود إلى ما كانت عليه . .

وقال الشاهنشاه أيامها للرئيس السادات : إن إيران فى حاجة إلى خمسة عشر عاما من الاستقرار والاستمرار فى العمل لكى تعود إلى ما كانت عليه . .

وعندما خرج شاه إيران وزوجته من مطار مهراباد تساقط عند قدميه بعض المواطنين يستجيرون به أن يبقى ، فقد أحس الناس بأنهم يتامى . وأنه أبوهم الذى فارقهم على غير اتفاق وانحنى الشاه وكذلك الشاهبانو تحت صينية من الفضة انفتح فوقها مصحف كريم على سورة «الواقعة» . هل هى صدفة أيضا ؟ لا أحد يعرف . فسورة «الواقعة» تقول : ﴿ إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة . خافضة رافعة . إذا رجت الأرض رجا . وبُست الجبال بسا . فكانت هباء منبثا . . . ﴾ صدق الله العظيم .

ولم ير الشاه المصحف ، وإنما قال ووجهه إلى الأرض والدموع الساخنة تذيب عينيه : اللهم احفظ إيران !

اللهم احفظ إيران إذا غيرت واجهتها . وإذا غيرت وجهتها .

هذه السجادة العجمية لابد أن تتغير ألوانها!!

انتهت سنة ١٩٧٨ منذ أيام ، ولكن تغيرت الصورة فى الشرق العربى الأوسط والبحر الأبيض والخليج والبحر الأحمر ، وسوف تتغير أكثر وأعمق وأعنف ، وهذا ما توقعه الرئيس السادات منذ سنة فى هذا المكان عندما تحدث عن «المخاض» أى آلام ولادة شيء جديد . وظهرت فى المنطقة آلام بلا ولادة وظهر حمل كاذب ، ولكن لابد أن يولد شيء جديد ، أرادته الحكومات الغربية العجيبة التى تحكم شعوب المنطقة .

ففى عالمنا العربى . . ما الذى أسفر عنه مؤتمر بغداد ، وهو تجمع عدد من الأشقاء ليقولوا كلمة نافعة من أجل تحرير سيناء والجولان وفلسطين المحتلة والقدس ؟ . .

ولم يختلف هذا المؤتمر عن مؤتمرين آخرين فى طرابلس وفى دمشق ، فقد جاء تقليدا وتخليداً لعشرات المؤتمرات قبل ذلك اتفق فيها العرب على كلمة واحدة : لا . . .

وهم يقولونها لأية محاولة لاتخاذ موقف إيجابى يدفعنا أو يدفع بنا قضيتنا إلى الأمام . وبعض هذه الدول ترفض ما يجيء من مصر . مع أن التاريخ يؤكد قديما وسوف يعيد ذلك مستقبلا ، وأن التغيير يجيء من مصر ، وبعدها تنسى بقية الدول العربية أو دول المنطقة ما الذى غيرها أو ما الذى حررها ! وليس الآن مجال عن هذا السؤال : إلى من يرجع الفضل فى ذلك ؟ . وحتى لا نبعد كثيرا عن سياق الموضوع ، فإننا نبادر ونحسم ذلك بأن نقول : لا فضل لأحد على أحد . . إنه التاريخ ومنطق التاريخ ، ومعنى ذلك أنه لا حيلة لنا ولا حيلة لهم في أن يحدث ما قد حدث أو ما سوف يحدث .

ففى بغداد التقى الأضداد : بعث العراق وبعث سوريا . وجلس الاثنان فى حجر الاتحاد السوفيتى أو على كتفيه . وتطلع العالم كله ليرى ما الذى سوف يفعله بهم ولهم الاتحاد السوفيتى أو ما الذى سيفعله للقضية العربية ، أو ما هو «البديل» الذى

سيقدمه ؟- أى ما هو الحل الآخر غير الذى اتفقت عليه أمريكا ومصر وإسرائيل منذ مبادرة السادات حتى اليوم ؟ .

وقد أسفر لقاء الأضداد أو تلاقى المتنافرين عن خلافات جديدة ، وعن خلاف مع الاتحاد السوفيتى نفسه . فقد كان المتفق عليه أن يسافر صدام حسين وحافظ الأسد إلى موسكو ، ولسبب سوفيتى غير واضح الآن تأجل سفرهما ، ولا يستبعد أن يلتقيا فى موسكو فى هذا الشهر . وقد أعلنت سوريا أن الاتحاد السوفيتى ليس مستريحا إلى سياستها ، وأنه لذلك سوف يعيد النظر فيها ، ولا بد أن يعيد السوفيت النظر إلى الدعم الذى تلقته سوريا وقدره مليار و ٨٠٠ دولار لأنها مبالغ فاتحة للشهية ! .

ولكن من المؤكد - وقياسا على تجارب مصر مع السوفيت وشعوب أخرى فى أفريقيا والمنطقة - سوف يخذل السوفيت سوريا ، وسوف يرفضون مطالب العراق أو يرفضون العراق الذى أعدم عشرات الشيوعيين أمس وأول أمس .

وقبل ذلك عندما تهربوا من مساعدة الرئيس السادات تعللوا بأن قادة الكرملين فى شبه جزيرة العرب - ستة أشهر على شواطىء البحر الأسود ، وستة أخرى مشغولون فى الكرملين - أى أن مصر إما أن تضرب رأسها فى الحائط أو تقبل أية مساعدة تافهة تؤدى إلى هزيمتها أمام إسرائيل ! .

ولن يمضى وقت طويل حتى يتأكد أن هذا الوفاق بين بعث العراق وبعث سوريا ، لا يختلف عن وفاق الكويت والعراق : قابل للكسر وبسرعة . وسوف نرى .

ولم يسفر عام ٧٩ عن توضيح لموقف سوريا فى لبنان ، فقد دخلت سوريا لبنان لكى تحل مشاكلها الداخلية وتمزقاتها الحزبية وتضع عليها ستاراً من الدخان والنار والدم والطين والعار ، وكانت سوريا - وكذلك هواة السياسة الدولية - تعتقد أن دخولها لبنان سوف يحقق لها أهدافها القديمة فى أسبوع واحد ، وبعد هذا الأسبوع تقوم دولة سورية الكبرى ، وبعد ذلك الهلال الخصيب ويبتلع الشعب الفلسطينى ويصبح الرئيس الأسد زعيما للأمة العربية دون نزاع على عظمته ، وحاكما لسوريا الصغرى ولبنان والأردن .

ونحن نعلم علم اليقين أن من بين الزعماء العرب من كان يساعد الرئيس الأسد ويوافقه على ذلك تماما ، خلاصا من المنظمات الفلسطينية وقهرا لها وإسكاتاً لنيرانها على حدود لبنان وإسرائيل ، وردعا لها فى كل البلاد العربية الأخرى ،

وبـذلك تنحـل المشكلة الفلسـطينية واللبنانيـة بالقضـاء على الشـعبين فى وقت واحد ! .

ومضت مئات الأسابيع ولم تسفر عن حل ، بل إننا رأينا القوات السورية تضرب المسلمين والمسيحيين والفلسطينيين وتغتال الأبرياء . والعالم العربى كله يتفرج على ذلك . . رغم مؤتمرات القمة التى انعقدت ، بل إن مؤتمر بغداد نفسه لم يمس الوضع فى لبنان . . بل لم يذكر الفلسطينيين . حتى أعلن أحد زعماء الفلسطينيين أنه كاد يفقد عقله عندما رأى مئات الملايين تتطاير يمينا وشمالا دون أن يصيب منها شيئا ! .

ولم يقل هذا الزعيم الفلسطينى ذلك لأحد ، وإنما أعلنه همساً . . لأنه لا يجرؤ أن يعرض بسوريا التى تتاجر فى مصائر الشعوب باسم تحريرها – وسوريا تحرر الشعب الفلسطينى من العذاب بتصفيته والقضاء عليه ، ولم تنته المأساة بعد ، ولا تعرف سوريا كيف تخرج من هذا العار القومى .

إما الأردن فإنه يلهث وراء سوريا لعل الرئيس الأسد يحقق للملك حسين ما يريد من الإبقاء على الأردن وعلى الضفة الغربية .

والملك حسين يتسم سلوكه السياسى بشيئين : الخوف من سوريا . . وسوء الظن بمصر ، ولذلك كان خاطئا مع مصر تماما ، ومع سوريا أيضا ، والنتيجة أنه معزول وليس له دور واضح ، وهو يحاول أن ينتظر «الذبيحة» حتى تنضج . . أما الذبيحة فهى الضفة الغربية . ولو كانت حسابات عصابة العلويين فى سوريا قد نجحت واجتاحوا لبنان أو مزقوها نصفين لاستولوا بعد ذلك على الأردن . . إلى آخر أحلام البعث فى سوريا وغيرها ، أما أحلام البعث المجنونة حقا فهى زعامة الأمة العربية . كيف ؟ . . إن مجلة فرنسية هى «نوفيل» أو بسيرفاتور هى التى قرأت كف الرئيس الأسد وقالت له : بعد نقطتين . . يومين . . شهرين . . سنتين سوف تكون على حصان أبيض ينطلق دون مقاومة من بغداد إلى الرباط ! .

وما زالت الشيكات تتوالى سرا على الرئيس الأسد ، أملا فى القضاء على الفلسطينيين ، ولا يزال يفعل ! حتى كتابة هذه السطور ، فقوات الردع تغتال الشعب الفلسطينى !

ولا يستطيع قارىء كف أو قارئة فنجان أن تعرف ما الذى سيصير إليه لبنان ؟ . . هل يعود دولة ؟ دولة موحدة ؟ أو دولة واحدة ؟ هل تتحقق أمنية إسرائيل فى قيام

الدولة المارونية تحت حمايتها ورعايتها وبمساعدة المسلمين السوريين وملايين الدولارات تجيء سرا من دول إسلامية أيضا ؟ .

وعلى الجانب الآخر من مصر نجد ليبيا إحدى دول الرفض ومؤتمر بغداد ، ولا أحد يعرف ما الذى يريده الرئيس القذافى غير إدخال السرور على الناس فى العالم كله . إنه مسلم ماركسى . إنه غنى قد فرض الفقر على الناس . أى جعل الناس فقراء يطالبون بالشيوعية لتنصفهم من الأغنياء - وقد أنساهم القذافى أنهم أغنياء .

حتى الصحف التى ينفق عليها القذافى فى باريس قد توقعت فى الأسابيع الماضية انقلابا عليه ، ووصفت تمردا على السوفيت والألمان الشرقيين والكوبيين ، وهى التى صفت ثلاث محاولات فاشلة لاغتيال القذافى الذى يتحرك وسط ترسانة من الألمان والكوبيين والسوفيت .

ولا تزال الخرافات تستبد برأس القذافى ، فهو يطالب كل صاحب سيارة خاصة أن يتركها فى الشارع لتكون فى متناول الجميع ، فالسيارة لمن يركبها . والبيت لمن يسكنه ، والأرض لمن يفلحها ، والبلاد لمن يحرسها . . ولا يحرسها . . إلا السوفيت الذين استقروا على شواطىء ليبيا التى طولها ألفان من الكيلو مترات ، اتخذوها للتجسس والاستطلاع ورصد حركات الأساطيل البحرية والجوية ، كما اتخذوا ليبيا كلها نقطة وثوب للعدوان على أفريقيا وغيرها .

وإذا كانت سوريا والعراق قد أخفتا رغبتهما فى الارتباط بالسوفيت أكثر وأكثر فإن القذافى قد صارح بضرورة أن تكون ليبيا عضوا فى «حلف وارسو» .

أما الموقف الجديد للسوفيت فسببه هو أن روسيا تريد بيع السلاح لسوريا بالعملة الصعبة وفورا ، وتريد ما هو أهم من ذلك . . «معاهدة صداقة» . وسوف تفعل سوريا ذلك ، وكانت قبل ذلك تعترض على معاهدة الصداقة المصرية السوفيتية ، وترى فى ذلك جريمة كبرى ، بينما رأت مصر أن مثل هذه المعاهدات لا تخيف . فبقاء هذه المعاهدة مرهون بموقف السوفيت ، إن وفوا بالتزاماتهم بقيت ، وإن أخلوا بها سقطت ، وقد ألغاها مجلس الشعب المصرى بعد خمس سنوات بالإجماع إلا صوتين اثنين ! .

أما الآن فلابد من هذه المعاهدة مع السوفيت ، ولابد من أن تدفع سوريا مبلغ الألف والـ ٨٠٠ مليون دولار التى تلقتها فى بغداد !

وفى الأسبوع الماضى وقف دبلوماسى ليبى فى حفلة أقامتها سفارة سوفيتية فى أوروبا . . يلعن اليوم الذى جاء فيه الروس إلى ليبيا ، واضطر السفير الليبى إلى إخراج هذا الدبلوماسى بدعوى أنه مخمور قليلا ، وكان الدبلوماسى يصرح ويقول : بل أنا حاج ومؤمن بالله وكتبه ورسله ! .

وليس هذا هو الحادث الوحيد فى الثورة على السوفيت وأذنابهم من الألمان الشرقيين والكوبيين ، فقد نشرت صحف القذافى فى باريس أن ذلك حدث كثيراً ! .

والجزائر إحدى دول الرفض أيضا ليست أحسن حالا ، ولن تكون بعد وفاة بومدين .

ومصر تذكر للرئيس بومدين ، بل العرب جميعا يجب أن يذكروا له ، سياسة التعريب التى تزعمها ، وهى أعظم إنجازات الرئيس الراحل . فقد حارب المواطنين المتفرنسين الذين يعلنون دائما أنهم ليسوا عرباً . وأن اللغة الفرنسية هى اللغة الأم . وأن اللغة العربية يجب أن تكون اختياراً ، ولكن الرئيس الراحل أصر على ذلك وفرضها على الرجال والأطفال ، وفرضها فى الإذاعة والتليفزيون ، وجعل تعلم هذه اللغة شرطا من شروط الترقى والتقدم فى الوظائف الحكومية .

وأذكر أننى قلت للرئيس الجزائرى بومدين . على مسمع من زملائى المصريين : إن عددا من الوزراء يعتذرون عن عدم مقابلتى ! .

فضحك رحمه الله قائلا : لسبب لا تعرفه أنت . . إنهم يخجلون منك فهم لا يعرفون اللغة العربية ! .

وكل ما نتمناه . والأمة العربية أيضا ، أن يجىء خليفة بومدين عربيا ، لا خجولا من اللغة العربية مستسلما للغة الفرنسية ، وإلا كانت نكسة كبرى على ألسنة الجزائريين وانحسارا للمد العربى فى المغرب العربى .

وموقف الرئيس بومدين أثناء حرب أكتوبر قد أشاد به الرئيس السادات فى أعداد من هذه المجلة عندما تحدث عن «العلاقات المصرية السوفيتية» ، فقد ذهب الرئيس الجزائرى سرا إلى موسكو ، وعرض على السوفيت مائتى مليون دولار ثمنا لأسلحة يبعثون بها لمصر وسوريا . ولكن الذى ضايقه هو هجوم السوفيت على

الرئيس السادات . وقد جاء على لسان الرئيس السادات فى مذكراته التى نشرها فى هذه المجلة وفى حياة الرئيس الجزائرى :

«إن الرئيس بومدين قد قال لى : إذا كان اليهود يريدون هزيمتك قيراطا فإن السوفيت يريدونها ٢٤ قيراطا !» .

ونقل عن الرئيس الجزائرى أيضاً قوله : إن اللغة التى يتحدث بها السوفيت عنك تبعث على القرف ، إنهم يشتمونك بألفاظ نابية جعلتنى أنهى هذه الصفقة وأعود لأصارح مجلس الثورة الجزائرى بكل ما حدث !

ومن المؤسف الآن أن الجزائرى ليس فيها رجل فى وزن الرئيس بومدين . . غير سبعة أو ثمانية من الثوار لايرقون إلى مستوى بومدين ، ولذلك فلن يكف الصراع بينهم لعشر سنوات قادمة مع الأسف ويقال - وهم الذي يقولون - ربما اختاروا بوتفليقة خليفة له . ويقولون أيضا إنه سوف يمشى على سياسة بومدين ، وهو لذلك معتدل ، وهذا يدخلنا فى مزيد من الغموض . . فإذا اتبع بوتفليقة سياسة بومدين المتطرفة فما معنى أن يكون معتدلا فى تطرفه أو متطرفا فى اعتداله ؟! إن الرئيس بومدين بدأ فى الجزائر «حكما» بين المتصارعين ثم انتهى «حاكما» مفردا ، أو بعبارة أخرى بدأت ولايته للجزائر بعد أن تخلص من صديقه بن بيلا ، مثل حكم فى مباراة بين فريقين . وانتهى بعد ذلك بأن أفرغ الملعب من اللاعبين وأصبح اللاعب الأوحد . . أو الحاكم الأوحد .

ويقول الرئيس السادات : إن الرئيس الجزائرى بومدين قد صارحنى فى صيف ١٩٧٧ بأنه لا داعى مطلقا للديموقراطية أو لسيادة القانون . وأنك تقفز بالشعب المصرى وتحرج الشعوب العربية . إن شعوبنا لاتقوى على الحرية ، إنها تحتاج إلى أن نكون أوصياء عليها !

والرئيس بومدين قد أصاب فى أن الديموقراطية فى مصر تهدد النظم العربية وغير العربية فى المنطقة ، ولكنه أخطأ فى أن تظل شعوبنا عاجزة لا تتولى أمورها بنفسها وأن ندفعها إلى ذلك وأن نصبر عليها ، أى نصبر على أنفسنا . ولكن لا رجوع عن الحرية ولا بديل عن الديموقراطية .

ولا أحد يستطيع أن يتكهن بالذى سوف تفعله الجزائر فى عهدها الجديد مع المغرب أم مع ليبيا أو مع الاتحاد السوفيتى ، إننا نعرف ما الذى يقوله الحاكم عادة ،

أو ما الذى يقوله إذا كان صغيراً ، إنه سوف يبقى على كل شىء كما هو ، وبعد ذلك سوف يركب رأسه ويتطرف يمينا أو شمالا ، ولكنه فى جميع الأحوال لا يستطيع أن يقاوم مسار التاريخ فى بلاده أو فى المنطقة العربية أو الشرق الأوسط . .

ولكن كم يستغرق ذلك من الوقت ؟ . . إن أحدا منا أو منهم لا يدرى !

واستكمالا لدول الرفض لابد أن نتعرض ، مع عظيم الاحتقار ، لليمن الجنوبية ، التى أصبحت قاعدة سوفيتية تماما ، تقف عند شواطئها قطع الأسطول السوفيتى ، وفى مطاراتها مئات الطائرات المتطورة لنقل الرجال والعتاد إلى الحبشة . ومن اليمن الجنوبية اغتال السوفيت لأول مرة زعيما عربيا !

وسوف تكون اليمن الجنوبية قاعدة للتسلل شرقا إلى الإمارات العربية . وشمالا إلى اليمن الشمالية والسعودية .

والكويت انضمت إلى جبهة الرفض ، وإن كانت الكويت تنكر ذلك . ولكن موقف الكويت فى مؤتمر بغداد ، والورقة التى تقدمت بها ، والمداولات التى اشتركت فيها قد نفخت الكويت فتعاظمت واتخذت شكلا أكبر من حجمها .

وهناك من يبرر للكويت موقفها بأن أهل الكويت - مثل آخرين - أقلية فى بلادهم ، وأن الأغلبية المتسلطة على أجهزة الإعلام من الفلسطينيين ، وأن الشعب الكويتى مغلوب على أمره ، وأنهم أكثر الشعوب العربية حاجة إلى تحرير إرادتهم الوطنية . . ولكن مشكلة الكويت أنها عاجزة حتى عن تقرير هذه الحقيقة . كما أنه ليست هناك مبالغة فى أن توصف الكويت بأنه «الضفة الغربية للخليج» .

أما حساب الكويت فسوف يجىء حالا ، لا من خارجها فقط ، ولكن من داخلها أيضاً - وسوف يكون ذلك شيئا يبعث على الأسف . . فهى أولا وأخيراً دولة عربية شقيقة .

***

أما السعودية فلها رصيد عظيم فى قلب كل عربى ومسلم ، ولكن لأسباب غامضة إلى حد كبير ، شجعت السعودية الصحف ووكالات الأنباء على أن تسىء فهمها ، فقد نقلت وكالات الأنباء أنها سوف تعترف بالإتحاد السوفيتى ؟! .

وكان الملك فيصل لا يمانع فى ذلك بشرط - والشرط معروف - فهل تغير هذا الشرط أو رأت السعودية العدول عنه ؟ . . لا أحد يعرف .

ولا يزال الغموض يشوب السياسة السعودية . عربيا ودوليا . فهل صحيح ما نشرته وكالات الأنباء ؟ وهل هم السوفيت وراء ذلك تعميقا للخلافات العربية أو توسيعا للاختلافات بين وجهتى النظر الأمريكية والسعودية ؟ . .

أما الدول التى وقفت إلى جوار مصر فى سياستها الجادة الإيجابية الواضحة دوليا فهى : المغرب والسودان وعمان والبحرين والإمارات والصومال وموريتانيا وتونس .

حتى لبنان قد اعتذر عن ذهابه إى مؤتمر بغداد أو عن تصريحات الرسميين لظروفه الخاصة . ولا أحد يلوم لبنان . فقد احتلتها دولة عربية وحطمته ومزقتها باسم الدفاع عنها . والدولة التى مزقت لبنان تمزقت . والتى غزت لبنان انكسرت . والتى دخلتها لا تعرف كيف تخرج منها . .

وإذا كان لا بد من وضع أحداث ١٩٧٨ فى عبارة فأقربها إلى الصحة أن : مؤتمر بغداد قد جمع بين المتنافرين ليؤكد الخلاف بينهم جميعا .

ولو قدر لرسام كاريكاتير أن يشهد هذا المؤتمر لأوقف الحاضرين الواحد فوق الآخر وجعل منهم كلمة لا .

للمرة المائة . . ما الذى كسبته القضية ؟ وما الذى كسبه الفلسطينيون ؟ . من المؤكد أن أسعد الناس جميعا هو مناحم بيجين ، فقد تفرق العرب دون نيران يهودية ، ودون تدخل من إسرائيل أو من أمريكا أو من روسيا ، إنما العرب قد تكفلوا بهذه المحن . . أو بهذه العقوبة . كأنه مكتوب على العرب أن يحاربوا العرب ، لينصرفوا عن محاربة العدو . وتمكينا له من أن يزداد قوة ليصبح قادرا على تمزيقهم بالهزيمة ، بدلا من تمزيقهم بالحقد على دولة انتصرت على اليهود هى : مصر ! .

* * *

وكان يحلو للمؤرخين الساسيين أن يصفوا الشرق الأوسط بأنه «سجادة عجمية» متعددة الألوان ، أو أنها مختلفة الأشكال ، وأن جمالها أن تظل كذلك ! .

ولا أحد يعرف من الذى ينظر إلى الشرق الأوسط ويرى أن الخلافات التى به هى من معالم الحسن والجمال ؟ . . ليس العرب أنفسهم ، إنما الدول العظمى وإسرائيل أيضاً ! .

ثم جاء الدور على البلد الذى هو مصدر السجاجيد العجمية فى العالم : إيران .

إن إيران نفسها لم تعد سجادة عجمية ، فقد اتخذت لونا واحدا ، أو أصبح لونها الغالب هو الدم والدخان ، أما اللون المغلوب على أمره فهو الشاه وأسرته .

هل ما حدث فى إيران كان مفاجأة للشعب الإيرانى ؟ . هل كان مفاجأة للأسرة المالكة ؟ . . هل كان مفاجأة للسوفيت الذين بينهم وبين إيران ١٥٠٠ كيلو متر من الحدود المشتركة ؟ . . هل كان مفاجأة لألوف الأمريكان العاملين فى الجيش وفى آبار البترول ؟ .

هل هى ثورة دينية ؟ . . . هل هى دعوة إلى «الديموقراطية» - أى حكم رجال الدين الإسلامى من الشعية ؟ هل يتوارى تحت «قفاطين» رجال الدين عدد من الشيوعيين ؟ . . هل تتجه إيران إلى اليمن المتطرف أو اليسار المتطرف ؟ . .

كيف تتفرج أمريكا على أقوى دولة فى الشرق الأوسط وأقوى صديقة لها ؟ هل كان من الصعب على أمريكا أن تقف مع طرف ضد طرف ؟ هل فشلت أمريكا فى نصح الشاه أن يتولى بنفسه إصلاح الأوضاع وملء الهوة الهائلة بين الطبقات ، وبذلك يرفع عنها حرج التدخل مع أحد ضد أحد ؟ . . هل صحيح أن أمريكا لا تستطيع أن تتدخل لأن روسيا قد أعلنت أن أى تدخل فى إيران يعتبر تهديدا لها ؟ .

من المؤكد أن الذى حدث فى إيران قد أضعفها . ولكن الشعب الإيرانى هو وحده الذى سوف يختار ما يناسبه فى هذه المرحلة المبكرة من تغيير نظام الحكم .

ومن الغريب أن العلاقة بين إيران وأمريكا ترجع إلى مرحلة كانت فيها سياسة أمريكا هى «الاحتواء» - وهى سياسة وزير خارجيتها فوستر دالاس على عهد آيزنهاور فيما بين سنتى ١٩٥٣ و ١٩٦١ ، فقد كان يرى دائما أنه لابد من احتواء الدول الصديقة ، ولذلك أدخلت إيران فى حلف بغداد ثم أحلاف آسيا ، وهذه الأحلاف مع حلف شمال الأطلنطى يتكون منها حزام أمان فى مواجهة الاتحاد السوفيتى والدول التى يحتلها .

ومن الغريب أن الشعب الإيرانى يطالب الآن بإخراج النفوذ الأمريكى والإسرائيلى من إيران ، ولذلك امتنعت المطارات عن استقبال الطائرات الأمريكية وتزويدها بالوقود ، كما أن الشعب الإيرانى قد اعتدى على اليهود وهدم معابدهم ، وأول قرارات الحكومة الجديدة هو الامتناع عن مد إسرائيل بالبترول لأنها دولة معادية للإسلام والمسلمين .

وعلى أمريكا التى يرأسها كارتر ، وهو رجل متدين ورجل مبادىء ومثل عليا ، أن تواجه هذه الثورة الدينية فى إيران ، وألا يعاقبه الشعب الإيرانى على ما ارتكبه فوستر دالاس والشاه معا .

وقد كانت السياسة الأمريكية والرجل الأمريكى يلقب فى عهد دالاس بالإنسان القبيح الوجه ، أى الإنسان البغيض فى كل مكان ، وكل ما يحاوله ، ونجح فيه كارتر ، هو أن يجعل الأمريكى إن لم يكن جميل الوجه فهو مقبول الوجه ، وذلك باعتناق مبدأ السلام وحق الشعوب فى الحياة والحرية الشخصية .

وسقوط إيران سوف يكون له دوى رهيب لا فى إيران نفسها ، ولكن فى الشرق الأوسط كله ، واتجاه إيران إلى اليمن المتطرف أو اليسار المتطرف سوف يزلزل النظم فى المنطقة كلها لعشرات السنين . وسوف نصلى ليلا ونهارا بعد اختفاء الشاه ، وندعوا الله أن يجنب إيران ويلات التردى فى أحضان المتطرفين يميناً أو يساراً .

وليس بعيدا ما حدث على حدود إيران ، فأفغانستان ارتبطت نهائيا بالاتحاد السوفيتى بمعاهدة صداقة ، وانهال عليها الخبراء السوفيت فى الوظائف المدنية والخبراء العسكريون ، وعلى الرغم من ذلك فقد أعلنت أفغانستان أنها جمهورية إسلامية ماركسية أى مؤمنة ملحدة . . أى أنها جمعت بين محمد وماركس ، بين الكعبة والكرملين – وهذه أيضا من عجائب المخاض فى الشرق الأوسط .

وبين أفغانستان وإيران حدود مشتركة طولها ألف كيلو متر . . أى أن إيران لها حدود مشتركة مع أقوى دولة ماركسية وأحدث دولة طولها ٢٥٠٠ كيلو متر ، وهذا يؤكد خطورة مستقبل الحكم فى إيران .

وباكستان مثل أفغانستان قد توالت عليها الانقلابات العسكرية ثم الهزيمة المروعة أمام الهند .

وأول مؤسسى باكستان هو القائد الأعظم محمد على جناح ، أو محمد على جنه ، وكان رجلا مرفها إلى أقصى حد . . ومن بعده توالت الانقلابات العسكرية . .

ولم تعرف باكستان حاكما مدنيا إلا رجلا مشلولا هو غلام محمد . وقد أطاح به انقلاب عسكرى مات بعده بشهر .

ولم تنس القوات المسلحة التى تحكم باكستان موقف بوتو – ولذلك سوف تصفى حسابها معه بإعدامه .

ولقد دار حديث بين الرئيس السادات وبين الرئيس بوتو فى المؤتمر الإسلامى سنة ١٩٧٢ وكانت نصيحة الرئيس السادات : لا تتخذ موقفا معاديا من الجيش ، هذه غلطة مميتة كانت وسوف تبقى كذلك فى كل التاريخ وفى كل العصور ! .

وباكستان هى الأخرى قلقة ، ويتنازعها الإسلام والماركسية والأقليات والقوميات .

وفجأة ظهر شيء جديد فى تركيا ، وليس هذا التعبير دقيقا ، فالذى حدث فى تركيا له مقدمات بعيدة منذ أيام الزعيم التركى مصطفى كمال أتاتورك . فقد كان هذا الرجل زعيما عظيما وشخصية جبارة . . وباعثا للنهضة العربية والإسلامية .

وقد روى الرئيس السادات فى العدد الأول من هذه المجلة أنه عندما جاء إلى القاهرة وجد فى بيته صورة لمصطفى كمال لا صورة للملك فؤاد . فقد كان أتاتورك أعظم .

ولكن أتاتورك لم يكن ميالا بطبعه إلى الديموقراطية . . إنما كان حاكما فرداً ، وكان موسولينى وكذلك هتلر يتباريان فى شرف التلمذة على أتاتورك . . وموسولينى قد درس رجلين فى التاريخ هما ميكافيللى الفيلسوف الإيطالى وأتاتورك .

وقد حسم أتاتورك كل الاجتهادات فى فهم شخصيته الغامضة عندما دخل إلى البرلمان ووقف أمام الأعضاء وقال لهم : أنتم لا تصلحون للديموقراطية ولا هى تصلح لكم . . . افتحوا النوافذ ! .

وسارع الأعضاء يفتحون النوافذ ليجدوا البرلمان محاصرا بالمدفعية من كل مكان ، ولم يكن أتاتورك فى حاجة إلى أن يفسر لهم معنى ما حدث فقد كان واضحا تماما ، وخرج من البرلمان ، ومن التاريخ أيضا ، كرجل لا يحب الحرية ولا يحرص عليها ، ومنذ ذلك اليوم والجيش يحاصر البرلمان أو الأحزاب أو الفكر السياسى فى تركيا ، فلا يجرؤ أحد على أن يرشح نفسه دون إذن من الجيش .

وإذا كان الجيش يحكم أفغانستان مائة فى المائة ، فإنه يحكم تركيا ٥٠ ٪ . . ولكنه موجود هناك . . وسوف يظل كذلك . .

وقد قامت المظاهرات العنيفة فى الولايات التركية ، وفى إحدى الولايات حيث الأقلية من الشيعة والأغلبية من أهل السنة ، وهناك مظاهرات تطالب بالرجوع عن كل ما حققه أتاتورك لتركيا ، تطالب بأن يكون الإسلام هو دين الدولة وبالعودة إلى كتابة اللغة التركية بالحروف العربية بدلا من الحروف اللاتينية .

وتركيا مثل إيران وأفغانستان على حدود السوفيت وعند ملتقى البحرين الأبيض والأسود . ولا أحد يعرف إلى أين تسير تركيا هى الأخرى ؟ .

إن موقف السوفيت قد تغير تمام ، فقد كانت سياسة السوفيت ألا يخرجوا بقواتهم وراء حدود الأمن المعروفة - أى خارج حدود الدولة التابعة لهم ، والذى حدث فى المجر ١٩٥٦ وفى تشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٦٨ يبين عنف السوفيت إذا تعرض أمنهم لأى خطر داخلى . لقد سحقت دباباتهم الشعب والمنشآت فى عجينة واحدة من الدم والدخان والصراخ وتحدى العالم كله .

ولكن ظهر عجزهم فى العدوان على مصر سنة ١٩٥٦ وحرب مصر مع إسرائيل سنتى ١٩٦٧ و ١٩٧٣ . . وظهر عجزهم أيام أزمة الصواريخ مع كوبا أمام قوة أمريكا التى دفعت خروتشيف إلى سحب الصواريخ وإلى قبوله تفتيش أمريكا للأسطول السوفيتى . . وإلى إسقاطه هو فى النهاية .

وفى نفس الوقت نجد أن الماركسية لم تعد هكذا مذهبا جذابا للشعوب الأوروبية المستنيرة . فالأحزاب الشيوعية كلها انفصلت عن الحزب الشيوعى السوفيتى ، وكونت هذه الأحزاب ما يسمى بالشيوعية الأوروبية . . . ومن قبلها فعل تيتو . . وكذلك الصين ، كما أن الشيوعية لم تساعد شعبا واحدا على استقلاله أو لم تحقق السلام لأحد و إنما جاءت أخيرا صورة جديدة للاستعمار القديم .

وهذه حقيقة بدأت الشعوب الأفريقية والآسيوية تدركها بوضوح ، وتحاول التخلص والتملص من النفوذ السوفيتى ، بل إن أكل الشيوعيين هوسا بالسوفيت يعيبون عليهم أنهم لم يغيروا سياستهم .

وقد كان الرئيس السادات فى فبراير سنة ١٩٧٧ أول من نبه الأمريكان بصورة مقنعة إلى الخطر السوفيتى فى أفريقيا ، ففى لقاء السادات مع الرئيس كارتر بعد انتخابه بشهر واحد ، شرح الموقف السوفيتى فى أنجولا ، أعاد الحديث عن ذلك فى مجلس النواب والشيوخ ، وتوقع أن يزداد الخطر السوفيتى بسبب التردد الأمريكى .

وكان الرئيس السادات أسبق فى تحذيره للأمريكان من الكاتب السوفيتى سولجنتسين اللاجىء إلى أمريكا والحائز على جائز نوبل للسلام والذى ولد فى نفس الشهر والسنة التى ولد فيها الرئيس السادات . فقد قال لهم سولجنتسين : إن الشعب الأمريكى يبدو طفلا ساذجا أمام الاستعمار السوفيتى . إن ما حدث فى

فيتنام قد أصبح عقدة له ، ومن الواجب على الشعب الأمريكى الناضج أن يتغلب على هذه العقدة الطفولية الساذجة ، وإذا ظل الأمريكان يخافون أن يضعوا أقدامهم فى الماء بحجة أنهم غرقوا عندما كانوا أطفالا فإن هذا يؤكد أنهم ما زالوا كذلك ، ثم كيف يفسر نزول الإنسان الأمريكى على القمر على الرغم من مئات حوادث الطيران فى أمريكا . . إنهم نفس الأمريكان المغامرين الذين أقاموا أمريكا ، وهم نفس الأمريكان العاجزين عن المغامرة . . الذين أقاموا الامبراطورية السوفيتية الجديدة ! .

ومنذ ذلك الحين والسوفيت يتسللون من بلد إلى بلد فى أفريقيا : أثيوبيا والأوجادين وأريتريا واليمن الجنوبية وليبيا .

ومن المؤكد الآن أن هناك اختراقاً جديداً لمنطقة فى داخل السودان ! .

وإذا كان من الضرورى أن نصف شكل «السجادة العجمية» فى هذا المنطقة فإننا نجد أنها جميع الدول التى تخضع لنظام شمولى فى الحكم - هذا النظام هو المسئول الأول عن الثورة عليه ، وكما تولد الجراثيم فى الأطعمة الفاسدة فكذلك يتولد التمرد على النظام الفاسد من داخله ! ثم تهب عليه رياح خارجية تشعل النار وتوجهها إلى اليمن أو إلى اليسار .

والذى حدث فى إيران الصديقة الشقيقة سوف تكون له مضاعفات فى الخليج العربى .

فالكويت - مثلا - كانت تعتمد على إيران فى أى صراع مسلح مع العراق . فقد كانت العراق منذ أيام عبد الكريم قاسم . ولا تزال . ترى أن الكويت «قائمقامية» أى ولاية عراقية يحكمها قائمقام .

ولذلك فإن الكويت تحرص إلى عهد قريب جدا أن تعلن عن نفسها «دولة الكويت » ، فالإذاعة تقول : هنا دولة الكويت .

مع أنه من المفروض أنها دولة ، ولكن الخوف العميق الذى يروعها هو أن جارها العراق يرى أنها ولاية أو محافظة ! .

وبسقوط إيران سوف تنفرد بالخليج دولة شريرة غادرة دموية هى العراق . . لاتزال تستخدم السحل أسلوباً لكنس الشوارع . والإغراق طريقه لتحريك أمواج الدجلة والفرات .

وبعد إيران التى كانت سيدة الخليج ستصبح دولة العراق «سيئة الخليج» .

وسوف يكون موقف دول الخليج صعبا مرة أخرى بسبب وجود عدد كبير من الإيرانيين فى هذه البلاد . وكلهم من الشيعة فى بلاد من أهل السنة !

وإذا كانت هناك أسباب تدفع أمريكا إلى دخول الحرب أو مواجهة السوفيت . . فهى تهدد آبار البترول .

وبعد حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ كشف السناتور فولبرايت أن أمريكا لديها خطة مدروسة ومؤجلة للاستيلاء على آبار البترول ، لأن ترك هذه الآبار للعبث من الداخل أو الخارج جريمة لا يمكن أن تتحملها أمريكا . . لأنها جريمة ضد حضارة الإنسانية كلها ، فالعبث بالآبار يهدد المصانع ويهدد كيان المجتمع الأوروبى والأمريكى . وإذا لم يكن مثل هذا الخطر سببا لدخول أمريكا الحرب ، فأى سبب أقوى وأخطر وأية معركة أشرف من الدفاع عن الإنسانية كلها ؟! .

وفى سنة ١٩٥٦ عندما أحس أنتونى إيدن بأن هناك عبثا فى البحرين ، نتيجة للثورة المصرية ، هدد بدخول بريطانيا ، على الرغم من أن بريطانيا لم تعد دولة عظمى . وعلى الرغم من أنها كانت تنسحب من مواقعها شرقى السويس . ولكن إيدن أعلن .

والبرلمان كله يؤيده ، أنه رغم ما عانته بريطانيا من ويلات الحرب ونقص المواد الغذائية فهى على استعداد لدخول الحرب .

ولن تبقى فى المنطقة كلها من جزيرة للأمن والأمان والاستقرار والتماسك إلا : مصر .

وقد خرجت مصر عن نطاق الدول الشمولية ، وذلك بالديموقراطية وسيادة القانون ، وفى نفس الوقت بالاتجاه إلى تشغيل كل طاقاتها فى الإنتاج - هذا أملنا وواجبنا والخلاص لكل متاعبنا الاقتصادية والاجتماعية .

وكان شيئا غريبا أن يعلن الرئيس السادات أن مشكلة تحرير الأرض المصرية والعربية قد تراجعت إلى الدرجة الثانية من الأهمية ، فالسلام آت لاريب فيه . والاتفاق والوفاق يحتاج إلى بعض الوقت والصبر ، فليس من السهل أن تحسم كل هذه الخلافات الكثيرة جدا فى عام أو عامين . . حتى إذا تم توقيع اتفاقية السلام عند جبل موسى ، وسوف يحدث ذلك ، فإن هناك معركة السلام نفسها طويلة أيضا . ولسنا بدعا فى السياسة الدولية ، فقد حدث من قبل مئات المرات وسوف يحدث أيضا .

صحيح أن سقوط إيران أو غيرها ليس تفريغا لإيران من مضمونها ولا تفريغا للمنطقة كلها ، فلا يوجد فراغ فى الطبيعة أو فى التاريخ . . إنما الفراغ يبدو ظاهريا فقط .

فألمانيا مثلا فى حرب الثلاثين عاما بين سنتى ١٦١٨ و ١٦٤٨ قد نقص عدد سكانها ثلاثين مليونا ، ولم تستطع ألمانيا أن تعوض هذا العدد إلا بعد مائتى عام . ولكن الشعب الألمانى بقى كما هو صحيح أنه نقص فى «الكم» . . ولكنه احتفظ بالكيف – أى بعناصره وقوامه الاجتماعى واستمراره التاريخى .

والجنرال النازى هاو سهوفر هو صاحب نظرية «الفراغ الظاهرى» . . وهو يرى أن ما يحدث فى دولة لا يقضى عليها ، فإذا كبرت هزت من حولها ، وإذا انهارت هزت من حولها .

ولذلك فإن ما حدث ويحدث فى إيران سوف يهز المنطقة كلها ونظامها وتكوينها الاجتماعى ، وسوف تتعرى دول الخليج تماما . . ولا يبقى إلا المعنى الذى تنبه إليه الرئيس الراحل بومدين . ، وإن كان لا يوافق عليه . . وهو أن النظام السياسى فى مصر والنجاح الدولى لمصر والاستقرار الداخلى والتماسك الوطنى سوف يحرج كل نظم المنطقة .

وهذا النموذج الذى حققته مصر سيعيد إلى كثير من دول المنطقة حجمها الحقيقى .

وكما أن مصر تريد تحرير أرضها وكل الأرض العربية ، أراد الأشقاء أو لم يريدوا ، فإن مصر على استعداد أن تدافع عن الكويت . . وأن تدافع عن السعودية . .

وكذلك عن كل دولة تطلب إلينا ذلك .

وفى هذه اللحظات الحاسمة من تاريخ الأمة العربية والشرق الأوسط ، سوف يدرك الأشقاء متأخرا جدا . . أن الحرية وسيادة القانون وكرامة الإنسان والصدق هى جميعاً عناصر البقاء فى وجه عواصف التغيير .

والذى حدث فى إيران ليس نهاية البداية ، إنما هو بداية النهاية .

فهل سيكون طوفان بعد إيران ؟ . .

وما هى حدود الطوفان ؟ . . وما الذى سوف تجتاحه أمواجه العاتية ؟ . . وهل تجد الدول الشقيقة «سفينة نوح» لإنقاذ عشرات الملايين ؟ . . وكم عدد الذين يشبهون ابن نوح الذى ألقى بنفسه فى الماء حتى مات غرقاً ؟ . .

فكان موته أول عقاب لأول رافض فى التاريخ .

عليها أن تختار..
بين ظل الشاه.. وظل الله!!

كل إنسان حر فى أن يختار طريقه إلى النار ! . . وإلى الجنة أيضا ! إلا إذا كان من رجال السياسة الذين لا دين لهم . أو من رجال الدين الذين لا سياسة لهم . . فإنه يدفع الناس بالقوة إلى الجنة وإلى النار .

ويوم وقف الإمام الخمينى فى يوليو سنة ١٩٦٤ فى أحد مساجد مدينة «قم» يدعو على الشاه وزوجته وأولاده من بعده . أن يدخلوا النار ، لم يكن يعرف أنه هو الآخر سوف يأتى بها من باريس إلى الشعب الإيرانى أيضا . فقد كانت جريمة الشاه أن الصحف نشرت له صورة والكأس فى يده . ونشرت لزوجته صورة بالمايوه ، ونشرت لأخته صورة فى أحد الكباريهات ، ونشرت عن أقاربه أنهم يملكون «مؤسسة بهلوى» التى تضم أكثر من مائتى بنك ومؤسسة فى إيران وفى أمريكا . .

ويظلم الأحداث من يتصور أن هناك تصفية حساب بين الشاه والإمام . فهناك أكثر من صراع بين نظام فى الحكم ومذهبه فى الدين والغريب فى إيران أن الصراع بين د . شاهبور ظل الشاه ، وبين الإمام الخمينى ظل الله . . ولايزال الشاه أقوى . فالشاه الغائب هو الحاكم ، كأنه حاضر ، والإمام الحاضر لايحكم ، كأنه غائب . . فكأن الغائب أقوى من الحاضر . .

وسبب ذلك أن الشاه يعتمد على الجيش القوى . والخمينى يعتمد على الشارع الذى ليس كله مواليا له ، وإن كان معاديا للشاه ، ففى الشارع يمشى وراءه عشرات المذاهب الشيعية ، ووراءه أهل السنة من العرب والأكراد ، والشيوعيون والزرادشتيون والبهائيون ، والجبهة الوطنية ودعاة دستور سنة ١٩٠٦ . واليهود ! .

وعلى المسرح السياسى فى إيران ظهر كثيرون ، وقد غيروا أدوارهم . . حتى رئيس الوزراء د . بختيار كان من خصوم الشاه والأسرة المالكة ، وهو اليوم يمثل الشرعية فى

إيران ، وحتى الإمام الخمينى الذى أيد قيام النظام الملكى فى إيران أصبح معاديا له . فيوم جاء أبو الشاه ملكا سارع الإمام الخمينى يطلب إليه أن يكون ملكاً . فقد خشى أن تكون إيران جمهورية لا دينية . مثل تركيا فى عهد كمال أتاتورك .

ومادام نراه فى إيران مسرحا للأحداث ، فأكثر الناس متفرجون . ومادمنا متفرجين فدورنا فقط أن نصفق للموقف القوى ، سواء أبكانا أو أضحكنا . فهذه هى حدود المسرح البعيد عنا ، ولذلك فلاحق للشاه فى إن العالم كله وقف يتفرج على إيران . وعذاب إيران . . لأن الشاه قد نسى بذلك أن العالم كله كان يتفرج على إيران أيام كان هو موجود أيضا . . وأن الشاه نفسه قد أقام أروع مهرجان مسرحى يوم دعا ملوك ورؤساء العالم فى نوفمبر سنة ١٩٧١ للاحتفال بمرور ٢٥ قرنا على إنشاء قورش لإمبراطورية إيران وقد أخطأ الناس فى فهم الشاه فى ذلك الوقت ، فظنوه مبددا لأموال الشعب فقط ، ولكن الشاه قد انقض كالصقر على جزيرتى أبو موسى وطاميا فى الخليج . فلم يفتح فمه أحد من الذين امتلأت بطونهم بلحم الطاووس وتألقت بيوتهم بالسجاجيد العجمية !

ولكن إذا ذهب الحماس بالمتفرجين فقفزوا إلى المسرح ، أقفز الممثلون إلى مقاعد المتفرجين . . هنا فقط تصبح الدنيا كلها مسرحا ، وهنا لايكون أحد متفرجا . إنما نحن جميعا ممثلون ومتفرجون ومخرجون وملقنون . . باكون ضاحكون . وهذا ما يخافه الشرق الأوسط وتخافه الدولتان العظميان أيضا ! .

وعلى المسرح أو ملعب الأحداث الدامية الصاخبة فى إيران يجب أن نعرف عن قرب أبطال مسرحى رائعة مروعة اسمها «ظل الله وظل الشاه» .

فرئيس وزراء إيران هو دكتور شاهبور بختيار «٦٢ سنة» مثل الإمام الخمينى ، قد عانى من البوليس السياسى الذى سجنه ست مرات . . فأقام فى السجن أكثر من خمس سنوات ، عذبوه وكسروا ذراعه اليسرى ، ود . بختيار من قبيلة غنية ، كانت تطمح إلى الملك ، وكان من الممكن أن يكون ملكا ، وقد درس العلوم السياسية فى جامعة السوربون بباريس . وتزوج من فرنسية ، وكان رئيسا للنادى الفرنسى فى طهران ، وأثناء إقامته بباريس كان يؤيد النظام الجمهورى فى أسبانيا ، واشترك فى المقاومة الفرنسية ضد النازى .

وعندما عاد إلى إيران انضم إلى أستاذه مصدق داعياً إلى تأميم البترول . وكان من رأيه أنه : لا أمل فى تحقيق التوازن الاجتماعى فى إيران بغير توزيع عادل

وقد أدت ثورة مصدق إلى أن غادر الشاه البلاد فى سنة ١٩٥٣ إلى روما . وبعد ثلاثة أيام أعيد إلى طهران - ولا يزال الشاه يحلم بذلك ، وربما أعاده الجيش مرة أخرى . ولكن بشروط الشارع السياسى . وليس بشروط الجيش ، حتى لو قام الجيش ، حتى لو قام الجيش بانقلاب عسكرى لصالح الشاه !

ومن الصدف الغريبة أن يكون د . بختيار من أشد الناس إعجابا بالكسندر كرنسكى . ذلك الرجل الذى تولى رياسة الوزارة الروسية فى فبراير سنة ١٩١٧ بعد أن أخرج آخر قياصرة روسيا . وقبل الثورة الشيوعية ، فكان كرنسكى رئيس وزارة انتقالية ، دخلت التاريخ تحت اسم الوزارة «المشلولة» فقد كانت عاجزة عن عمل شيء . . وحاول كرنسكى أن يقاوم الثورة الروسية فانهزم . وهرب إلى فرنسا ثم إلى الولايات المتحدة . .

ولا أحد يعرف إن كان التاريخ سيعيد نفسه فيحاول د . بختيار أن يواجه الثورة الدينية فى إيران ؟! .

ويجب علينا أن نستعيد كلمتى الهزيمة والنصر فى مثل هذه المواجهة الأهلية بين الجيش والشعب . . لأنه الذى ينتصر هو الشعب على الشعب . والذى ينهزم هو الشعب أيضاً ، وسوف يختلط الدماء وتمشى الجنازات ، ويتراحم الجميع على الموتى فى سبيل الوطن . ومن المؤكد أن الوطن هو الذى سوف يكون الضحية . فالحروب الأهلية لم تخمد فى أى عصر ولا فى أى بلد ، لأن الحروب الأهلية ساخنة وباردة . ثائرة وحائرة ، لها بذور موجودة دائما تنتظر من يحركها ومن يشعلها . . إلى الأبد ! .

وفى مواجهة رئيس الوزراء الدستورى لإيران قد جاء الإمام آية الله روح الله الخمينى ، لقد ارتدى السواد التقليدى حدادا تاريخيا على محنة آل البيت - أى على مقتل الإمام على بن أبى طالب . وعلى مقتل ولده الحسين فى كربلاء . ومن بعده ملايين المتشيعين له ورجال الدين . فالإمام الخمينى يمشى فى جنازة طولها ١٤ قرنا ، لم تجف لها دموع . ولا سكتت لها نار . . إلى القيامة .

عاش الإمام الخمينى يتيما فى مدينة خمين فى إيران الوسطى ، أبوه كان آية الله مصطفى الخمينى ، وقد اعتدت عليه الأسرة المالكة فى إيران فقتلته أثناء عودته من الحج ، وانتقل الإمام الخمينى إلى بيت عمته .

وفى يوم أيقظته عمته من النوم ووضعت السكين فى يده ، ولم يفهم الطفل فقالت له عمته : هذه ضعها إلى جوار القرآن .

ولم يفهم الطفل أن عمته هذه ظلت تبحث عن الذين قتلوا أخاها حتى اهتدت إليهم وقتلت القاتل . . وبهذه السكين فتحت بطنه وخرجت قلبه وأكلت حتى شبعت !

وفى سنة ١٩٧٧ قتل العراقيون ابن الإمام الخمينى ، وكان مصطفى ابنه هذا فى الأربعين من عمره .

وفى مدينة «قم» عرف العالم كله الإمام الخمينى . . فمن مدينة قم قام الشعب بثورته على الملك رضا شاه ، أبى الشاه ، وعرفت المساجد فى إيران كيف تكون قلاعاً ترمى الأسرة المالكة بالنار والشرر . فعندما ذهبت أم الشاه إلى مسجد السيدة فاطمة المعصومة فى مدينة قم كشفت وجهها فعرفها أحد رجال الدين فلعنها هى وزوجها وحاول أن يقتلها وفى اليوم التالى جاء الشاه بالدبابات . ودخل بها المسجد ، وداس الأرض بحذائه واعتدى على رجل الدين الذى أهان زوجته !

وفى أكتوبر سنة ١٩٦٤ عندما أصدر البرلمان الإيرانى قراراً بمنح الحصانة الدبلوماسية للخبراء الأمريكان . ثار الإمام الخمينى وهاجم الأجانب والاحتلال الأمريكى والشاه وأسرته والفساد والانحلال الإمبراطورى . وهاجم الإمبراطورة فرح ديبا . وهاجم الثورة البيضاء التى أعلنها الشاه . ووصفها الإمام الخمينى بأن الشاه لم يحقق الاشتراكية الإسلامية . إنما حقق التسول الإسلامى - أى أن يتسول المسلمون حقوقهم فيصدر الشاه مرسوما ملكيا بذلك !

وقد ورث الإمام الخمينى عن والده أنه كان يدعو لتطبيق دستور سنة ١٩٠٦ الذى صدر ولم يطبق حتى اليوم . فالدستور ينص على أن يلى الحكم ملك يعلن أنه شيعى إمامى اثنا عشرى - أى أنه يؤمن بالمذهب الشيعى وبمذهب الإمامة . وإن الأئمة اثنا عشر !

ويرى الدستور أيضا أنه إذا صدر قرار أو حتى قانون وكان منافيا للشريعة الإسلامية وجب بطلانه فوراً .

ولم يحدث فى القرن العشرين أن استطاع رجل واحد بعيداً عن وطنه أن يثير هذه الملايين من المواطنين ضد الملك والحكومة والجيش ، ولكن الإمام الخمينى استطاع ، صحيح أن الإمام الخمينى ليست له تجربة فى الحكم ولا السياسة . ولكن الإمام الخمينى عدو للاستعمار والأجانب ولليهود وللحكومة والجيش والبنوك والسفور واشتغال المرأة !

وليس واضحا ما الذى يقصده حتى الآن بإقامة «جمهورية إسلامية» وكل ما قاله أنها لن تكن مثل سلطنة آل عمان . إنما كالدولة الإسلامية أيام الرسول ﷺ .

ولذلك فسوف يواجه الخمينى مشكلة جديدة عليه تماما .

فعندما كان منفيا كان رمزا للكفاح . وكان صورة عالية للرفض المطلق لكل ما يفعله الشاه فى إيران . أى أنه كان متطرفا . ومادام متطرفا فهو رجل ثورى . أما الآن فهو مطالب من مساعديه أن يكون معتدلا يقبل الحلول الوسط . .

وعليه أن يتذكر عبارة مشهورة : إن الإنسان ملك عندما يحلم ، شحاذ عندما يصحو . .

فالشعب الإيرانى كان ملكا فى غياب الإمام ، ولما صحا وجد الإمام بدا يتسول السلطة والثقة وإرضاء الجميع . .

والإمام الخمينى يعتمد على ١٨٠ ألفا من الخطباء فى ثمانين مسجداً . . ويعتمد أيضا على الأسياد أى رجال الدين وعددهم ٨٥٠ ألفا . . وعلى طلبة المعاهد الدينية وعددهم ٢٠٠ ألف ، وكلهم قادرون على إثارة الناس ودفعهم إلى المظاهرات وإلى تعطيل العمل . . ولكن إدارة الدولة من أجل تحقيق الآمال لن تكون عن طريق الهتافات الصاخبة والمظاهرات والمنظمة المدروسة ! .

وإذا كان حكم الشاه هو اليمين المعتدل ، فإن ثورة الإمام الخمينى هى اليمين المتطرف . . فكان الشاه ، بأحلامه ، أراد أن ينقل إيران بالقوة إلى القرن الحادى والعشرين . وكان الإمام الخمينى بسبب تزمته قرر أن يعيدها إلى العصور الوسطى . .

وكلاهما مؤمن بأنه ينقل الشعب إلى الجنة . . بينما هو قد جعل طريقه إلى النار !

وإلى جوار الخمينى هناك آية الله شرعتمدار (٧٦ سنة) وهو يشرف على الحياة الروحية لمدينة قم خلفا للإمام الخمينى الذى خلف آية الله الكاشابى . .

وشرعتمدار رجل معتدل . وهو أكثر خوفا على إيران من الدماء والخراب والمزيد من البكاء فى كل بيت وفى كل مسجد ! .

أما مهدى بزرجان رئيس وزراء الإمام الخمينى فهو أكثر تشددا من الإمام . ويريد أن يطبق الشريعة الإسلامية حرفيا ، وسوف يلقى بالخواجات إلى الخليج . وسوف

يقفل الأبواب على النساء وسوف يقفل البنوك إلا إذا حرمت الأرباح والفوائد والسندات وشعاره : كل من يستولى على بترول دون أن يعطى ثلاثة أرباع ما يكسبه فهو لص ولذلك فالأمريكان لصوص اليوم . . وغيرهم لصوص الغد !

ومن مستشارى الإمام الخمينى : أصفهانى صادق قوتزاده وقد طردته أمريكا سنة ١٩٦٩ لأنه يقود ضده شاه إيران . ولأنه شيوعى متطرف . وهو الذى يقوم بكتابة المنشورات . ويطبع المؤتمرات الصحفية للإمام الخمينى . وهو أول صوت سمعه العالم من راديو موسكو يتحدث عن الإمام الخمينى والماركسية . فقال إننا لا نفهم فى المذاهب السياسية . نحن رجال دين . والدين لله . ومن يخدم إيران لوجه الله فهو مسلم – أى أن الوطنيين جميعاً مسلمون سواء من كان يؤمن بالإسلام دينا . أو طريقا إلى أى مذهب سياسى آخر .

ومن مستشاريه أيضا : أبو الحسن تياصدير . وقد درس الاقتصاد والعلوم السياسية فى باريس . وأصدر كتابا عن الفلاح الإيرانى . وقد أوجز فلسفته فى «أن الأرض للفلاح ، وأن القرى يجب أن تكون جماعية تعاونية . وأنه لا حياة للشركات الأجنبية فى بلد أكثر أهله من الفقراء» . . فكيف يصدرون ما يحتاجون إليه . وكيف يتسولون ما يستحقون وكيف تقوم حضارات الغرب كلها على وقود إيران . مع أن إيران خلت تماما من بريق النور . ووهج النار ؟! .

ومن مستشاريه أيضا : د . إبراهيم يازدى . وقد كان يعمل أخيرا فى شركة باير للأدوية فى ولاية تكساس ، وكانت له مهمة خطيرة فى تعريف أجهزة الإعلام الغربية بالإمام الخمينى وهو الذى كتب على البيتين اللذين كان يسكنهما الإمام فى ضاحية توفل لوشاتو : أنه لا يوجد متحدث رسمى للإمام – أى لا أحد سواه !

وفى آخر مؤتمر صحفى قال : إن إيران هى دولة الكيلو جرام . . فهم هناك يزنون الناس بالجرام . لا بالحلال ولا بالحرام ! مع أن ديننا يقول لنا : لا فضل لعربى على أعجمى إلا بتقوى الله . . لا بذهبه ولا بقرابته أو عمارته أو سيارته !

ويمشى وراء الإمام الخمينى اليوم ، ويمشى ضده غدا . . الحزب الشيوعى ، الذى حرمه الشاه منذ عشر سنوات ، ودخل أعضاؤه السجون ، وهرب آخرون إلى برلين الشرقية ، أما زعيم الحزب الشيوعى فهو نور الدين كيانورى (٦٣ سنة) . وقد أيد الإمام الخمينى أول الأمر ، وقال إن ثورته تقدمية مادامت ضد الحكم الدكتاتورى

الفاسد . وضد الاستعمار الأمريكى . ثم عاد فهاجم الخمينى عندما هاجمته إذاعة موسكو . قائلة إن الإمام الخمينى سوف يؤدى إلى نكسة خطيرة . لأنه سوف يدفع الجيش ليقوم بانقلاب عسكرى لصالح الشاه .

ثم عاد ليقول إن الماركسية تتفق مع السلام الذى يدعو إلى العدالة والتسامح والتقشف والحاكم العادل .

وقالت صحيفة «البرافدا» السوفيتية أيضاً : إنه لا فرق كثيرا بين الشيعة والشيوعية فكلتاهما تنشدان حكما ديموقراطيا !

وغدا سوف تتهمه موسكو بأنه أشاع الدين والتعصب الدينى . وأثار الأديان بعضها على بعض . . وقضى على النظرة العلمية . . والاشتراكية العلمية !

ولكن الإمام الخمينى قد أدرك أن الشيوعية تريد أن تركب القطار وهو يجرى ، وقد فعلت ذلك كثيرا ولذلك أعلن : أن الله هو الحد الفاصل بيننا . . نؤمن به ، ولا يؤمنون به . . فكيف نحاسبهم على أنهم ليسوا من الشيعة . وهم ليسوا مسلمين ؟!

وفى مواجهة الإمام الخمينى ثمانون ألفا من اليهود ، بعضهم هاجر إلى إسرائيل . وكما هى عادة اليهود فى كل مكان ، فهم يساندون كل الاتجاهات ليضمنوا لهم مكانا مرموقا فى كل الظروف . فقد علمهم الخوف الحرص والتسلل والتسيير .

فيهود أمريكا هم الذين ساعدوا الشاه على أن يكون له أقوى جيش فى العالم بعد روسيا وأمريكا ، وزودوا جيشه بأحدث الأسلحة ، وكان يهود أمريكا يعدون الجيش الإيرانى ليستولى على آبار البترول كلها إذا دخل العرب فى حرب خامسة مع إسرائيل !

ولذلك كان أول ما فعله رجال الدين فى إيران أن هدموا معابدهم ، وقتلوا ثلاثة من الخبراء الأمريكان اليهود .

ولذلك ذهب اليهود إلى الإمام الخمينى فى باريس . وأوفدوا أرملة الحاخام بلاو ، وقابلته وأكدت له أن يهود إيران أكثرهم ضد إسرائيل ، وضد الصهيونية ، وأنهم من أتباع جماعة ناتوراكارتا – أى «حراس المدينة» وأنهم يرون أن قيام دولة إسرائيل حرام . وأن الانضمام إلى جيشها حرام .

ثم ذهب اليهود مرة أخرى إلى فرانك جود وزير الدولة للشئون الخارجية البريطانية . وهو يهودى . وطلبوا إليه الاتصال بالإمام الخيمنى ، واتصلت بالإمام

الخمينى ، ووعدهم الإمام الخمينى بأنه لن يتعرض لليهود بل إنه طالبهم بأن ينضموا إليه فى كفاحه ضد الشاه .

ووزع اليهود منشورات يؤيدون الوحدة الوطنية والتكامل الاجتماعى ، ويشيدون بالسماحة الإسلامية ، ويرددون داءهم لإسرائيل الصهيونية العنصرية المتعصبة . .

وبسرعة ، قبل أن يتخذ أتباع الخمينى العناء الاقتصادى لإيران وقودا لثورة جديدة ، أعلن د . بختيار رئيس الوزراء وقف العقود المبرمة بين إيران وأمريكا وبريطانيا وألمانيا . . وقيمة هذه العقود مئات المليارات من الدولارات ، وكلها لتسليح الجيش الإيرانى بسبع طائرات رادارية ، وهى محطات إنذار مبكرة عالية صنعتها شركة بوينج (١٠٣ مليارات من الدولارات) وصفقة ١٦٠ طائرة مقاتلة ف ١٤ (٣٠٥ مليارات من الدولارات) ومدمرتين بريطانيتين (١٠٤ مليارات من الدولارات) و ٤٠٠ صاروخ فونيكس جو - جو (ملياران من الدولارات) ، و ٣٥٠ دبابة شيفتن بريطانية بمدفع ١٢٠ ملليمترا (ملياران من الدولارات) .

وسوف يظل المسرح الإيرانى مضطربا مادامت الحكومة الشرعية تعتمد على الجيش وعلى الحرس الإمبراطورى . . ولكن إذا انتقل الإمام الخمينى إلى التخريب العام وتصعيد الحرب الأهلية . فليس أمام الجيش إلا القمع وإسالة الدماء ، والدخان ، ووقف البترول . واعتقال الإمام الخمينى نفسه أو اغتياله . . وإعادة الشاه إلى عرشه . وإذا عاد فسوف يكون الشاه أصغر من العرش ، بعد أن كان العرش أصغر من الشاه «العرش به ٣٢ ألف قطعة من الماس !» .

وليس صحيحا ما تقوله الدولتان العظميان من أنهما ترقبان الأحداث دون تدخل . . فليس الوقت من تراب ، ولا أنابيب البترول تسيل ماء . ولا هذه فرصة إذا ضاعت أمكن تعويضها فى مكان آخر من العالم ، إنما الذى تراه هو الوجهة الباردة لخلفيات حسابية ملتهبة لا نراها .

وإذا كان كيسنجر قد قال أخيرا : شىء خطير أن تكون صديقا لأمريكا . شىء أخطر أن تكون عدواً لها - فإن هذا يصدق على روسيا أيضاً فلا صداقة بين دولة صغيرة ودولة عظمى ، إنما نحن الصغار الذين نسمى الأشياء بغير أسمائها ونستريح إلى ذلك !

وقد جربنا فى مصر اليمين كيف تطرف حتى اغتال الأبرياء . ورأينا اليسار كيف تطرف وأهدر الحريات وأحرق المرافق العامة .

إننا لا نعرف ما الذى يصلح لإيران ، إنها وحدها هى التى تختار اليوم أو غدا ما يناسب جماهيرها : ملكا يحكم ، أو حاكما يملك ، أو إمامة أو خلافة ، ولكن الذى نشفق منه هو أن يطول القلق ، ويتضاعف عذاب الشعب فيكون ضحية سهلة لأصحاب «الصيغ السياسية الجاهزة» . . وحينئذ لن تضيع إيران وحدها .

ومن المؤكد أن إيران تغيرت ، وأن غيرها سوف يتبدل ، فقد جربت الجماهير المسلمة قدرتها على الغضب ، وعلى الرفض . . وقد نجحت . . إلا قليلا . . وسوف يصبح القليل كثيرا مادامت تفتقر إلى البرنامج السياسى ، وهى معذورة لأنها لم تحكم . . ولم تعرف الحكم منذ الخلفاء الراشدين . .

ولأنها لم تعرف الحكم كل هذه السنوات الطويلة كان غضبها أشد من فهمها . وكانت مرارتها أقوى من حرارتها . .

فالشيعة هى مذهب إسلامى ، يرى أن عليا بن أبى طالب أحق بخلافة المسلمين من أبى بكر الصديق ، لأن عليا هو أول من أسلم من الشبان ، وهو ابن عم الرسول ﷺ وزوج ابنته . . ثم إنه أكثر علما وشجاعة من كل الخلفاء الثلاثة الآخرين . . ويجد الشيعة فى القرآن وفى الأحاديث النبوية ما يؤكد لهم أن الرسول عليه السلام كان يقصد أن يخلفه على بن أبى طالب .

بل إن واحدا اسمه عبد الله بن سبا ، يهودى أسلم ، قد أعلن أن عليا بن أبى طالب لم يمت رغم أنه قتل ، وأنه لايزال حيا ، وأنه معصوم من الخطأ . . وأنه أحق من النبى عليه السلام بالنبوة !! .

ولابد أن يكون الشيعى إماميا . . أى يؤمن بأن أحفاد الرسول وأولادهم هم أئمة المسلمين ، وليس من الضرورى أن يكونوا خلفاء أو ملوكا ، إنما أن يكونوا القوة الروحية وراء كل شىء .

ولابد أن يكون الشيعى إماميا اثنا عشريا ، أى يؤمن بأن الأئمة اثنا عشر فقط ، وهناك أحاديث نبوية اخترعوها تؤكد هذا المعنى ، والإمام الثانى عشر غائب ، وقد يكون حيا مختفيا ، ولكنه ينيب عنه أئمة آخرين . يجب أن يطيعهم الشيعة ، (والأئمة الاثنا عشر هم : على والحسن والحسين وعلى زين العابدين ومحمد

الباقر ، وجعفر الصادق وعلى الرضا وموسى الكاظم ومحمد الجواد وعلى الهادى والحسن العسكرى . . وهو الإمام الحادى عشر (٨٤٠م) .

وقد سجن الإمام العسكرى أكثر أيام حياته ، سجنه هارون الرشيد ، وكانت له زوجات وجوار ، وقد ثار عليه أخوه ، فاضطر الخليفة إلى أن يحبس زوجاته حتى يضمن ألا تحمل منه واحدة منهن . فإذا حملت قتل ابنها ، كما فعل فرعون موسى .

ولكن الإمام العسكرى أعلن أن ابنه محمدا هو الإمام الثانى عشر ، وهو المهدى المنتظر ، وأنه وليه ، وأنه اختفى ، وأن له وكلاء على هذه الأرض ، وأنه لن يعود إلا آخر الزمان فيملأ الدنيا عدلا .

وأم الإمام الثانى عشر ابنه ملك الروم ، وهى من سلالة حواريى المسيح . . وهى مسيحية يهودية أسلمت ، وأن الرسول عليه السلام قد خطبها من عيسى ، وأن فاطمة الزهراء قد خطبتها من مريم العذراء . .

وقد قال لها الإمام العسكرى : سوف تلدين من يملك الدنيا والآخرة ، ويجىء فى آخر الزمان ليقضى على الظلم ، ويعمم العدل !

وبقدر ما هناك شيعة فى إيران والعراق ، هناك مذاهب شيعية . . هناك مذاهب بالمئات وخلافات بالألوف . ففى المذهب الشيعى اتجاهات يهودية ووثنية وزرادشتية وبوذية . حتى فكرة المهدى المنتظر قد أخذت من الديانات القديمة . . وأخذت من اليهودية التى ترى أن أحد أبنائها قد ارتفع إلى السماء وسوف يعود . .

ويرى الشيعة أن الإمام الخمينى هو أحد وكلاء الإمام الثانى عشر أو هو نفسه . .

ولذلك فإن الشيعة يحاربون فى كل مكان انتظارا له أو بحثا عنه . . ثم إن العذاب مكتوب عليهم والبكاء . فقد تعذب أهل بيت الرسول ، أولاد على وأحفاده ، فلا نهاية للحزن عليهم . . إلا بقيام الدولة الإسلامية ، وإلا بأن يكون للمسلمين إشمام هو الإمام الثانى عشر المهدى محمد بن الحسن العسكرى . .

والذى يعرف ما يفعله الشيعة فى ذكرى مقتل الحسين وغيره من الشهداء ، لايفزعه كثيرا أو لا يطمئنه كثيرا ما يراه الآن فى شوارع إيران . . لأنه ما الذى بعد البكاء ! وما الذى بعد الثورة على الحكومة القائمة ؟

لاشىء إلا الواقع الإيرانى . . إلا الحكم وإلا السلطة . . والطريق إليها محفوف بالنيات الطيبة لمن يرد أن يعتلى عرش إيران . أو من يعتلى الذين يسعون إلى ذلك من المذاهب السياسية والدينية الأخرى . .

إن الشيعة تروى أن الرسول عليه السلام عندما مات ابنه إبراهيم بكى عليه كثيرا وقال : إن العين لتدمع وإنا عليك لمحزونون . .

ويقال إن الله أطلع الرسول عليه السلام على ما سوف يحدث ، وخيره بين أن يعيش ابنه إبراهيم . ويبعث نبيا ويقتله المسلمون فيدخلوا النار جميعا ، وبين أن يقتل نصف المسلمين الحسين بن على . فاختار الرسول أن يموت ابنه إبراهيم وأن يتعذب وحده .

فهل يختار الإمام الخمينى أن يتعذب وحده فلا تدخل إيران كلها النار : نار الرجوع والمرض والفوضى والحرب الأهلية ؟!

هل يفضل الإمام الخمينى أن يقوم بدور غاندى المسلمين ؟ أو هل يريد أن يكون مكاريوس الشيعة ؟

* * *

حتى لو عاد الشاه.. فقد تغيرت إيران !!

إن الانسان لايهبط النهر مرتين – عبارة قديمة قالها فيلسوف يونانى اسمه هراقليطس . ومعناها : أن النهر فى المرة الثانية يختلف عن المرة الأولى . لأنه تحرك من أوله لآخره ، فأصبح نهرا آخر . .

وكذلك شوارع إيران . اختلفت منذ تركها الإمام الخمينى سنة ١٩٦٤ إلى تركيا ، ومنها إلى العراق ، ومنذ أكتوبر الماضى إلى إحدى ضواحى فرساى بفرنسا . .

وحتى لو عاد الشاه إيران ، فإن إيران قد تغيرت . . وعلى الشاه أن يغير نفسه إذا استطاع . .

لقد ذهب الشاه للمرة الثانية . وجاء الإمام آية الله روح الله الخمينى ، ولا صعبا أن تعود به الجماهير ، ولكن الصعوبة هى أن تبقى ، فأمامه مشاكل كثيرة جدا . وهو ليس سياسيا مدربا ، فالجماهير قد جربته ثائرا . ولم تجربه حاكما . والمطلوب أن يكون حاكما .

وفى الأسبوع الماضى قلت : إن مظاهرات الجماهير ليست ثورة . إنها فورة . والفرق بين الفورة والثورة أن تكون هناك «صيغة سياسية» واحدة . وأن تكون هذه الصيغة متطرفة . وأن يكون هناك من يحسن تطبيقها . ولا أحد يعرف بالضبط ما الذى سوف تسفر عنه شوارع إيران . هل يظهر بينهم جمال عبد الناصر ، أو يظهر بينهم قذافى ؟ من المؤكد أن ظهور رجل مثل أنور السادات سابق لأوانه تماما ، ولكن المواجهة الآن بين الشارع الإيرانى الأعزل من السلاح ، وبين ثكنات أقوى جيوش آسيا وأفريقيا .

إن «الإمام» الخمينى من أسرة دينية : أبوه وجده كلهم يحملون لقب آية الله . أما أبوه فقد قتله قطاع الطريق أثناء عودته من زيارة الأماكن المقدسة فى العراق . وكان آية الله الخمينى فى الشهر الثانى من عمره . فقد عرف اليتم صغيرا ، وفى سنة ١٩٦٤ طرده الشاه من إيران . وتتبعه البوليس السياسى حتى نقله جثة هامدة مخدرة إلى تركيا أول الأمر . ثم أخرجته تركيا . مراعاة للشاه ، فاستقر فى العراق

أكثر من ١٤ عاما . وفى العام الماضى توفى ابنه مصطفى فجأة ، وقيل للخمينى إن الشاه هو الذى اغتاله .

ومن العراق أخذ الخمينى يبعث برسائله الثورية إلى الشعب الإيرانى . وفى العراق ألف عشرين كتابا عن تاريخ الشيعة وكفاحهم ضد السلطة ومن أجلها . وانتقلت كلماته فى شكل منشورات سرية وعلى كاستات يحملها أتباعه فى أحذيتهم وفى ملابسهم . وكان البوليس السياسى يجمع هذه الكاستات . وفى إحدى المرات طلب الشاه أن يستمع إلى واحد منها . وأدهشه جدا أن تكون مثل هذه الكاستات لها أى أثر على الناس فى إيران فلما سئل الشاه عن ذلك قال : ولكنى لا أجد جملة واحدة تبقى فى أذنى !

وهى ملحوظة ذكية تؤكد أن الخمينى ليس خطيبا وليس مفكرا ولا صاحب فلسفة الشاه فى الإصلاح والنهوض بإيران . ولكنه رمز قوى . وفى المؤتمرات الصحفية التى عقدها الخمينى فى باريس كان الصحفيون يهزون رءوسهم ويتساءلون دون مجاملة ولكن ما هو البديل الذى تقدمه للشارع الإيرانى عن الفساد الإمبراطورى ؟

ولايزال الإمام الخمينى يكرر ما جاء فى كتابه «كشف الأسرار» من أن السلطة فاسدة . والأسرة المالكة فاسدة . وأن الجريمة التى ارتكبت عند خلافة أبى بكر لا يمكن السكوت عليها . فقد كان على بن أبى طالب أحق الخلفاء بولاية المسلمين . والشيعة هم المسلمون الذين تشيعوا لعلى وأولاده من بعده .

ويقول الإمام الخمينى إن أعظم إنجاز يقوم به المسلمون - الشيعة طبعا - هو أن يتولى واحد منهم السلطة ولو لخمس سنوات .

بل إن المذهب الشيعى يرى أنه لو بقى على قيام القيامة يوم واحد . فإن الله سوف يطيل هذا اليوم حتى يتولى أمر المسلمين واحد منهم ينشر العدل بين الناس . .

ومعنى ذلك : ألا يفقد المسلمون الأمل حتى آخر يوم فى هذا العالم !

فما الذى يستطيعه الإمام الخمينى فى إيران الآن ؟

إنه على البعد كان رمزا ، وكان حلما ، ولكنه على القرب بشر محدود الحركة والصوت ومحدود القدرة أيضا .

ثم إن الجماهير لها ألف رأس ، أى لها ألف رأى . و ٩٩٪ من آراء الجماهير تنادى بشىء واحد هو الرغيف . فمن أين يأتى به الإمام الخمينى ؟

إن أمامه جيشا قويا يدين بالولاء للشاه . وعلى الإمام الخمينى أن يجعل الجيش يمشى وراءه . أو على الأقل يجعله محايدا .

وهذا الجيش وإن لم يكن يحمى الحكومة الضعيفة . . فهو يحمى «الشرعية» .

ولكن الجيش يستطيع أن يقوم بانقلاب لصالح الشاه أو الأمر . . وبانقلاب ضده بعد ذلك . وتتوالى الانقلابات كما حدث فى سوريا والعراق ونيجيريا وباكستان وأثيوبيا . . فقد أعد الشاه هذا الجيش ليكون سنده فأبعده عن السياسة وجعله تحت سيطرته ، حتى لا تظهر شخصية عسكرية قوية تهدده يوما ما . .

فهل تصدق العبارة التى قالها الرئيس السابق فورد لشاه إيران فى أسوان : من يدرى ربما كان المنفى أقصر طريق إلى العرش ؟!

ثم هناك عمال البترول الذين لا يشكون من انخفاض الأجور ، ولا نقص الموارد المادية ، ولا يشكون من أزمة المساكن ، ولا التأمينات الاجتماعية والصحية . . وهناك نقابات العمال فما الذى فعله لهم الإمام الخمينى ؟

ثم إن الذين انضموا إلى الخمينى ليسوا جميعا من أنصاره . ولكنهم خصوم للشاه . ومن بين هؤلاء المعارضة و «الجبهة الوطنية» من أتباع الزعيم مصدق . .

وهناك الشيوعيون الذين طاردهم الشاه حتى طردهم . وتضاءل حجمهم ، وهربوا من إيران إلى أفغانستان ، وإلى العراق ، وإلى برلين الشرقية ، ومن برلين الشرقية يهاجمون الشاه وحكومته ، وينتظرون الفرصة . هؤلاء الشيوعيون يتهمون الخمينى بأنه ركب الموجة التى أطلقوها قلقا واضطراباً على إيران سنة ١٩٦٠ أى أن ثورة الخمينى ليست إلا شيوعية فى بدايتها ، وإن كانت شيعية فى نهايتها !

ثم إن الخمينى أيضا يتهم الشيوعيين بأنهم ركاب كل موجة . وأن الشيوعيين بسبب تماسكهم وصيغهم السياسية الجاهزة قادرون على التسلل إلى أى نظام ، والدخول فى أى دين ، ومسايرة أى فكر إلى منتصف الطريق ، ثم الانقلاب عليه بعد ذلك . .

ولم يكن غريبا أن تتظاهر فى شوارع طهران جماعات تحمل لافتات تنادى «بالماركسية الإسلامية» . . وهى التى نادت بها أفغانستان أول الأمر . . وهى التى تتستر وراءها ليبيا الآن . . فنحن – إذن – أمام صيغة سياسية جديدة ، هى «الزواج» بين الماركسية والأديان . فهم فى إيران يطالبون بالماركسية الإسلامية . .

وفى أثيوبيا ينادون «بالماركسية المسيحية» - أى يركبون الإسلام تمهيدا للماركسية ، ثم التنصل من الإسلام ومن المسيحية بعد ذلك !

ولقد ثار الإمام الخمينى على مساواة المرأة بالرجل فى الدستور الإيرانى ، فما الذى يفعله الآن ، وقد خرجت عشرات الألوف من النساء تطالب بالخمينى ؟!

إن الإمام الخمينى قد أعلن أن حكومة بختيار غير شرعية . وعلى ذلك يجب أن يشكل وزارة جديدة . فما الذى يفعله إذا ذهب الوزراء إلى مكاتبهم ، فوجدوا الوزراء القدامى . . ثم وجدوا مبانى الوزارات قد خلت من الموظفين أو إذا اعتقلهم الجيش ؟ .

وأهم من ذلك أن الإمام الخمينى قد أعلن أنه لابد أن يعاقب الجيش ، وأن يعاقب «الصناديد» - الحرس الخاص للشاه - فكيف يفعل ذلك ؟ ومن الذى يستعين به على الجيش وعلى الشارع الإيرانى ؟

أما شاه إيران فقد أحس فجأة أنه مريض بمرض معد . فاعتذر ملك الأردن عن عدم لقائه . واعتذرت السعودية أيضا . ورحبت به مصر . فقد كان الرجل صديقا وسندا لمصر فى أزمتها .

ولابد أن شاه إيران حزين حقا ، فلم يدافع عنه بشجاعة إلا كميل شمعون فى لبنان - وهذا يذكرنا بموقف مشهور فى فيلم «دون كاميلو» الإيطالى . عندما حمل القس واسمه «دون كاميلو» الصليب وعليه المسيح حيا . . وراح دون كاميلو يمشى فى جنازة أحد الموتى . . فوجد وراءه كلبا . فثار على ذلك . . فقال له المسيح من فوق الصليب : ألا تريد أن يمشى وراءك أحد ؟

فقال له دون كاميلو : وهل ترى أن الذى يمشى ورائى ووراءك أحد ؟ لقد ظلمت المسيح ياسيدى المسيح !

ولكن دفاع كميل شمعون كان منصفا ، فإيران (٣٦ مليون نسمة) تحصل على ٢٦ ألف مليون دولار من عائدات البترول سنويا . وسوف تنضب آبارها عند نهاية هذا القرن . ولذلك كان من الضرورى أن ينشىء الشاه صناعات تعيش بعد نهاية هذا القرن . فأنفق نصف عائدات البترول على الجيش وعلى الصناعات . وأدخل الإصلاح الزراعى ومحو الأمية وفتح المدارس والجامعات ، وفتح البلاد كلها على

الغرب . وأغدقت عليه أمريكا أكثر أسلحتها تطورا ، فالشاه ملاصق للاتحاد السوفيتى . وجعلت أمريكا من جيش الشاه الجيش الثالث فى العالم . وجعلت من إيران ، وقبل ذلك من إسرائيل ، حارسا لأمريكا والغرب ، فما الذى كانت تحرسه إيران فى الخليج ؟ وهل إذا غاب الحارس انتشر قطاع الطرق وسارقو التيجان ؟

إن غياب الشاه ، ليس غيابا لقوة . وإنما هو غياب لسياسة . فقوة إيران سوف تبقى كما هى . ولكن سياسة الشاه هى التى سوف تغيب عن المنطقة . فقد كان الشاه يحرس الخليج ضد العراق وضد الشيوعية أيضا .

وتدعى إسرائيل أنها كانت تدخره للاستيلاء على آبار البترول العربية إذا ما قامت حرب خامسة مع العرب ، وهذا يفسر مساعدة يهود أمريكا للشاه ، لكى يحصل على الأسلحة المتطورة من أمريكا . . وحينئذ تستولى إسرائيل على الأردن وتقوم «إسرائيل الكبرى» من النيل إلى الفرات ؟ !!!!

وقد تمكن الشاه فى سنة ١٩٧٠ من القضاء على المتمردين فى ظفار . وكان هؤلاء المتمردون يلقون عونا من اليمن الجنوبية . ولكن الشاه لم ينفرد بهؤلاء الثوار . وإنما ساعدته السعودية أدبيا وماديا – ولا تزال السعودية قادرة على أن تقوم بهذا الدور مرة أخرى وبأدوار أكبر وأخطر فى الشرق الأوسط ، وسوف تساعدها أمريكا على ذلك . .

ولكن الحارس الإيرانى لم تجربه أمريكا فى البحر الأحمر ولا فى القرن الأفريقى ولا حتى فى الصومال . .

إذن لقد كانت لإيران قوة «موضعية» – أى محدودة فقط . ولم تكن إيران قوة إقليمية ، ومن المستحيل أن تكون لإيران قوة أمام الاتحاد السوفيتى .

واستمدت إيران قوتها العسكرية والسياسية معا من أنها حليف للولايات المتحدة !

ومن الغريب أن أول خلاف بين ستالين وهتلر كان بشأن إيران . فقد رفض ستالين ألا تكون إيران تحت المظلة السوفيتية .

وإذا لم تكن إيران تحت المظلة السوفيتية الآن ، تهديد السوفيت لها لن ينتهى . وإن كان من الضرورى لأى نظام إيرانى اليوم أو غدا أن يضمن صداقة أمريكا . .

التى تستخرج البترول وتشتريه وتحميه ، دخولا وخروجا من الخليج والبحر الأحمر وقناة السويس . . .

ويشترك شاه إيران مع كارتر فى أن هناك خطأ فى المعلومات التى نقلت إلى القصر الإمبراطورى وإلى البيت الأبيض . فالمخابرات الأمريكية لم تعرف حقيقة ما يحدث فى إيران منذ عام . .

بل إن الكونجرس الأمريكى قد قرأ تقرير المخابرات الأمريكية وأعلن استياءه التام للإدارة الأمريكية . فقد جاء فى تقرير للسفير الأمريكى فى طهران : أن الذى يحدث فى إيران ليس مقدمة لثورة ولا ثورة .

وجاء فى تقرير المخابرات الأمريكية : أن مخابرات الشاه قد حالت دون المخابرات الأمريكية فلم تعرف الأحداث فى حينها .

أما الشاه فيقول : إن المخابرات الإيرانية قد تسللت إليها عناصر شيوعية . وغلطة أخرى ارتكبتها المخابرات الأمريكية هى : أنها لم تحاول أن تتصل بخصوم الشاه من المعارضة ومن الشيوعيين ومن أتباع الخمينى .

(أرجو قراءة هذه العبارة مرة أخرى والتوقف عندها بعض الوقت) !

ولذلك سارعت أمريكا بالاتصال بالإمام الخيمنى فى قرية نوفال لوشاتو بالقرب من باريس . فأرسلت له المدعى العام السابق . . .

واعترف السفير الأمريكى فى طهران بأنه لا يوجد بين موظفى السفارة واحد يعرف اللغة الفارسية أو قد درس المذاهب الدينية فى إيران .

ثم إن كارتر وفانس مشغولان بالمفاوضات بين مصر وإسرائيل . . أما برجنسكى مستشار الأمن القومى فمشغول بالصين . بل إن كارتر وفانس لم يعرفا حقيقة ما حدث فى إيران إلا بعد أن استقر الإمام الخمينى فى فرنسا فى أكتوبر الماضى !

ولذلك فاللوم شديد لحكومة كارتر وإدارته لا فى الشرق الأوسط . بل فى العالم كله !

والذى حدث فى إيران – كما يقول كيسنجر – سوف يؤدى إلى تغيير شامل فى السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط وفى العالم كله . .

وعلى كارتر أن يواجه الموقف بسرعة قبل أن يضطر إلى ذلك بعنف عند بداية حملاته الانتخابية فى سنة ١٩٨٠ ، وعلى كارتر أن يفسر للمواطن الأمريكى ولحلفاء أمريكا . ما الذى أصابه وأصاب أمريكا على يديه . . وعليه أن يجيب على هذه الأسئلة : من الذى فقد إيران وأفغانستان وأثيوبيا وكمبوديا واليمن الجنوبية ؟ وما الذى فعله فى اتفاقية أمريكا مع جمهورية بناما بعد ١٣ عاما ؟ وكيف سمح للقوات الكوبية أن تكون مطية للغزو السوفيتى لأنجولا وأثيوبيا وليبيا ؟

وتجد الإدارة الأمريكية الحالية تفسيرا لذلك كله هو أن مفهوم «القوة» قد تغير بعد الحرب العالمية الثانية . فلم تعد أمريكا هى القوة الوحيدة . . فلا أسطولها هو الوحيد فى المحيطات ، ولا جنودها هم الوحيدون الذين يقاتلون فيما وراء البحار ، ولا الدولار هو سيد العملات ، ولا الخبرة الأمريكية هى قمة التكنولوجيا . فمن بين حلفاء أمريكا من ينافسونها فى أسواقها مثل ألمانيا وفرنسا وبريطانيا . ثم إن ألمانيا واليابان دولتان بلا جيوش . ورغم ذلك فكل منهما : قوة اقتصادية هائلة تهدد أمريكا نفسها . .

كما أن هناك دولا أخرى قوية لأنها قادرة على شراء السلاح من السوفيت وأمريكا وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا . ومن بين هذه القوى : حلفاء لأمريكا أيضا . .

وإهتمام أمريكا بالصين . ليس معناه أن أمريكا أضافت إلى العالم الغربى أكبر دولة فى العالم ، وإنما معناه أن أمريكا وسعت مجالها الاقتصادى وفتحت سوقا جديدة قبل أن تبتلعها اليابان أو ألمانيا - الحليفتان لأمريكا !

ثم إن الموقف فى إيران لا يزال متفجراً ، ولذلك فمن الصعب على أمريكا أن تدخل طرفاً ضد الطرف آخر . .

ثم إن الموقف الإيرانى قد نوقش فى اجتماعى جزيرة «جواديلوب» الذى ضم كارتر وشميت وديستان وكالاهان .

ومن المؤكد أن الرئيس ديستان كان يعلم تماما تفاصيل ما يجرى فى إيران . فهو قد وافق على استضافة الإمام الخمينى . ثم إن لفرنسا وجودا فى المنطقة من مئات

السنين . وإن كان تحليل المستشار شميت للموقف الإيرانى كان العامل الأساسى فى أن غيرت أمريكا موقفها تماما .

وحاولت أمريكا أن تريح حلفاءها فى المنطقة . وأن تسكت النقد الداخلى لإدارة كارتر . فقررت أول الأمر إرسال حاملة الطائرات كونستليشن وكانت فى ميناء مانيل بالفلبين . وبعد أن تحركت حاملة الطائرات تلقت أمراً بالاتجاه إلى وجهة أخرى . فقد خشيت أمريكا أن يؤدى ذلك إلى إثارة الشارع الإيرانى ، وإضعاف موقف الشاه بدلا من تدعيمه .

ولكن أمريكا أرسلت سربا من طائراتها إلى السعودية . فأراحت بذلك حلفاءها من العرب وحذرت السوفيت من أن يفعلوا شيئا على الحدود الإيرانية . .

وفى نفس الوقت الذى طالب الشعب وبعض وحدات الجيش بطرد الخبراء الأمريكان أرسلت أمريكا قائد الطيران ، وكانت أولى مهماته أن يعمل على إنقاذ محطات الإنذار المبكر على الحدود الإيرانية الروسية . . ونقل ٧٨ طائرة ف ١٤ وهى أعظم وأكمل طائرة ابتدعها الإنسان ، ونقل ٥٠٠ صاروخ فينكس إلى تبوك بالسعودية - أو إلى أية دولة صديقة لأمريكا ! حتى لا تقع هذه الأسلحة فى أيدى السوفيت كما وقعت أسلحة السوفيت فى أيدى الأمريكان أثناء حرب سنة ١٩٦٧ !

خرج الشاه ، ودخل الخمينى - ولكن إيران تغيرت إلى غير رجعة . وسوف تعيد الدولتان العظميان حساباتها فى المنطقة .

وأمريكا وروسيا مختلفتان حتى فى تحديد معنى «الوفاق» القائم بينهما .

أحدث تعريف للوفاق ما قاله برجنيف أخيرا : من أن الوفاق هو عكس «الحرب الباردة» أى «السلام الساخن» - أى ألا تكون هناك حرب بين أمريكا وروسيا . ولكن أن يكون هناك استعداد نشيط لذلك . . أو أن الوفاق هو حرب باردة ثم سلام ساخن وبعد ذلك حرب باردة . . إلى غير نهاية . . تماما كما كان يفعل العالم الفرنسى باستور للقضاء على الميكروبات فى السوائل . . فهو يرفع حرارة السوائل إلى درجة الغليان فيقتل بذلك بعض الميكروبات . . ويهبط بالسوائل إلى ما تحت الصفر ، فيقتل ما تبقى منها ! .

وأما هذه الجراثيم أو الميكروبات «السياسية» فهى : سخط الشعوب على القوى العظمى فى كل العصور ، وأمل هذه الشعوب فى أن تكون حرة تدير شئونها فى الداخل والخارج !

ويتـوهم كـثـيـرا جـدا من يقـول إنه يعـرف مـا الذى يدور وراءنا بين مـوسكو وواشنطون . لأن الذى نراه على خريطة العالم عجب .

فلا أحد يعرف بالضبط أين الخير وأين الشر ومن الشيطان ومن الملاك ؟ وفى استطاعتك أن تسأل لتجد ألف جواب على ذلك . فما الذى يجعل الإجابات عندنا هكذا متناقضة ؟ وما الذى يجعل الخلافات بيننا هكذا جذرية ؟

أولا : إننا فى هذه المنطقة من العالم نلجأ إلى إحساساتنا فى فهم الاقتصاد والسياسة . .

ثانيا : إننا لسنا على يقين من أن الكلمات التى نستخدمها هى نفسها الموجودة فى «القاموس السرى» لموسكو وواشنطون . .

ثالثا : إننا فى المنطقة الواحدة والقومية الواحدة مختلفون فيما بيننا . . ولذلك فليس إسرائيل وحدها هى التى تعادى العرب ، وإنما العرب أيضا إلى جانب إسرائيل وضدها . .

رابعاً : إن نظرتنا إلى أنفسنا وإلى ما حولنا ليست علمية باردة . وهى لذلك قصيرة المدى . وهى قصيرة لأننا نحسب عمر الأحداث بالأيام لا بالسنين . . ونقيس مساحتها بالمتر وليس بالمنطقة . . وننسبها إلى الأشخاص وليس إلى النظم!

وليس فى الدنيا أروع من فكرة جاءت فى أوانها – وقد جاء الإمام آية الله روح الله الخمينى متأخرا عن موعده ١٤ قرنا . ثم إنه جاء بلا برنامج . وإنما جاء يصفى حسابا قديما . فقد أغتيل الخليفة على بن أبى طالب . وقتل ابنه الحسين فى كربلاء ، ولكن اغتصاب الخلافة من الإمام على أخطر من اغتيال الحسين . ولذلك فأعظم إنجاز للشيعة هو أن يصلوا إلى كرسى الخلافة . أى أن يكون الإمام الخمينى أو غيره واليا وإماما . أو يكون وليا وإماما – وليا لله وإماما للمسلمين .

وفى اللغات الأجنبية يطلقون كلمة «الثيوقراطية» أى حكم الله (ففى اللغة اليونانية : ثيوس معناها الله ، قراطين : معناه حكم) . . أو حكم رجال الدين . وقد اخترت أنا أن أسميها «الدينوقراطية» .

ولم يغفر الإمام الخمينى للشاه أنه أقام عشاء فى رمضان . ففى إقامة العشاء معنى أنه هو والذين دعاهم لم يكونوا صائمين . وكان فى استطاعته أن يدعوهم إلى إفطار !

ولم يغفر الإمام الخمينى للشاه أنه صلى الجمعة فى أسوان وراء إمام - فالشيعة إمامهم غائب . فلذلك ؛ فالصلاة وراء إمام باطل . وقيل للإمام الخمينى إن شاه إيران لم يضع تحت رأسه عند السجود قطعة من طين النجف وكربلاء . لأنه لا سجود إلا على أرض الشهداء . والحقيقة أن الشاه قد أخرج قطعة الطين وسجد عليها !

وقد سقطت حكومة إسحاق رابين رئيس وزراء إسرائيل لأنه أقام عشاء يوم السبت لعدد من الطيارين الأمريكان ويوم السبت مقدس عند *اليهود* - *فإسرائيل* هى الدولة العنصرية الدينية الوحيدة فى العالم كله ! فهل تكون إيران الدولة الثانية ؟!!

فمن الذى يحاسب الإمام الخمينى اليوم وغدا عن الدماء التى سوف تراق فى إيران ؟ ومن الذى سوف يحاسبه على جلوسه إلى المرأة التى خرجت ، وكان ينبغى ألا تخرج لتهتف : «خوده . قرآن . خمينى» - أى الله والقرآن والخمينى !

لقد جاء فى الصفحة الأولى فى كتاب «كشف المستور» للإمام الخمينى هذا الحوار الذى دار بين الإمام جعفر الصادق وبين سفيان الثورى : «قال الإمام جعفر : يا سفيان لا مروءة لكذوب ، ولا أخوة لملول ، ولا راحة لحسود ، ولا مجد لسيىء الخلق .

قال له سفيان : زدنى با ابن رسول الله .

قال الإمام جعفر : اتق الله تكن مؤمنا ، وارض بما قسم الله تكن غنيا ، وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلما ، ولا تصحب الفاجر فيعلمك من فجوره ، وشاور فى أمرك الذين يخشون الله عز وجل .

قال سفيان : زدنى يا ابن رسوله الله .

قال الإمام : من أراد عزاً بلا عشيرة . وغنى بلا مال . وهيبة بلا سلطان فلينتقل من ذل معصية الله إلى عز طاعته» !

وبعد ذلك فكل الكتاب يدعو الناس إلى الزهد فى الحياة وإلى مهادنة الأعداء وإلى حسن الجوار .

أما الآن فالأمر يختلف عندما تكون القضية هى السلطة !

ويختم الإمام الخمينى كتابه «فى إنتظار النور يجىء قريبا» فيقول نقلا عن الإمام جعفر الصادق أيضا – وأنا أنقل ذلك مطولا ، لكى نبعد معا قليلا عن الواقع الدامى فى إيران . . ولكى تبدو المسافة شاسعة تماما بين ما كان عليه الإمام الخيمنى بالأمس وما سوف يكون عليه السلطان الخمينى غدا . فالمسافة مروعة بين الإمام والسلطان . ولم يحدث أن قطعها أحد دون أن تقطعه ، وأمامنا التاريخ المسيحى والإسلامى .

يقول الإمام الخمينى نقلا عن الإمام جعفر : «إن كان الله قد تكفل بالرزق فاهتمامك لماذا ؟ وإن كان الثواب من الله فالكسل لماذا ؟ وإن كانت العقوبة هى النار فمعصية الله لماذا ؟ وإن كان الموت حقا فالفرح لماذا ؟ وإن كان الشيطان عدوا فالغفلة لماذا ؟ وإن كانت الدنيا فانية فالطمأنينة لماذا ؟» .

إن خريطة «الشر» الأوسط تتغير ألوانها ، وكذلك مناطق النار والدخان فيها وحولها ، فمن المؤكد اليوم أن النار حول الآبار . .

وإذا كانت رحلة الإمام الخمينى قد جاءت فى نفس الوقت مع رحلة البابا بولس الثانى إلى أمريكا اللاتينية . . فكلا الرجلين يقوم بدور سياسى . وكلا الرجلين وراءه تاريخ الصراع بين الدين والسياسة . ولا ينسى العالم الغربى ما الذى حدث بعد زيارة البابا الكسندر السادس (١٤١١ – ١٥٠٣) إلى أمريكا اللاتينية ، لقد أدت قراراته إلى تمزيق أمريكا اللاتينية فاقتسمتها أسبانيا والبرتغال . وهو الذى أحرق الراهب سافونارولا . . وهو الذى شن حروبا صليبية بلا مبرر . . وكان سياسيا جافا ساذجا ، كما أنه لم يكن مثالا أخلاقيا يحتذيه أحد !

والبقية هنا وهناك سوف تأتى . .

إن إيران قد عرفت المظاهرات بصورة عنيفة قبل ذلك فى سنة ١٩٥١ أيام مصدق . . وعرفت المظاهرات ضد الشاه حتى أخرجته فى ١٦ أغسطس سنة ١٩٥٣ أيام مصدق . . وعرفت المظاهرات قبل ذلك سنة ١٩٠٦ عندما ثار رجال الدين على الدستور الإيرانى المستمد من الدستور البلجيكى . . وثار الشعب الإيرانى احتجاجا على شركة الدخان البريطانية . .

إلا هذه المرة فالأسباب أقوى والنتائج أعنف . .

ولكننا الآن لا نستطيع أن نرى بوضوح تلك الكلمات التى اتخذت شكل الدخان . وصدى العويل حول الآبار ، فالدموع والدماء تجرى أنهاراً فى طهران !

إيران فوق بركان ..
من العدل والحق والدم !!

رجل أمسك بيديه عنق الجنرال نعمة الله ناصرى رئيس البوليس السياسى . وظل يضغط عليه حتى الموت ثم وقف فى جانب من الطريق يصلى لله شاكرا . . هذا الرجل هو الذى اعتقله الجنرال ناصرى يوم ٢٦ فبراير سنة ١٩٧٨ . وكان يحمل فى جيوبه بعض الكاستات . . وجانب هذه الكاستات سجلت عليه أغنيات كوكوش . أشهر مطربة إيرانية أما الوجه الآخر فمسجلة عليه خطبة الإمام خمينى فى ذكرى شهداء مدنة «قم» التى ألقاها قبل ذلك فى مدينة النجف الأشرف بالعراق . وهو يطلب إلى الناس أن يجاهدوا مهما كان الثمن .

يقول الإمام الخومينى : إن النبى لا يخاف ، فليس نبيا من يخاف يجب ألا يمشى المسلمون وراءه حتى لو كان يذهب بهم إلى الجنة ، إن إبراهيم عليه السلام حطم أصنامهم وأدخلوه النار . ولم يحرقوه . وموسى عليه السلام رفع عصاه فى وجه فرعون ونجا موسى ، والمسيح صلبوه لكنهم دون أن يدروا رفعوه . والرسول عليه الصلاة والسلام عذبوه وأهانوه لكنهم ما صلبوه ولا أحرقوه ولا أغرقوه ، وعلى ﵁ قتلوه وقتلوا أولاده وأحفاده . ودماؤهم فى أعناقهم إلى يوم القيامة . .

ولما سمع البوليس السرى هذه الأشرطة . اختفت عن العيون والآذان ولم يعرفها الشاه حتى ظهر ذلك الرجل . ولينتقم من الجنرال ناصرى . .

ولا تزال الدماء تسيل ، لأن إيران قد اشعلت ثورة ، لكنها لم تفز بالحرية . إنما عوقبت على ذلك بالفوضى ، ولكن هذه الفوضى لابد أن تنحسر . ولابد للإمام خمينى ورجاله أن ينظموا قواهم ، وأن يحصروا أعداءهم ، ويجمعوا رجالهم . .

فثورة خمينى ليست شعبية إنما هى جماهيرية . فهم قد جردوا الجيش من سلاحه . وأعطوا السلاح للشارع السياسى . .

وليس كل من حمل السلاح على الشاه مخلصا ، إنما هناك الذين يعادون الإسلام ، ولا يثقون فى خمينى ، ويريدون أن يسبقوه إلى عرش الطاووس قبل أن يسقطه إلى الأبد ، وقبل أن يستفتى على الإمامة أو الخلافة الإسلامية . .

ولا يزال الإمام خمينى يدعو الناس إلى إلقاء السلاح ، ويقول حمل السلاح حرام ، والاحتفاظ به حرام ، اتركوا ذلك لنا . .

وعندما ردد فى التلفزيون بلغة عربية غير مفهومة النبرات . . قوله تعالى «يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين ، وأغلظ عليهم ، ومأواهم جهنهم وبئس المصير» - كان يقصد الشيوعيين .

هناك أنواع من الشيوعيين لم يخطر على بال أحد أنهم هناك ، هناك رجال حزب «توده» الذى أنشىء منذ ثلاثين عاما ، وظل رجاله فى المنفى وفى السجون ، وهم الذين أعلنوا أنهم سوف يعودون . ويبررون موقفهم من الإمام الخمينى : بأنهم ليسوا رفاق الطريق ، إنما رفاق بعض الطريق بعض الوقت !

ويقولون إنهم سوف يطلبون إليه أن يعطيهم وجودا وشرعية . .

وهناك الحزب الشيوعى الإيرانى .

وهناك جماعة اسمها «فدائيو الخلق» وهم يطالبون بإلغاء البرلمان ، وتسريح الجيش وإنشاء جيش شعبى ، ويطالبون بالتأميم ، وطرد الأمريكان ، وقطع أية علاقة مع الغرب . .

ثم هناك «المسلمون الماركسيون» - وهم أضحوكة المذاهب السياسية والدينية معا . فقد رفعوا علما عليه : نجمة حمراء ومنجل ومطرقة وبندقية وخريطة لإيران والكرة الأرضية !

ويفسرون ذلك بأن النجمة الحمراء ترمز إلى الرسول عليه السلام فهو نجم ، إذا اختفى ظهرت نجوم أخرى . . أو كواكب أخرى تستضىء بنوره . والمنجل رمز للفلاحين ، والمطرقة رمز للعامل ، والبندقية رمز الكفاح ، وخريطة إيران رمز لتحرير إيران . والكرة الأرضية : رمز لتحرر العالم كله من القهر والظلم - وهذه هى المرة الأولى يرمز فيها الشيوعيون بالنجمة الحمراء إلى الرسول عليه السلام !

وفى نهاية خطبة الإمام الخمينى التى وجهها إلى أهل «قم» قال : «من يريد بقاء السلطان ، حشر يوم القيامة معه - وهذا حديث شريف فمن الذى يريد أن يدخل النار مع السلطان ؟ لا أحد ! وإنا لله وإنا إليه راجعون » .

ويحاول الشيوعيون أن يوهموا الجماهير أن الذى فعله الإمام خمينى هو بالضبط ما فعله الزعيم لينين .

فقبل لينين ، وقبل خمينى أيضا : كان القيصر نقولا الثانى فى قصره لا يسمع صرخات الجماهير ، وكذلك كان الشاه .

وكان للقيصر بوليس سياسى اسمه «اوخولا» وكان للشاه «السافاك» . .

وكان الحرس القيصرى اسمه «الشباب الشجاع» . وكان للشاه «الخالدون» .

وكان الحزب البولشيفيكى بزعامة لينين أقلية . تماما كالحزب الشيوعى الآن . .

ولكن فارقا كبيراً بين خمينى بين لينين أيضا ، فالشيوعيون منظمون ، ولديهم صيغة جاهزة ، والإمام الخمينى ليست لديه حلول لكل المشاكل الموجودة ، ثم إنه بدأ يتراجع ويتوافق مع كل القضايا التى رفضها قبل ذلك . . وهذا معناه أن رجالا حول خمينى بدأوا يبصرونه بحقائق الدنيا ومشاكل الحياة السياسية والاقتصادية فى إيران . . وبدأ هو يلعن الشيوعيين الذين يحاولون خطف الثورة منه . .

وفى كل المؤتمرات الصحفية التى عقدها خمينى فى باريس ، وفى الطائرة إلى طهران ، وفى طهران ، يتحدث عن الجمهورية الإسلامية . وليست لديه تفاصيل عن هذه الجمهورية سوى «المدينة المنورة» أيام الرسول عليه السلام ، والفارق بين الحياة فى المدينة المنورة وبين الحياة فى أية مدينة الآن نحو ١٤ قرنا ، تعقدت فيها العلاقات الإنسانية والاقتصادية والسياسية والقومية والمذهبية والعنصرية والدولية . .

وإن كانت هناك جمهورية صغيرة قد أسعدت الإمام خمينى فهذه الجمهورية قد أقيمت . دون علم منه ، فى مدينة «قم» وهى المدينة المقدسة فى إيران ، ففيها قبر السيدة فاطمة المعصومة ابنة الإمام موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق ، وفى ضريح هذه السيدة فاطمة أهينت أم شاه إيران . فما كان من والده إلا أن داس المسجد بحذائه . . وفى هذه المدينة أصبح آية الله روح الله خمينى خلفا لآية الله كشانى . . وبسبب الخطبة التى ألقاها خمينى فى هذه المدينة طرد سنة ١٩٦٤ إلى تركيا ، ومنها إلى العراق ، ومنها إلى فرنسا . .

وقتل فى هذه المدينة ألوف الشباب والنساء ، وسارت الجنازات كل يوم ، وكل أربعين يوما ، وكل عام حتى أصبحت مدينة الحزن الأبدى . وطردت المدينة رجال

الجيش ورجال البوليس وأغلقت الدكاكين ، وقام رجال الدين بالحراسة وتوزيع الطعام والتمريض فى المستشفيات وإقامة العدل بين الناس فى محاكم شعبية ، وأعلنت مدينة «قم» انفصالها واستقلالها عن الحكومة المركزية فى طهران .

تماما كما فعل الراهب الإيطالى سافونارولا فى مدينة بإيطاليا ، حتى أعدموه !

وأصبحت مدينة «قم» هى «مدينة الله» التى كان يحلم بها القديسون والأئمة والفلاسفة : القديس أوغسين . والفيلسوف الفارابى ، والفيلسوف أفلاطون ، والفيلسوف توماس مور ، والفيلسوف فيكو . .

وأخذ الشيعة الإماميون الاثنا عشريون الإيرانيون يحلمون بأن تكون «قم» عاصمة الجمهورية الإسلامية الجديدة . .

وفى هذه المدينة عاش الإمام خمينى وفيها قتل أبوه ، وفيها ماتت عمته التى ربته ، وفيها ماتت أمه أيضا .

واحتفلت جمهورية «قم» هذه بأن علقت المصابيح الكهربية على بيت الإمام وفرشت أرضه بالسجاد . . وألقت السجاجيد العجمية على الشوارع – هذه السجاجيد أخذتها من مخازن اليهود – وبلغ طول الأرض التى غطيت بهذه السجاجيد ثلاثة كيلو مترات . أما ثمن هذه السجاجيد فعشرة ملايين جنيه .

وقد فعل الإيرانيون فى الكويت نفس الشىء عند أول زيارة للشاه . وأعلن المليونير بهبهانى فى ذلك الوقت : لو جاءنا الشاه فى العام القادم لغطينا له أرض الكويت كلها – وكان ذلك اعتذارا عن نقص فى السجاجيد العجمية عند أصحاب الملايين من الإيرانيين !

وسوف يمضى وقت طويل قبل أن يعرف الإمام الخمينى ما معنى هذه المواقف العربية الغريبة من ثورته ؟

فالعراق اعترفت بثورة خمينى ، لأن العراق أغلبيتها من الشيعة (٧٠٪ من الشعب) . وفى العراق كل الأماكن المقدسة : النجف وكربلاء . أما الحكومة فمن الأقلية السنية . ثم إن هذه الأقلية السنية على خلاف مع الأكراد وهم سنيون . .

ولن ينسى لهم خمينى أنهم طردوه فى أكتوبر الماضى إرضاء للشاه . ولن ينسى الإمام خيمنى أن السيد صدام حسين قد طلب إليه أن يصدر بياناً مشتركا ضد إيران بسبب الخلاف بينها وبين العراق على مشكلة شط العرب . فقال له الإمام

خيمنى : أنا ضد الشاه ولست ضد إيران . . ولو كنت ضد إيران فسوف أصدر هذا البيان من إيران نفسها ، ولا من خارجها !

ويومها منعت عنه حكومة العراق أن يزوره أحد من الناس .

ثم إن العراق هو الذى قتل ابنه آية الله مصطفى !

وسوريا : أغلبها من السنة . . والحكومة من الأقلية الشيعة . . ثم إن هذه الحكومة هى التى سفحت دماء نصف المليون الشيعى فى جنوب لبنان . . وأحرقت أرضهم ، وهم من الفقراء . .

وليبيا : من أهل السنة . . وفى نفس الوقت هى التى قضت على الإمام موسى الصدر الشيعى اللبنانى . . ولذلك رفض الإمام خمينى أن يهبط فى طرابلس عندما وجهت إليه الدعوة ، ورفض المعونة المادية التى عرضتها ليبيا عليه ، لأن نصيب الإمام خمينى من الزكاة سنويا يعادل عشرة ملايين جنيه يوزعها على الفقراء من الشيعة فى العالم ، وينفق منها على الطلبة الذين يدرسون فى العراق ، وقد أعطى لنفسه مرتب طالب ، لأنه يعتبر نفسه «طالباً للعلم حتى الموت ، وطالبا للعدل حتى الموت ، وطالبا للموت فى سبيل الله» .

وإمارات الخليج كلها : فيها أغلبية من الشيعة وخاصة فى البحرين . وكلهم على استعداد لأن يفعلوا ما يأمر به الإمام الخمينى .

وفى السعودية حوالى ربع مليون من الشيعة يعيشون فى المناطق الشرقية ، وفى مناطق البترول . .

وهاجم الإمام الخمينى كل حكومات السعودية والخليج ، واتهمهم جميعا بأنهم سنيون متعصبون ، وأنهم يحكمون بغير ما أنزل الله على رسوله . . إلخ .

ومصر قد هاجمها أيضا ، وهاجم الأزهر الشريف أخيرا . واتهم رجال الأزهر بأنهم معادون للشيعة ، وأن الشيعة لو كانوا أكثر من ذلك عدداً لقضى الأزهر عليهم» . .

وليس فى مصر إلا عشرات من الشيعة . بل إن مصر لا تعرف هذا التعصب المذهبى ، وأكثر المسلمين لايعرفون إلا أربعة مذاهب فقط هى : الشافعى والمالكى والحنفى والحنبلى . . والذى يترددون على مسجد الحسين ﷺ ، ويرون أن الصلاة فيه فى رمضان من معالم الصيام . لا يعرفون ما هى علاقة الحسين بالمذهب

الشيعى . . إنما هم فقط يتبركون بالصلاة فى مسجد شهيد من أهل بيت الرسول عليه السلام . .

وفى نفس الوقت تتردد نغمة لا معنى لها ، أو أصبحت بلا معنى الآن : التضامن العربى . .

ولم يحدث أن أريق ماء وجه كلمة فى القاموس السياسى ، كما حدث لكلمة «التضامن» هذه . . والأمثلة على ذلك كثيرة جدا : بين مصر وسوريا وبين مصر والعراق ، وبين مصر وليبيا ، وبين مصر والكويت . . حتى السعودية هى الأخرى قد تورطت فيما لا ضرورى له . . وتجربة مصر مع سوريا قبل حرب أكتوبر وأثناؤها ، وبعد فض الاشتباك الأول والثانى ، وقبل المبادرة ، وبعدها ، وأثناء عدوانها على لبنان ، أكبر دليل على أن التضامن معها معناه : أى موقف ضد مصر . . حتى لو كانت مصر تحاول أن تحقق أحلام العلويين الحاكمين فى سوريا . .

ولا يختلف كثيرا عن ذلك موقف ليبيا البهلوانى من الوحدة ، ولا سحب قواتها من مصر ، ولا رفض أن تكمل ما دفعه الملك السنوسى للرئيس عبد الناصر . . ولا إعادة السفن فارغة . .

وكان من الصعب على مصر أن تلغى عقول مفكريها ورجال دينها من أجل احتضان أفكار ساذجة عن الإسلام والسياسة . مهما دفع القذافى من مال . .

وكان من الصعب على الرئيس السادات شخصيا أن يقتنع بما شرحه القذافى من أخطاء وقع فيها قادة عظام ، من أمثال : مونتجمرى وأيزنهاور ورروميل .

ولما سأل الرئيس السادات الجنرال معمر القذافى عن معنى كلمة جاءت تتويجا لست مقالات عن نقد المعارك الحربية فى الصحراء ، لم يجد ما يقوله القذافى ، ولم يجد الرئيس السادات ما يفهمه . أما الكلمة التى لم يفهمها الرئيس السادات وسمعها الرئيس حافظ الأسد لأول مرة فهى : «التمفصل» . .

هذه الكلمة أضافها الجنرال القذافى إلى القاموس العسكرى ، وهى كلمة السر فى تفسير هزائم العالم فى معاركه العسكرية ، ابتداء من حصار نابليون وهتلر لينينجراد حتى نكسة مصر سنة ١٩٦٧ ، ولم تنطبق هذه الكلمة على حرب أكتوبر ، لأن القذافى يرى أن مصر قد انهزمت أمام إسرائيل ! .

وإذا كان «التضامن» العربى غير مفهوم ، فإن كلمة «العربى» أيضا لم تعد مفهومة ، فنحن فى مصر نقول : العربى – ونقصد بذلك كل من ليس مصرياً . مع أننا عرب أمس واليوم وغدا ، لغة وتاريخا وكفاحا ودينا ومصيرا . .

وفى البلاد العربية الأخرى عندما يقولون : الخونة المنهزمون فإنهم يقصدون المصريين ، مع أن مصر تفعل فى علاقتها بالدول الاستعمارية أكثر ما تفعله العراق الأمريكية السوق والدولار . . ومما تفعله ليبيا وسوريا . . وإذا كنا قد طردنا السوفيت من بلادنا تحريرا لإرادتنا القومية . . فمن المستحيل أن تأتى بقوات أخرى ، تحتل بلادنا ولنفس السبب !! . ثم من بين العرب جميعا استطاع أو يستطيع أن يقدم أو يضحى أو يتحدى ويتصدى لإسرائيل ووراءها أقوى دولة فى العالم ، كما فعلت وتفعل مصر ؟!

وعلى هذه الأرضية الجديدة للنار والدمار والدماء والتعطش للثأر والاعتراف بثورة إيران : ما هو معنى التضامن العربى ؟!

كيف نسمى تضامن شيعة العراق مع السنيين فى سوريا أو تضامن السنيين فى السعودية مع الشيعة فى البحرين ؟

وكيف يكون تضامن خرافات ليبيا مع تمزقات الكويت ؟

ومع ذلك فإن مصر – وهذا موقفها الرسمى – على استعداد لأن تدافع عن الكويت ضد العراق . .

وعلى استعداد لأن تدافع عن السعودية ، بأى عدد من رجالها وأى حجم من قواتها ، إذا طلبت السعودية ذلك . .

وليس سرا أن يقال إن مصر تعاون عشرات من الدول الأفريقية على أن تتحرر من الإرهاب على حدودها . والتقلبات الشيوعية فى بلادها . . وليس سرا أيضا أننا نطلب المزيد من السلاح الأمريكى لنساعد دولا شقيقة وصديقة على حماية نفسها ووحدة أرضها !

إن الفيلسوف الإيطالى ميكيا فيللى هو الذى قال : إن النبى نفسه إذا لم يكن له جيش فإنه يموت . .

ولكن الذى يرى ما حدث فى إيران يقول أيضا : بل الملك إذا كان له جيش فإنه يموت أيضا !

والخلاف بين العبارتين هو : ما هو المقصود بالجيش ؟ فإن جيش شاه إيران ، لم يكن معه ، إنما كان عليه . .

وكما أشرت فى الأسبوع الماضى : فقد وقع الشاه وآية الله خمينى والشيوعيون والأمريكان فى مجموعة من الأخطاء القاتلة . وسبب ذلك أنهم أساءوا فهم الأطراف الأخرى !

إن أمريكا نفسها لم تدرك معنى خروج آية الله روح الله خمينى من بلاده سنة ١٩٦٤ . . والأتباع خمينى يؤرخون لهذا العام : بأنه سنة «الغيبة الصغرى» أى عندما اختفى الإمام بعض الوقت ، ليظهر بعد ذلك .

وفى هذه السنة بالذات وقعت أحداث كثيرة فى الدنيا ، كانت لها آثارها العميقة فى الشرق والغرب . ولكن أحداً لم يدر بها إلا بعد ذلك . .

ومن العجيب حقاً أن أمريكا قد أطلقت فى هذه السنة «سفينة الفضاء رنجر ٧» لتلتقط صوراً لسطح القمر عن بعد . . وأنها أنزلت إلى عمق ١٩٢ قدما تحت مياه برمودة معملا لتقيس أثر الأعماق على العقل الإنسانى . . ولكن أمريكا لا استطاعت أن تصور إيران ، ولا أعماق التغييرات التى حدثت فيها عن بعد أو عن قرب مع أن بها أربعين ألفاً من الخبراء ! .

ووقفت أمريكا وراء الشاه ، وألوف الملايين من دولارات الشاه ، وأنستها هذه الملايين كل شىء إلا أن تجعل الشاه أقوى رجل فى الشرق الأوسط . فكان أقوى رجل فى أفقر شعب . . وكان وحيدا عاليا يرى الناس صغارا ، وإذا رآهم لا يسمعهم . . وإذا سمعهم فإنه لا يصدق أذنيه ، فقد احتفظ فى أذنيه بعبارة واحدة ، هذه العبارة انحشرت فى أذنيه ، والتصقت بعينيه : عاش الشاهنشاه أريا مهرى إلى الأبد - أى عاش ملك الملوك حبيب الآريين إلى الأبد !

وفى سنة «الغيبة الصغرى» قامت مظاهرات ضد أمريكا فى بناما ، وطرد الشعب سلطان زنزبار ، وطردت السعودية الملك سعود وطردت روسيا خورتشيف ، وقام مكاريوس بتمزيق معاهدة سنة ١٩٦٠ بين تركيا واليونان وقبرص وأعلن القتال ، وأطلقت الهند سراح الشيخ عبد الله أحد زعماء كشمير ، وأقامت فرنسا علاقات دبلوماسية كاملة مع الصين . . وضرب الفيتناميون مدمرة أمريكية ، وهاجمت الطائرات الأمريكية القواعد الفيتنامية . . وشكت أمريكا من وجود أجهزة تصنت

إلكترونى فى سفارتها فى موسكو ، وأصبح مويس تشومبى رئيسا للكنغو ، وجونسون أنتخب رئيسا لأمريكا ، وزرا شواين لاى موسكو . . والرئيس ديجول قام بجولة لدول أمريكا اللاتينية ، كالتى قام بها أخيراً البابا يوحنا الثانى . . وطرد الإمام الخيمنى !

وكان السفير الأمريكى سوليفان ، وهو رجل عنيف سليط ، وهو الذى الذى طلب إلى الشاه أن يخرج ، وخرج . وهذا الرجل سوليفان هو الذى قال لزوجة ماركوس الرئيس الفلبينى يجب أن تفعلوا شيئا من أجل الشعب الجائع ، وسألته : ألا نقدم له الخبز !

فأجابها بل قدموا له الفطير ، وتضايقت إميلدا حرم الرئيس ماركوس وقالت : أعرف أنك تقصد ماسبق أن قالته مارى انطوانيت زوجة لويس السادس عشر ، عندما ثار الفرنسيون لأنهم لا يجدون الخبز ، فقالت : ولماذا لا يأكلون الفطير !

ورغم أن هذا الرجل سوليفان كان محاصرا من الشعب الإيرانى ، فإنه قد أشار إلى رجال السفارة أن يشربوا البيرة ، وشربوا البيرة ، وواجهوا الشيعة المسلمين الذين يحرمون شرب الخمر !

إلى هذه الدرجة من التحدى والغطرسة وسوء الفهم ، كان موقف الدبلوماسيين الأمريكان ، ومع ذلك فقد توجهت وزارة الخارجية الأمريكية بالشكر إلى الإمام الخمينى لمعاملته الكريمة لرجال السفارة !

وفى نفس الوقت قتل الشيوعيون السفير الأمريكى فى كابول ، عاصمة أفغانستان وكاد الرئيس كارتر يلغى رحلته إلى المسكيك ، لولا حاجته لبترول المكسيك ، ومشاكل أخرى كثيرة . . وقد تلقى الإهانان فى كل حفلة أقيمت له ! ولكنه ثورة إيران قد جعلت لطم خدود الرؤساء والملوك من علامات العصر . .

ونحن فى هذه المنطقة المشتعلة من العالم نتوقع بسذاجة سياسة ، أن تنقلب الدنيا فوق دماغنا من أجل ضياع باكستان وأفغانستان وإيران ، وأن تطير الصواريخ عابرة القارات من موسكو وواشنطون وتتساقط مشتعلة فوق المحيط الأطلسى أو الهادى . . وأن تتفرج في منتهى الشماتة على خراب أمريكا وروسيا . . وننسى لروسيا وأمريكا حسابات واتفاقات سرية لا نعرفها . .

وإذا كانت ثورتنا فى هذه المنطقة قد اتخذت شكلاً دينياً ، . فلأن الإسلام هو الصيغة الوحيدة المؤكدة عند الأغلبية الساحقة ، ولذلك اتخذ الغضب والسخط

والثورة شكلا إسلاميا ، لكن الدين هو لعبة الدول الكبرى ، وليس طعامهم ولا شرابهم ، ولاتزال القيم الأخلاقية هي سلاح الضعيف ، أما المصلحة فهي سلاح الدول القوية ، ولايزال القوى حريصاً على أن يظل الضعيف مؤمنا بالله واليوم الآخر . . وفى هذه الحالة يقوم الضمير بدور رجل الشرطة الذى لاينام ولايغفل ، وهو بذلك يحمى الأقوياء لأنه يصد الفقراء عن السرقة وعن الخطف وعن القتل !

ولذلك فهناك نظرتان إلى كل شىء فى هذا العالم السياسى : نظرة الضعفاء ، ونظرة الأقوياء . .

فالسياسة عند الفقراء مبادىء وأخلاق . . وعند الأغنياء . . والسياسة هى السفالة الأنيقة . .

وفى التاريخ السياسى والعسكرى الأمريكى فى الثلاثين عاما الماضية ٢١٤ حادثة دولية خطيرة . ولكن هذه الحوادث لم تدفع أمريكا إلى الحرب مباشرة - إلا حرب فيتنام وقد دفعت أمريكا ثمنا فادحا لذلك من العار والخوف والهوان ، وإن كانت فى أمريكا أصوات تتعالى بأن الأمريكان يجب أن يكون لهم «حضور قوى» بدلا من هذا «الغياب الضعيف» .

وفى هذه الحوادث الدولية أو الحوادث العالمية ، كانت أمريكا تهدد بالقوة وليس بالحرب . .

والحوادث «الدولية» هى التى تقع بين دولتين متجاورتين ، دون أن يكون هناك خطر عالمى . .

والحوادث العالمية هى التى تهدد بالخطر الشامل وبمواجهة روسيا وأمريكا . .

وسوف أضرب لذلك ثلاثة أمثلة صارخة ، وقعت على مدى ثلاثين عاما :

ففى يوم ١١ نوفمبر سنة ١٩٤٥ توفى السفير التركى فى أمريكا ، واسمه محمد منير أرتجين . وهو حادث عادى جدا ، ولا يمكن أن يشغل بال أمريكا أو أوروبا ، وخاصة أن أمريكا فى ذلك الوقت كانت تقوم بالزحف على برلين وعلى طوكيو . .

وبعد ١٦ شهرا أعلنت أمريكا أنها سوف تنقل رفات السفير إلى إسطنبول ووضعت أمريكا جثمان الفقيد على أقوى قطعة بحرية لها واسمها «ميسورى» ، فعلى هذه السفينة ميسورى وقف الجنرال ماكارثر يحتفل باستسلام اليابان بلا قيد ولا شرط .

ويوم ١٢ مارس بدأت السفينة ميسورى رحلتها ، وعندما مرت بجبل طارق أرسل الحاكم البريطانى باقة من الورد لتوضع على نعش السفير التركى ، وسارت وراء ميسورى مدمرة ثم بارجة . . ويوم ١٥ أبريل وقفت قطع الأسطول الأمريكى فى ميناء أسطنبول .

ولم يكن من الصعب على أحد أن يستنتج المعنى الذى أرادته أمريكا أنها قادرة على أن تمد حمايتها إلى أى مكان فى العالم ، وأنه لا معنى لأن تمضى روسيا فى طلب مواقع تركية تطل على مضيق الدردنيل .

فأمريكا - إذن - قد استخدمت الجيش لأسباب سياسية .

وثانيا : فى ١٨ أغسطس سنة ١٩٧٦ تقدم اثنان من الجنود الأمريكان فى المنطقة المنزوعة السلاح بين كوريا الشمالية والجنوبية وراحا يقتلعان إحدى الأشجار . عندما قتلهما لغم كان تحتها ، واحتجت أمريكا ، وطالبت كوريا بالاعتذار ومعاقبة المجرمين ، ولم تعتذر كوريا . ووصف هنرى كيسنجر هذا الحادث بأنه «قتل مع سبق الإصرار والترصد» .

ووضعت أمريكا قواتها فى حالة الاستعداد القصوى . . أرسلت أسرابا من الطائرات المقاتلة وقاذفات القنابل . وحركت قطع الأسطول بين قواعدها فى أمريكا وفى اليابان . وتحت مظلة جوية كثيفة جدا ، تقدم الجنود الأمريكان يقتلعون الشجرة .

وأخيرا اعتذر أحد العسكريين الكوريين ، ثم دخلت أمريكا فى مفاوضات مع كوريا الشمالية ، وكانت المفاوضات تجارية بحتة ، والمعنى أن كوريا على استعداد ألا تكرر ذلك إذا أعطتها أمريكا بعض التيسيرات التجارية .

ولم تقع حرب بين أمريكا وكوريا الشمالية .

وثالثا : وقبل ذلك فى يوليو سنة ١٩٧٦ نزلت طائرة إسرائيلية إلى مطار عنتبى بأوغندا لتحرير الرهائن اليهود من أيدى القوات الفلسطينية . وكان التوتر عنيفا بين أوغندا وكينيا . لأن كينيا قد سمحت للطائرة الإسرائيلية أن تهبط أثناء عودتها بالرهائن فى مطار نيروبى . وقد هدد عيدى أمين بالحرب ، وبدخول قواته إلى الأراضى الكينية .

وفى ذلك الوقت هبطت طائرة أمريكية من سلاح البحرية مطار نيروبى . وقيل فى تفسير ذلك إنها زيارة عادية . . وبعد ذلك بيوم واحد جاءت قطعة بحرية ورست فى ميناء ممباسا ، ثم حاملة الطائرات الأمريكية «رانجر» ، وقيل تفسيرا لذلك إنها زيارة ودية . . وكان واضحا أن أمريكا تؤيد كينيا فى مواقفها . .

ومنذ سنة ١٩٤٥ استخدمت أمريكا الجيش بأسلحته المختلفة وأحجامه المتنوعة ، سلاحا سياسيا حتى لا تكون حرب . .

حدث ذلك أيام العدوان السوفيتى على تشيكوسلوفاكيا والمجر ، وأيام أزمة الصواريخ فى كوبا ، وأيام أزمة لبنان ، وكارثة الأردن ، وحرب ١٩٦٧ وحرب ١٩٧٣ .

وأخيرا فى إيران أرسلت أمريكا سربا من الطائرات إلى السعودية ، وأرسلت قائد الطيران ووزير الدفاع ، وأوقفت حاملة طائرات كانت فى طريقها من مانيلا بالفلبين إلى الخليج وقفتها أمريكا فى منتصف الطريق !

إن شيئا لم يهز العالم العربى منذ خروج الملك فاروق ، ونهاية أسرة محمد على ، وخروج ملك العراق . بعد ذلك بست سنوات . والعدوان الثلاثى على مصر ، وحرب أكتوبر كما فعلت ثورة خمينى . .

وسوف تبقى مشكلة إيران حية صارخة دموية . . ويبدو أن خروج الشاه لا يكفى ، وإعدام جنرالاته لم يرو عطشا مزمناً . .

إن ثورة إيران بركان يقذف العدل والقهر ويرى الحق والظلم ويحرق الدماء ويسيلها . .

إن هناك من يعادون الإمام الخمينى فيقولون : جاء الحقد وزهق الباطل ليزهق الحق مرة أخرى .

ومن يقولون : إن الخوف من خمينى سوف ينتهى بالخوف عليه أيضا .

وإذا كانت ثورة إيران لم تجد لها صيغة واحدة ، ولا شخصا يفلسف غضبها ، فكذلك كانت الثورة الفرنسية حتى ظهر لها نابليون . . فما الذى تنتظره إيران . . أو ينتظرها ؟!

* * *

ليس من حق الأمريكان أو الأوروبيين أن يتهموا إيران بالوحشية لأنها تطالب محاكمة الشاه المريض كمجرم حرب . ففى السجون الألمانية مجرمو حرب المرضى ، ولكن المرض لم يؤد إطلاق سراحهم أو تخفيف العقوبة عنهم . . رودلف هيس مثلا السجين وحده منذ عشرات السنين والمصاب بعدة أمراض . . وكابلان الذى أفلحت زوجته فى تهريبه من مستشفى السجن فى إيطاليا إلى ألمانيا - ومع ذلك فإن أحداً لم يتهم أوروبا كلها وروسيا وأمريكا وبريطانيا وفرنسا بالوحشية والبدائية !

ولكنها الحرب وويلات الحرب وجرائم الحرب التى يستحق عليها المجرمون أقسى أنواع العقاب . . ولكن مشكلة إيران أن على رأسها حكومة دينية . وأن العالم ينظر إلى الإسلام والمسلمين على أنهم أبناء الرحمة والتسامح الدينى .

ولكن ما اسم ذلك الدين الذى يدعو إلى التسامح مع الذى قتل الألوف ونهب عشرات الألوف من ملايين الدولارات هو وأسرته وحاشيته ؟

لا دين يدعو إلى هذا التساهل فى حق الملايين !

والموقف فى إيران وفى أمريكا وفى الشرق الأوسط فى غاية الدقة والصعوبة فقد حدث ما يمكن اعتباره امتحاناً عسيراً لثورة إسلامية ، واختباراً لحدود القوة التى تملكها أمريكا أقوى دولة فى العالم . .

إن احتجاز الأمريكان في سفارتهم فى طهران ليس إلا استئنافاً لحساب قديم بين الإمام مرجع الإسلام آية الله روح الله الموسوى الخمينى وبين شاه إيران .

فقد حدث يوم ٤ نوفمبر ١٩٦٤ أن وقف آية الله الخمينى أمام أكبر تجمع إيرانى فى مدينة قم ، وقال لو أن كلب السفير الأمريكى ركب سيارة وداس الشاه ، فإن الكلب لن يقف ولو أن الشاه نفسه داس بسيارته كلب السفير الأمريكى لانفتحت على الشاه كل

محاكم إيران . إذ كيف استطاع هذا المواطن الإيرانى أن يدوس كلب السفير : صاحب السعادة الكلب الذى يملكه صاحب السعادة والفخامة السفير الأمريكى .

ولم يكد الإمام يفرغ من إلقاء كلمته هذه حتى طرده الشاه من إيران ، فلم يعد إلى إيران إلا فى فبراير الماضى ، بعد أن أمضى فى المنفى ١٤ عاما وشهرين .

وكانت هذه الخطبة قد ألقيت يوم عيد ميلاد الإمام الخمينى وهو عيد ميلاد السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله عليه السلام .

وفى عيد ميلاده التاسع والسبعين من هذا العام أيضاً هاجم الطلبة سفار أمريكا (٣٦ فدانا) والسفارة لا ترقى إلى مستوى السفارة السوفيتية فى ضخامة مبانيها وقدرتها على حماية من فيها . ففى أثناء الحرب العالمية الثانية أقام فيها روزفلت وتشرشل وستالين . ولم يقيموا لا فى السفارة الأمريكية أو البريطانية !

أما الذى أشار إليه الإمام الخمينى فى خطابه هذا فهو قانون الامتيازات الأجنبية ، وكان هذا القانون قد صدر منذ ١٥٠ عاما لحماية الرعايا الروس . فكان الروس لا يحاكمون أمام المحاكم العادية . فهم طبقة أخرى من الناس ، ثم طالب الإنجليز بأن تكون لهم نفس المزايا . . وبعد مائة سنة من صدور هذا القانون جاء رضا خان أبو الشاه السابق ، وألغى هذا القانون . وراح الشاه يباهى الأمم كلها بأنه ألغى ذلك القانون الذى يجعل المواطنين الإيرانيين من الدرجة الثانية . وثار الإمام الخمينى ورأى فى ذلك ادعاء كاذبا . إنه الشعب الإيرانى الذى ثار على القانون الذى ألغى جميع القوانين ، وليس رضا خان .

وبعد ٣٧ عاما من إلغاء «قانون العار» القومى بأن يكون للأجانب ماليس للمواطنين ، أعاده شاه إيران ، فأصبحت لألوف الخبراء الأجانب العسكريين الأمريكان حقوق فريدة إن بل إن هذا القانون قد صدر دون أن يوافق عليه البرلمان . . فقد وافق عليه بعض الأعضاء وهم فى بيوتهم . ونشرت الصحف أنه تمت الموافقة عليه بالإجماع . أى بالإجماع الكاذب أو الإجماع الأخرص . . فلم يكن أحد قادراً على أن يفتح فمه بكلمة «لا» أو «نعم» .

مع أن المادة الثانية من الدستور الإيرانى تنص على أنه لا يصبح قانون نافذا إلا إذا عرض على خمسة من «المراجعين» أى من العلماء الذين يعتبرون مرجعا فى الشريعة الإسلامية !

فاحتلال السفارة الأمريكية لم يكن انفلاتا من الشباب . ووحى الساعة . إنما

كان معروفا ومخططا له ، ولذلك استقال رئيس الوزراء بازرجان الذى التقى بمستشار الأمن القومى برزنسكى في الجزائر ساعتين . وأطلع مستشار الأمن الأمريكى على رغبة إيران فى استئناف العلاقات الطبيعية ، وأنه هو شخصيا لا يوافق على الإمام الخمينى على العنف الثورى - أى العنف الذى يشوه الثورة ويسىء إلى الإسلام ويضيع حقوق إيران . لقد أحس بازرجان أنه آخر من يعلم . وكان بالفعل آخر من يعلم . فقد لفظته الثورة لتستبقى لنفسها قوة الاندفاع فى كل اتجاه .

وتحيرت العقول والأقلام أمام الثورة الإسلامية فى إيران .

فعندما قامت ثورة إيران منذ عشرة شهور . أحس المسلمون جميعا بكثير من الكبرياء . فقد أيقنوا أن الإسلام الذى يبلغ من العمر أكثر من ١٤ قرنا قادر على أن يغير التاريخ بالنور والنار . وأن ثورة الخمينى على فساد الشاه فى إيران تكذيب لكل ما قيل عن جمود الإسلام . وفساد المسلمين . ولمزاعم المستشرقين التى تقول إن الإسلام قد ملأ قلوب المسلمين بالاستسلام . ولذلك تخلفوا وسوف يتخلفون أكثر . ولكن عندما قامت ثورة خمينى تعددت الأوصاف والأسباب لقيامها .

وكان أيسر تفسير لذلك أن للخمينى حسابا قديما مع الشاه ، فأبو الشاه قتل أباه . والشاه قتل ابنه ، ثم سجنه الشاه عشرة شهور ثم طرده إلى تركيا وحاربه فى العراق وعندما استقر الخمينى فى باريس أخذ يشن على الشاه حرب «الكاستات» يسجل عليها منشوراته الثورية ويتناقلها الناس من كل بيت شيعى فى إيران وفى العراق وفى الخليج . وكانت التحديات ضخمة أمام الخمينى . .

وعندما دخل إيران كانت لثورته قاعدة : الفساد العميق للشاه والشعور الدينى الراسخ عند المسلمين . ولكن بسبب فداحة الفساد لم يتمكن الخمينى من إصلاح كل شىء فى يوم أو حتى فى ألف يوم . فالثورات أكثرها أمل ، وأقلها عمل ، ولايزال الأمل فى أن يصبح الخمينى قادراً على تحقيق أمل الناس فيه . .

ولكن الثورة فى نفس الوقت فكر وممارسة . . والفكر بلا ممارسة : جسد ميت والممارسة بلا فكر : قوة عمياء . .

ولا عمل ثورى بلا فكر ثورى . .

وكانت للخمينى أفكار ثورية . ولكن لم تكن له أعمال ثورية . . أو تجربة فى السياسة والحكم . . أى ليس له «دليل عمل ثورى» ولذلك أفلت الموقف من يده .

وبعد أن كان الشاه هو الطاغية الوحيد ، أصبحت الجماهير هى الطاغية . وطغيان الجماهير : هو جمهرة من الطغاة .

وإذا كان الثراء الفاحش خطيئة ، فإن الفقر البالغ خطيئة أيضا . . وبذلك انتقلت إيران الشاه إلى إيران الخمينى . . أى من خطيئة الثراء إلى خطيئة الفقر . .

وإذا كانت الثورات تبدأ بالتمرد على الفقر فإنها تفعل ذلك لكى تصل إلى ثراء طبقة ، فتثور عليها لتعود إلى الفقر وتثور عليه مرة أخرى . . وهكذا حتى تجد لها قاعدة تستقر عليها وكل ثورة لابد لها من قاعدة تستقر فوقها . .

والثورات كالملوك فلا يوجد ملك ليس من أجداده واحد من العبيد . .

ولا يوجد عبد ليس من أحفاده واحد من الملوك . . وهكذا إلى غير نهاية . .

وليس لأحد أن يستغرب لما تحدثه الثورات عادة . . فتاريخ الثورة الفرنسية والثورة الروسية مخضب بالدماء . . فالثورة ضرورة . وأخطاء الثورات فادحة . ولكن لا مفر منها . . أى لا مفر من العنف معها وفى كل اتجاه ، إلى أن تجد لها خطا وأسلوبا ، وتحقق لها هدفا . .

وقديما ثار الإنسان فى الجنة . . ففى الجنة – كما تقول التوراة – عصى الإنسان ربه فأكل من شجرة المعرفة . . أى أن الثورة بدأت بالعصيان والمعرفة . . أى بالتمرد والفكر . .

فهل نحن فى مرحلة مبكرة لكى نحسب خسائر ومكاسب الثورة الإيرانية ؟

ربما كان ذلك السؤال معقولاً لو أن الثورة الإيرانية قد لقت احترام العالم كله . . أو العالم الإسلامى على الأقل ، ولكن الذى يغرينا بأن نحسب أرباحها وخسائرها أنها وفرت علينا ذلك . فخسائر فادحة ، وخسارتنا نحن المسلمين فيها أفدح من ذلك . .

فليس بين المسلمين قلب واحد لم يخفق للإمام الخمينى . وليس من المسلمين واحد لم ير فى الإمام الخمينى بطلا خرج من كتب السيرة يمحق الفساد بنور الله . . ولكن !! .

ولكن – هذا – قد ساعدنا على الإسراف فى استخدامها الإمام الخمينى نفسه . فبدلاً من أن تؤدى هذه الثورة إلى إنعاش الفكر الإسلامى ويقظة الضمير الدينى وإصلاح ما أفسده الشاه . فقد دار رأس الإمام الخمينى وبدأ يتحرك معصوب

العينين مسدود الأذنين . . وأحس بأن دخوله طهران كان انتصاراً شخصياً وانتقاماً عائلياً . ولذلك لم يلتفت الإمام الخيمنى إلى القوة التى خرجت إلى الشارع تهتف له أملاً فى أن يساعدهم على القفز إلى السلطة . . أو إسقاطه هو من السلطة . . ففى الشارع الإيرانى مسلمون شيعة وسنيون وشيوعيون وفوضويون وانتهازيون . الشارع إناء يغلى ، والمدن مثل «السفارى» أى غابات مفتوحة تتعايش فيها الوحوش من كل لون . والمفروض أن تتحول الغابات إلى حدائق حيوانات أو إلى سيرك قومى . . أى يقوم الثوار باستئناس القوة وتوجيهها إلى الهدف القومى ، وتكون قدوة لشعوب أخرى عجز فيها الإسلام عن إصلاح الفساد ! .

وتوالت خسائر الخمينى بنفس السرعة التى ظهر بها . . فإيران تمزقت . . والشيعة خارج إيران يتطلعون إلى إيران وتشتد خلافاتهم مع حكوماتهم ، وإيران تشعل الأمل فى قلوب الشيعة فى كل مكان دون أن تقدر على حمايتهم . . بل إن إيران تدعو الشيعة إلى أن يثوروا على الحكومات السنية فى العراق وفى كل دول الخليج . . ثم إنها تطالب بالبحرين وهى دولة عربية . .

فكأن الثورة لم تكتف بتمزيق إيران ، إنما جددت الخلافات المذهبية بين المسلمين أيضاً . ثم دخلت فى معارك دموية مع العراق ومع العرب فى إيران . . ومع الأكراد السنيين فى إيران . .

وبدأ الاتحاد السوفيتى يضع يده على الزناد ، فعلى حدود إيران توجد الجمهوريات الإسلامية ، وكلها تعيش فى عزلة دينية وفى انطواء مذهبى ، وتنظر إلى العالم الإسلامى فى أمل . . ويتزايد عدد المسلمين فى الاتحاد السوفيتى وتشتد قوتهم ، ورغم العنف الثورى فى روسيا فإن المسلمين لا يزالون يؤمنون بالله وبالقرآن ويتمنون الخلاص . . وقد جاد الخلاص فى إيران ومن إيران . . لقد فعلها الخيمنى ! .

وبقدر ما ابتهج المسلمون بثورة الخمينى ، فإن التعاسة قد داخلتهم من جديد . . فالرجل أكد أن الإسلام قادر على الثورة وعلى أن يجدد الدعوة إلى خير الإنسانية ، وأن المسلمين غير قادرين ، ولا عيب فى الإسلام إنما العيب فى المسلمين . والخمينى أكبر وأحدث دليل على ذلك .

فهو – كإمام شيعى – سارع وأعلن أنه الإمام الأكبر ، وسارع مؤيدوه بأنه الإمام المعصوم من الخطأ ، وكل إمام عند الشيعة الإمامية الاثنا عشرية معصوم من الخطأ ، والإمام الخمينى هو شيعى إسماعيلى باطنى موسوى اثنا عشرى – أى أنه يؤمن بما

جاء فى أحاديث الرسول عليه السلام بأن الأئمة أحد عشر ، وأن الإمام الثانى عشر غائب عن العيون ولكنه ينيب عنه فى كل زمان واحدا من أئمة المسلمين . . ويبدو أنه أناب عنه الإمام الخمينى داعيا ومصلحا ، وثائرا ومعصوما من الخطأ . ولذلك كان من المستحيل أن يراجعه أو يرده أحد عن قرار اتخذه . ومن أخطر القرارات التى اتخذها الإمام الخمينى : إطلاق كل القوى من كل لون أن تتفتح وتتفسخ . .

إذا كان الثوار هم الغواصون فى أعماق الضمير الشعبى بحثا عن اللآلىء ، وإذا كان هؤلاء الثوار يحاولون أن يأتوا باللآلىء إلى السطح سالمين ، فإن الخمينى قد غاص فى أعماق المسلمين وطفا دون أن يملأ يديه بشىء . فأحس الناس بخيبة الأمل فيه . .

وأحس المسلمون فى كل مكان بالخوف منه . فالرجل قد أطلق الناس على الناس دون أن يكون هناك ضابط أو رابط . ولذلك تحركت الجماعات الإسلامية من كل مذهب . وتحركت أقلامها وحناجرها ، وراحوا ينادون بالثورة على الحكام المسلمين . .

وخسر الخمينى إيران وكل الدول الإسلامية بسرعة هائلة . . فقد سالت الدماء ، وانهدمت البيوت بلا سبب معقول ، وتعطلت الحياة فى إيران : فالطلبة والعمال فى الشوارع ، فلا دراسة ولا عمل فى حقول البترول أو المصانع . . ورغم هذه الدماء التى أريقت ، فإن الإمام الخمينى لم يغلق ملف قضيته مع الشاه وحكم الشاه وما أفسده الشاه ، وما سرقه الشاه وأسرته وأتباعه وحاشيته . . وله الحق تماماً فى أن يفعل بالشاه ما يشاء ، فكذلك فعلت كل الثورات بالملوك والأباطرة والقياصرة والنبلاء والأشراف واللصوص .

ومن السهل على الأمريكان أن يتذكروا ما قاله رئيسهم جيفرسون من أن من حق كل ثورة أن تقتل ملكا ، تماما ، كما أنه من حقها أن تشنق لصا أو تقتل حشرة ! .

ولكن موقف الثورة الإيرانية قد دخل مرحلة الأعباء الثقيلة ، فالإمام الخمينى أصبح عبئا على الثورة نفسها ، فبدلاً من أن يدفعها إلى الأمام فإنه يدفع بها إلى السقوط ، صحيح أن التحديات التى تواجه الثورات هى مقياس قواتها الذاتية ، ولكن بعض التحديات تكون فى نفس الوقت نوعاً من المستحيل .

والمستحيل الذى واجه إيران هو أن مشاكلها قد تراكمت مع المسلمين : العرب

والفرس والأفغان والسوفيت . . فلا هى جمعت المسلمين وراءها ، ولا هى أعطتهم نموذجاً عالياً للثقة بالنفس ، ولا هى أبقت على أملهم فى الخلاص ، حتى حار الناس فى الشرق والغرب فى معرفة جوهر هذا الإسلام ، فقد أدت ثورة الخمينى إلى ضرورة معرفة الإسلام والمسلمين ، ولذلك تظهر كل يوم كتب جديدة عن العملاق الذى يضم ٧٠٠ مليون نائم فى كل مكان . . ثم صحا يشعل النار فوق الآبار . . ويهدد الشرق والغرب دون مقدمات واضحة .

لقد اختار الإمام الخمينى أمريكا أقوى الدول الكبرى وأغناها وأشدها صداقة لإيران . وأمريكا قد لقيت ما تستحقه من أعقاب وعذاب بسبب موقفها من الشاه . فقد كان صديقها الذى تخلت عنه ، بل إنها سارعت إلى الاتصال به لكى يوافق على علاج الشاه فى أمريكا . . وتخلت أمريكا عن أصدقائها فى فيتنام وفى فرموزا وفى كوريا . . وبدأت إسرائيل نفسها تفزع من هذا الموقف الأمريكى ، ولذلك لا تستبعد إسرائيل أن يضيق بها الأمريكان ويتخلوا عنها . . إذا ظلت هكذا عبئاً عليها .

وأحد الأسباب القوية التى دفعت السعودية ودول الخليج إلى الابتعاد عن أمريكا هو هذا الموقف السياسى - اللا أخلاقى - من أصدقائها فى الشرقين الأوسط والأقصى . وجاءت ضربة الخمينى لأمريكا عندما ألغى صفقة السلاح وقيمتها ألوف الملايين من الدولارات . وعندما احتل أرض السفارة الأمريكية . وكان رد الفعل الأمريكى بوقف شراء البترول وتجميد الأموال الإيرانية ومنع قطع الغيار والأطعمة وطرد الطلبة .

وكسب كارتر بهذه القرارات الرأى العام الأمريكى الذى كان قد خسره بسبب الضعف الأمريكى فى كل مكان . ولم تتخذ أمريكا هذه القرارات إلا بعد أن أشركت العالم كله فى الوساطة وإلا بعد أن كسبت عطف العالم ، وإعجابه بحكمتها وضبط أعصابها ، وإلحاحها على الشعوب .

وكانت قوة أمريكا هى سبب ضعفها ، فلأن أمريكا دولة عظمى ، فهى لا تستطيع أن تغزو إيران ، دون أن يؤدى ذلك إلى مواجهة عسكرية مع السوفيت . أو إشعال النار فى آبار المنطقة . ودون أن يؤدى التدخل العسكرى إلى القضاء على كل الرهائن وقتل الكثير من الإيرانيين . . وتكون بذلك قد أجرمت فى حق الأبرياء من أبنائها وأبناء الدول الأخرى .

وفى الرأى العام الأمريكى من يطالب - حتى الآن - بضرورة التدخل

العسكرى . وأن يمضى كارتر فى إنهاء السياسة الأمريكية التقليدية بالتهديد بالقوة دون استخدامها ، إذ يكفى أمريكا أنها فعلت ذلك أكثر من عشر سنوات مما ضاعف ضعفها وعجزها وهوانها على الأصدقاء والأعداء . . فقد تراجعت أمريكا أمام الزحف السوفيتى فى كل مكان .

مع أن أمريكا قد استخدمت القوة فى مناسبات كثيرة . فمنذ ١٧٨ عاما أنزلت قواتها فى طرابلس لضرب قطاع الطرق البربر . . والرئيس إيزنهاور أنزل قوات بحرية فى لبنان سنة ١٩٥٨ . والرئيس جونسون أنزل قوات فى الدومينكان سنة ١٩٦٥ ، واسترد الرئيس فورد إحدى السفن التجارية التى استولى عليها الشيوعيون فى كمبوديا سنة ١٩٧٥ .

وكسبت أمريكا هذه المواقف .

فقد كشفت الإمام الخمينى . . وجعلت الناس يفرقون بين الإمام المسلم وبين الإسلام . . أى أن المسلمين قد انقسموا مرة أخرى ، وأدركوا أن الإسلام أعظم من المسلمين . . وأن الثورة الإسلامية لم يحن موعدها بعد . . . . وأن الإمام الخمينى قد جاء سابقا جدا على أوانه ، وأنه جاء فى غير مكانه . . وأن الثورة تريد بشرا ، وليس إماماً معصوما من أخطاء البشر – مع أن العصمة لله سبحانه وتعالى .

كما أن أمريكا قد هونت من سلاح البترول . فالبترول الإيرانى يمثل ٥ ٪ من الاستهلاك الأمريكى . وقد أفلحت أمريكا فى أن تنقص استهلاكها السنوى إلى ٦ ٪ وفى ذلك درس لإيران ولغيرها من دول البترول . وحافز قوى لعلماء أمريكا وأوروبا أن يبحثوا عن بديل للبترول بعد أن أفلح العرب المسلمون فى أن يجعلوا كل دول العالم «رهائن» ويلعبوا بها فى كل شتاء ، ويرفعوا أسعار البترول كما يشاءون !

وكذلك الأموال المودعة فى البنوك الأمريكية يستطيع الرئيس الأمريكى أن يحولها إلى كومة من الورق . وبذلك أصحبت إيران أمام الموقف المستحيل فى مواجهة العالم الغربى كله الذى ليس صديقا ، وأمام العالم الإسلامى كله الذى خاب أمله والذى خاف على نفسه من فتنة مذهبية وتحريك للأقليات من كل لون ودين ومذهب .

بل إن إيران يجب أن تجد لها حلا : كأن تتخلص من الخمينى نفسه تطبيقا لمذهب الخمينى فى استبعاد الحاكم الواحد الأحد . فهل يجىء الخلاص من الجيش أو بالجيش ، إن الشاه لم يتهم كثيرا إلا بالحرس الخاص ، فلما سقط الحرس الخاص ، لم تكن له قاعدة عسكرية أو شعبية . . فقد كانت للحرس الخاص

والمخابرات قاعدة . وهذه القاعدة هي شخص الإمبراطور . ولما غاب الإمبراطور غابت كل هذه القوى الشخصية . أما الجيش فقد أعطى سلاحه للشعب . . فلا أحد يعرف الآن : أين العسكريون وأين المدنيون ! وإذا كانت أمريكا قد تعقدت من حربها فى فيتنام ، فإنها قد تعقدت مرة أخرى من إيران . فأمريكا قد خسرت أول حرب لها فى فيتنام . ولذلك لا تريد أن تدخل حربا خارج أمريكا . وعقدتها فى إيران أنها ساندت عرشا إلى غير نهاية ، وعادت شعبا إلى غير حدود . ثم تخلت عن العرش ، ولم تكسب الشعب ، وأفزعت العروش الأخرى . .

وسوف تتغير السياسة الأمريكية تماما فى الشرق الأوسط وفى العالم كله .

فإيران هى نهاية سياسة التهديد بالقوة دون استخدامها . وفيتنام هى نهاية سياسة استخدام القوم دون التهديد بها .

والرأى العام الأمريكى يرى ضرورة «الحضور العسكرى» فى الشرق الأوسط حيث المصالح الأمريكية الحيوية . . وحيث التصلب السوفيتى وزحفه المستمر فى أفغانستان واليمن وأثيوبيا وليبيا وسوريا وأواسط أفريقيا .

وفى القاهرة الآن ذلك المفكر السياسى وليام كوانت المساعد السابق لمستشار الأمن الأمريكى ، وهو أصدق من وصف عجز السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط ، وحلل قراراتها فى عشر سنوات . . وقد وصف هذه القرارت بأنها خلاصة سوء الفهم والخوف .

وأكبر دليل على ذلك أن سفارة أمريكا فى طهران ليس من بين الموظفين فيها واحد يعرف اللغة الفارسية أو يفهم الإسلام . ولذلك كانت ثورة الخمينى مفاجأة تامة ، وبلغ الرئيس كارتر قمة الخطأ عندما ذهب يحتفل برأس السنة فى طهران وهمس فى أذن الإمبراطورة وهو يرقص معها : إن إيران جزيرة من الأمان !

ولم يعرف أنها جزيرة فوق بركان . وكيف له أن يعرف وهناك المخابرات لا يعرفون !

ولا تختلف ثورة إيران عن بقية الثورات التى تأكل أبناءها . وقد أكلت ثورة إيران أبطالها . وإن كان لا يزال من رجالها ستون ألفا من علماء الدين وأتباعهم . وأنهم جميعا مثل الخمينى : غاضبون بلا برنامج . أو متمردون بلا فكر .

والفرق بين الغضب والسخط والتمرد والثورة : أن الغضب هو ضيق بكل الأوضاع دون أن يكون هناك برنامج ، والتمرد هو ضيق بوضع محدد والاحتشاد ضده ، والثورة هى تمرد على كل الأوضاع مع برنامج للتغيير الشامل .

ولذلك بدأت إيران بثورة على كل الأوضاع وأمل وعمل على تغييرها .

ولكن عجز الثورة عن تحقيق شيء قد ضيق مجالها وضاءل حجمها وأبطأ سرعتها ، حتى أصبح سخطا على كل شيء وعجزا عن تغيير شيء . . ولذلك فلابد من ثورة على الثورة . . وفي إيران عناصر كثيرة ضعيفة ولكنها أكثر تنظيما . وهي في حاجة إلى أخطاء فادحة تقع فيها ثورة الخميني لكي تستخدمها في جمع الناس ضد الإمام . ولا أحد يستطيع أن يرى بوضوح ما الذي يجري في إيران أو ما الذي كان يجري ثم توقف في إيران !

إن النار الآن قد انتقلت إلى ملابس الإمام مرجع الإسلام آية الله روح الله الموسوي الخميني . . هذه النار من صنعه هو ، فلم يلق أحد من خارج إيران قطرة من الزيت على ثورة إيران . بل إن عجز الثورة عن تحقيق أشياء كثيرة ، سوف يجعلها تتشدد وتتشكك وتتوهم العداء في كل مكان ، وإذا صح ما يقال من أن الإمام الخميني بدأ يعاني من فقدان للذاكرة ومن غيبوبة عند قيامه من النوم ، فعمر الرجل وثورته قصير جدا . وسواء عاش الرجل أو اختفى ، فإن ثورة إيران الآن أصبحت قوة غاشمة .

ما الذي جعلها كذلك ؟

نعود إلى قصة فرانكشتين ، وهو بطل في رواية كتبتها ماري شيلي زوجة الشاعر الكبير . هذا الكائن فرانكشتين مصنوع من أحد المعامل . وكان حيوانا مطيعا . فقوته هائلة ، وينفذ كل ما يطلبونه منه . فهو قوة بلا عقل ، ولكن الغلطة الفادحة التي ارتكبت هي أن العالم الذي صنع هذا الكائن الرهيب قد وضع له قلبا إنسانيا . هنا فقط أصبح هذا الكائن حيوانا شرسا له نزوات جنونية . لماذا ؟ لأن قوته الجبارة قد أصبح لها قلب وأصبح لها عرض . . لها نزوة . . لها حرارة لا تمس . .

وعادت الأقلام تصور آية الله الخميني على أنه هذا الفرانكشتين الذي امتلأ بالسخط والغضب والمرارة . وأن القوة الهائلة التي في يده أصبح يستخدمها مثل شمشون الجبار الذي هدم المعبد على رأسه وعلى رأس أعدائه وأصدقائه أيضا !

فلم يعد الإمام الخميني معصوما من الخطأ ، إنما هو معصوم من الصواب أيضا ! .

* * *

السلام الآن
حتى لا تصبح إسرائيل .. حارة كبرى لليهود !!

فى أوسلو انزعج الصحفيون المصريون لعبارة جاءت فى خطاب رئيسة لجنة نوبل للسلام ، ولكن لسبب لا يهم مطلقا . أما الانزعاج فكان لأن السيدة بدلا من أن تقول : قيام دولة إسرائيل سنة ١٩٤٧ ، قالت : إعادة قيام دولة إسرائيل ، أى أنها كانت موجودة ، ثم أعيدت – مع أن هذا لا يهم فهى الآن موجودة أما المشاكل التاريخية «التخريفية» فقد اتخذوها حجة أو ذريعة لكى يلتفوا حول أى نبى من أنبيائهم نحو أية أرض . ولتكن «أرض المعاد» هى فلسطين !

ولو قالت رئيسة اللجنة : إن مبادرة السادات هى «إقامة» جديدة لدولة إسرائيل ، لكانت قد أصابت تماما ، فدولة إسرائيل مهددة بالانهيار من الداخل ومن الخارج ، ولا شىء يقيمها ويقعدها ويوقفها ويطيل فى عمرها إلا السلام !

ولكن السيدة لم تقل ذلك ، ولو فعلت ذلك لأسعدت أطراف النزاع . .

والآن تمر إسرائيل بنقطة تحول خطيرة على وجودها ، ولابد أن نعود إلى التاريخ وبسرعة فكل أنبياء بنى إسرائيل كانوا يصرخون فى الصحراء والقبائل اليهودية تمشى وراءهم ، وكان موسى عليه السلام يشعل النار ليلا ، ويطلق عمود الدخان نهارا لكى يجمع الضالين فى إسرائيل وراءه . . واتسعت الصحارى تحت أقدامهم . . ثم اتسعت بينهم . .

وعادوا وتفرقوا فى كل أرض . . فى كل دولة . يجمعهم الخوف من الأغلبية وهذا الخوف جعلهم يختفون فى الحارات ، ويلفون حياتهم بالسرية والظلام ، ويعكفون على كتاب واحد هو التوراة ، والتوراة تحدثهم عن أمجادهم وعن عظمتهم المقبلة أو الغابرة . وهذا الالتفاف حول الكتاب الواحد ، والأمل الواحد . . طال ألوف السنين . .

ولا يزال يظهر من حين إلى حين أنبياء يحدثونهم عن اقتراب يوم الخلاص من الأغلبية الوثنية أو المسيحية أو الإسلامية . . أو الأغلبية الأوروبية . .

ولا نهاية للكتب والقصائد والأنبياء الذين ظهروا في السياسة وفي الدين يشعلون النار في أحلام اليهود في كل الشعوب ، فلم يكن هناك شعب يهودي واحد . ولا يوجد الآن - كما أنه لا يوجد شعب مسحي واحد ، أو شعب إسلامي واحد . . إنما هناك شعوب مختلفة لها دين واحد . .

ولا شيء قد جعلهم يشعرون بضرورة أن يكونوا يهودا إلا الاضطهاد ، فاضطهاد الناس لهم جعلهم يشعرون بأنهم مختلفون . وهذا الاختلاف جعلهم أكثر خوفا ، والخوف جعلهم أكثر سلبية . وأكثر مسايرة لكل الظروف . وأكثر احتماء في الحاكم أيا كان ، ثم أكثر حرصا على أن يستظلوا بالأغنياء والأقوياء والدول الكبرى . فعلوا ذلك في عهد الإمبراطوريات الرومانية والعثمانية والألمانية والروسية . .

واهتدى أنبياؤهم السياسيون إلى أنه مادامت مشكلتهم عالمية . فالحل هو القومية . وما دامت مشكلتهم أنهم أقلية فليكونوا أغلبية . . وما دامت مشكلتهم أنهم بلا أرض فتكن لهم أرض . . ولكن كيف ؟

لم يتفق أنبياء اليهود على الأرض في أية قارة ولكن التوراة وحاخامات اليهود قد هيأتهم تماما إلى أرض فلسطين . . ووجدت لهم ألوف الحجج والأعذار ، ولم يبق أمامهم إلا أن يجدوا الزعيم الديني والسياسي . وإلا أن يجدوا المال ، وأن تحميهم دولة عظمى . . أية دولة عظمى في أي عصر من العصور ، منذ «وعد بلفور» حتى «كامب دافيد» - الذي هو وعد بلفور آخر ولكن للشعب الفلسطيني ، مع فارق واحد هو أن الشعب العربي أقوى ، وأن العالم الرأسمالي والشيوعي والعالم الثالث أشد اقتناعا بحق الشعب الفلسطيني في حياة كريمة . .

وحياة تيودور هرتسل الصحفي النمساوي نموذج للمعاناة الشخصية ، والمعاناة القومية فهو حالم إلى درجة الجنون إلى درجة أنه رأى المهدي المنتظر في نومه ورأى موسى ، ورأى الله وجميعاً قالوا له : أنت وحدك الذي سوف تصنع المعجزات !

ولكن حادثتين هزتا وجوده كله . . الحادثة الأولى - اتهام اليهود بسرقة الأموال التي خصصت لحفر ديلسبس لقناة بنما .

والحادثة الثانية أن ضابطا فرنسيا يهوديا اسمه دريفوس قد هرب وثائق سرية إلى الألمان لذلك فهو خائن !

والذى هز هرتسل هو أن الناس عادة عندما يجدون لصا واحدا يهوديا ، فإنهم يقولون اليهود لصوص . . كلهم خونة !

ولا بد من حل لإنقاذ الشعب اليهودى من كراهية الشعوب الأخرى له . . ومن اضطهاده فى كل مكان . .

ووجد الحل أن يذهب إلى البابا ويطلب إليه : الخلاص للشعب اليهودى . وأنا على استعداد لأن أجعلهم جميعا يتحولون إلى الديانة المسيحية ، وأن يتم ذلك نهارا فى كنيسة القديس استيفانو !

ثم وجد حلا ثانياً : الشيوعية . .

وحلا ثالثا : أن يكون لهم وطن .

أما لماذا يعانى اليهود من هذا العذاب ألوف السنين . . فقد أجاب عن ذلك أحد أنبيائهم واسمه بنسكنر فقال : «السبب أنهم ضعاف . وأنهم بلا أرض ولا دولة . . . ثم إن «كراهيتهم عذرية» أو أفلاطونية فكما أن هناك حبا عذريا أفلاطونياً ، هناك هذا النوع من الكراهية الذى يجعل الإنسان يتفرج على الذين يكرهونه ثم لا يمسهم بسوء .

ولم يكتف أنبياء إسرائيل من الساسة بأن يكون لليهود أرض ، إنما يكون لهم «كل الأراضى» ففيلاديمر جابوتنيسكى كان قائدا «للكتيبة ٣٨» من الجيش البريطانى فى الحرب العالمية الأولى عندما دخل الجيش البريطانى أرض فلسطين . ولما عبر نهر الأردن قال يومها : إسرائيل يجب أن تضم الأرض على جانبى نهر الأردن !!

ومن بعدها كرر مناحم بيجين ذلك ، تلميذه والذى لا ينساه فى أية لحظة ويوم تسلم جائزة نوبل للسلام وجه إليه تحية كأنه يريد أن يقتسمها معه ، أما أنبياء بنى إسرائيل هؤلاء فقد أعمتهم أحلامهم المجنونة عن حقيقة أرض فلسطين . كانوا يرونها أرضا خرابا ، وأنه لذلك أحق الناس بتعميرها .

وهرتسل له حكمة مشهورة تقول : فليذهب شعب بغير أرض ، إلى أرض بغير شعب !

أو بعبارة أخرى : فليذهب الشعب الذى له تاريخ ، لتكون له جغرافيا !

وسرقت أرض فلسطين ونهبت إلى آخر القصة الحزينة ، جاءوا سرا واستولوا على الأرض ثم جعلوا العاملين فيها من اليهود فى داخل فلسطين . وتحولت المستوطنات إلى حارة يهودية صغيرة يخفون فيها السلاح !

وفى اللحظة المتفق عليها قامت المستعمرات معا ، واتحدت وحاربت كانت الدولة التى تمتعت بحماية أمريكا وروسيا معا ، وفى لحظة واحدة !

وكان قيام الدولة اليهودية أعظم إنجازات الصهيونية العالمية . . وذهب الملحدون من اليهود إلى أن الله حقا موجود ، فقد وعد اليهود بأن يكون لهم وطن فكان !

ولكن يهودا آخرين رأوا أن قيام الدولة هو أكبر جريمة فى حق اليهود فقد جمعوا اليهود فى مكان واحدا ، وحشدوا أعداءهم حولهم .

ولكن هذا ما فعله اليهود فى كل دولة أقلية خائفة وسط أغلبية كارهة !

ولكن وجود اليهود بين العرب جعل لهم هذا العدد الكبير من الأعداء الأغنياء والذين أصبحوا بفضل فلوسهم أقوياء . . وبفضل تطورهم العلمى والاجتماعى والسياسى ، وأخيرا بفضل حرب أكتوبر ومبادرة السلام !

إن رجلا بريطانيا مثل جلوب باشا كتب فى مذكراته يقول : من الممكن أن تعيش دولة إسرائيل طويلا ، ولكن سوف يكون قلقها أطول ، ولن تجف لها دماء ، لأنها مادامت قد لجأت إلى العنف ، فلا أمن ولا أمان !

كما أن رجلا عظيما مثل المؤرخ البريطانى أرنولد توبينى قد أعلن فى محاضرة له فى مونتريال بكندا فى أغسطس سنة ١٩٦١ قال : إن العذاب الذى لقيه اليهود فى ألمانيا الهتلرية شىء رهيب . . وكذلك العذاب الذى يلقاه الفلسطينيون فى إسرائيل رهيب أيضا . ولا خلاف بين العذابين إلا فى عدد الضحايا أما النوعية فواحدة !

ولكن أشجع وأروع ما قاله توينبى كان بعد حرب سنة ١٩٦٧ وكانت إسرائيل فى قمة النصر والغرور : هذه الدولة ، بهذه الصورة ، وعلى هذا الأساس ، وبهذا الأسلوب ، وحولها هذا العدد من الأعداء ، قد ولدت لتموت من داخلها قبل أن تموت من خارجها !

ولم يفلح يهود العالم أن يتهموا أعظم المؤرخين بأنه رجل مجنون ، أو بأنه مأجور ، ولكن الرجل قد رأى نشأة الدول وازدهارها وذبولها . ورأى الإمبراطوريات تعلو وتهبط ، ورصد حركة الشعوب والقوميات ، ورآها تختفى بعضها فى بعض كالأمواج فى بحر الحضارة الإنسانية ، وبقدرته الفذة على فهم التاريخ وحركته أعلن أن إسرائيل ولدت لتموت ولكن لماذا ؟

لن نذهب بعيدا فى تاريخ الصراع الإسرائيلى العربى . إنما يكفينا الماضى القريب ، أو حتى الحاضر الذى نراه . .

إن إسرائيل الآن ليست إلا حارة كبرى من حارات اليهود القديمة ، بل إن فى داخل هذه الحارات حارات أخرى ، أما أنبياء إسرائيل الآن فهم من الطراز الحديث : رجال السياسة والصناعة والحاخامات ويهود أمريكا وهم جميعا فى شجار مستمر . وعندما كان لليهود نبى واحد هو موسى عليه السلام ، اختلفوا مع أخيه هارون . . ثم اختلفوا مع يشوع قائد جيوشه . . أما الآن فعندهم مئات الأنبياء وكل واحد يرفع علم الخلاص . الخلاص من ماذا ؟

ليست مشكلتهم الآن هى الاضطهاد ، فلا أحد يضطهدهم فى الشرق الأوسط ، فلا يهود فى الشرق خارج إسرائيل ، وإذا كانوا فعددهم قليل جدا ، ولا اضطهاد لهم فى العالم كله ، ثم إنهم قوة مالية وإعلامية هائلة ، وترسانة عسكرية أيضا ، ولا تزال إسرائيل تجلس على صدر أمريكا اليوم وغدا ، وبعد غد ربما تجلس على صدر الاتحاد السوفيتى !

أو يجلس السوفيت على صدرها وفى حضنها من أجل مساومتها على بيع ثلاثة ملايين يهودى فى ولاية بيربيجان !

فما الذى تفعله حكومة إسرائيل الآن ؟

إنها جمعت العالم كله ضدها ، وهذه خسارة فادحة ، فقد اعتادت إسرائيل ، واعتدنا نحن أيضا ، على أن يأخذ العالم وجهة النظر الإسرائيلية ، وبذلك نبدو أمام العالم كله وحوشا مصاصة للدماء ، لا نريد إلا الحرب ، فإذا دخلناها انهزمنا ، وبذلك يحق لإسرائيل أن تحارب لتنتصر ، وأن نحارب لننهزم ، ويصبح انتصارهم دائماً انتصارا لحضارة الغرب ، وهزيمتنا الدائمة نكسة لحضارة الشرق !

ويتأكد لدى العالم : أن المسافة بيننا وبين إسرائيل أوسع وأعمق من قناة السويس ، وأعلى من خط بارليف . وأن هزيمة ٦٧ كانت جديرة بنا جميعا - هم انتصروا عن جدارة . ونحن انهزمنا عن جدارة أيضا !

وفى داخل إسرائيل أضيفت اختلافات جديدة إلى جانب الخلافات والطائفية والثقافية والعنصرية ، خلافات على الأمن والأرض ! .

وبن جوريون هو ذلك النبى الصحراوى الذى قال : الأرض قبل الأمن !

أى أن تكون لإسرائيل أرض خارجها ، تحارب منها - مثل أمريكا التى لم تحارب إلا خارج حدودها .

وبذلك أصبحت إسرائيل مثل روسيا ، محاطة بالأعداء من كل مكان . .

وفى إسرائيل جماعة «السلام الآن» اتخذت شعاراً آخر هو : السلام بغير أرض ، أفضل من الأرض بغير سلام !

وتصحيح هذه العبارة المخلصة الصادقة والواقعية أيضا هو : السلام بغير أرض الغير ، خير من أرض الغير بلا سلام عليها ، أو على أرض إسرائيل نفسها ، أو فى العالم كله !

وأكبر غلطة وقعت فيها الحكومة الإسرائيلية هى التى نبه إليها الصحفى الإسرائيلى افنيرى عندما قال : إن حكومة بيجين هى المسئولة اليوم عن عودة صفات اليهودى الكريه إلى خيال المصريين . . وإلى خيال العرب . . ثم عودة العداء للسامية فى العالم كله . . وكانت هذه الفتنة نائمة ، ولكن بيجين قد أيقظها لا لتكون ضده هو ، فهو يهون ، ولكن ضد الشعب اليهودى الذى أتى به إلى الحكم فى مارس من العام الماضى ، ليقوم بتصفية إسرائيل من مضمونها القومى والأمنى !

وجماعة «السلام الآن» ليست جماعة ولكنها ظاهرة يهودية ، فهى اتحاد نوعيات مختلفة من الرافضين لأسلوب بيجين فى الوصول إلى السلام ، فهم جنود وضباط ومثقفون ومتدينون أوروبيون وشرقيون ، إنها «إسرائيل الصغرى» التى تحتج على بيجين وعلى الحكومة التى تريد الإطاحة بإسرائيل الكبرى . .

إن الناس الذين حاربوا لايريدون أن يحاربوا إلى الأبد ، والذى يقيمون فى المستعمرات وفى الخيام لا يريدون أن يموتوا فى نفس المكان ، فهناك يهود آخرون

يعيشون على شواطىء ميامى ، وقد حدث كثيرا أن ثار اليهود الشرقيون عندما وجدوا الأتوبيسات السياحية الأمريكية والأوروبية يتفرجون عليهم ، ويوزعون عليهم الحلوى كأنهم مرضى فى مستشفى ، أو كأنهم نزلاء فى سجن ، أو قرود فى حديقة حيوان ، لقد كره اليهود الشرقيون أن يكونوا «المواطن الأعجوبة» أو «اليهودى الأراجوز» . .

ثم إن الخوف قد عاود الحكومة الإسرائيلية مرة أخرى . . فإذا هى حاربت من جديد ، أو هددت بذلك ، فضحت نفسها أمام العالم ، فقد كانت تدعى دائما أنها داعية للسلام والتسامح الدينى ، وأنها تدافع عن حق الأقلية فى الحياة الكريمة . . وسوف تؤدى الحرب إلى هرب اليهود الشرقيين الذين هم ٦٠ ٪ من الجيش الإسرائيلى . .

وإذا هى صالحت العرب ، عاد اليهود العرب إلى بلادهم ، وبذلك يتم تفريغ إسرائيل من أغلبيتها الساحقة . .

وإذا هى ظلت فى حالة اللاحرب واللاسلم ، فإن الشعب اليهودى الذى استبد به الأمل فى السلام ، وفى أن يكون مواطنا شرقيا إلى الأبد ، سوف يثور على الأقلية الأوروبية التى تحكم إسرائيل . .

إن أسباب قيام الدولة معروفة ، ونفسها أسباب انحلالها : الخوف الدائم والعزلة المطلقة .

فحتى لا يعود اليهود مرة أخرى إلى سكنى الحوارى المظلمة - حيث الظلام والظلم - فعليهم أن يسالموا ليسلموا من الدمار . . وإلا حقت عليهم نبوءة عميد مؤرخى الحضارات الإنسانية أرنولد توينبى . .

أما مناحم بيجين ، فهو من ذلك الطراز القديم ، إنه لا يزال يرتل ليلا ونهاراً ما قاله أستاذه جابوتنيسكى الذى مات وهو يحلم بإسرائيل الكبرى ، فقد أوصى جابوتنيسكى قبل وفاته فى سنة ١٩٤٠ بأمريكا : أن تدفن رفاته فى فلسطين ، وأن تتولى نقلها حكومة يهودية !

وفى سنة ١٩٦٤ أصدر ليفى أشكول رئيس الوزراء قراراً بنقل رفاته هو وزوجته ، ودفنهما معها فى جبل هرتسل ، حيث دفنت جولدا مائير أخيرا . . وسوف يدفن مناحم بيجين على هذا الجبل ميتاً ، إذا حقق السلام ، وحيا إذا فرض الحرب على إسرائيل ، وعلى العرب والعالم كله !

حتى لا يجيء دجال قبل القيامة بيوم واحد !!

حدث يوم ١٥ يوليو سنة ١٧٨٩ أن سمع الملك لويس السادس عشر «دوشة» فى شوارع باريس وأن هذه الدوشة قد اقتحمت سجن الباستيل وأطلقت وسأل : ما هذا ؟ . .

فقيل له : لاشىء يا صاحب الجلالة . . إنها ثورة ! . .

وهذه هى البداية التقليدية لكل الثورات : مفاجأة الملك . . وغضب فى الشوارع . . وسقوط للسجون والمعتقلات وإطلاق سراح المظلومين . وتكون هذه هى البداية الرمزية لكل شىء بعد ذلك ، فالدولة الحديثة تلدها الثورة ، ويقوم الزعيم بحضانة المولود الجديد . فإذا أصبح الزعيم ملكا ، أقيمت حوله السجون والمعتقلات ، واحتشد الغاضبون والساخطون واقتحموا الظلم المصنوع من الأسمنت المسلح . ويكون ذلك مفاجأة له . . وهكذا . .

حدث نفس الشىء فى إيران ، لم يصدق شاه إيران أن ما حدث فى الشوارع هو بداية ثورة عليه ، إنما فسر ذلك بأنهم رجال الدين يقفون دون ضد الحياة العصرية والنظم الأمريكية الجديدة للعمل والإنتاج وزيادة الدخل ، وفسر شاه إيران ثورة رجال الدين بأنها موقف طبيعى . فهم أناس قد أداروا ظهورهم للقرن العشرين ويزحفون بالملايين إلى القرون الأولى من التاريخ الهجرى . ولم يكتشف شاه إيران إلا متأخرا جدا وبصورة مفاجئة . أنه تقدم شعبه بعشرات السنين ، ولذلك خشى أن ينظر وراءه ، فيصب بالفزع . . مثل امرأة لوط التى حذروها أن تتلفت وراءها ، ولكن حب الاستطلاع جعلها تنظر فتجمدت وسقطت تمثالا من الملح ! . .

وكذلك حدث لشاه إيران . .

ولابد من أن يكون هناك متهم أول لكل ما حدث فى إيران .

الشاه قال : أمريكا هى السبب . .

وأمريكا قالت : الشاه هو السبب . .

والإمام خمينى قال : بل هما معا ! . .

وكان شاه إيران أصدق من وجد السبب بعد ذلك ، فقال : إنها غلطتى أنا ، فقد كنت أحلم بأن أجعل بلادى قطعة من أوروبا وأمريكا . .

أما العلاج الذى اقترحه الشاه فى آخر حديث له معى فهو : الشيوعية هى التى سوف تدخل إيران ، فإذا دخلت وفرت لهذه الجماهير الغاضبة : النظام والطعام !

أما د . كيسنجر فقد وجد تفسيرا آخر لما حدث فى إيران ، وهو أن الشاه أسير مجموعة من النظريات الأمريكية ، درسها طويلا وجربها كثيرا ، حتى أصبح سجينا لها ، فالنظريات الأمريكية هى سجن الباستيل الذى دخله الشاه بمحض اختياره ، ولن يخرج منه باختياره ! . .

ولم يكن للأمريكان فهم واضح لكل ما حدث فى إيران ، فتجارب أمريكا محدودة ومضطربة ، ولا توجد صورة واحدة للإدارة الأمريكية عن إيران ، فالمخابرات لديها صورة ، والخارجية لديها صورة أخرى . والرئيس كارتر اختلطت فى رأسه هذه الصور .

وفى سنة ١٩٤٣ أرسل الرئيس الأمريكى روزفلت مبعوثا عسكريا إلى طهران هو الجنرال باتريك هيرل ، ومن المضحك حقا أن هذا المبعوث كان يخلط دائما بين إيران والعراق ! . .

وكان الرئيس روزفلت يحلم بأن يجعل إيران نموذجاً رفيعا لما تفعله السياسة الأمريكية فى الخارج إذا اتسمت بالنزاهة والصدق . . ولم يعرف روزفلت ماذا أصاب مواطنيه بعد ذلك بأقل من نصف قرن ، لقد احتجزوهم رهائن فى السفارة الأمريكية بطهران ، وكان احتجاز الأمريكان أكبر دليل على جهل أمريكا بما حدث فى إيران . .

ولم تكن أمريكا تجهل تماما . إنما بعضها يجهل وبعضها يعلم . والذى يجهل هو الذى يملك اتخاذ القرار ، والذى يعلم لا يملك اتخاذ القرار - وكانت المخابرات هى التى تعلم كثيرا ، والخارجية هى التى تجهل أكثر ! . .

فالمخابرات الأمريكية هى التى أعادت الشاه إلى العرش فى سنة ١٩٥٣ ، مما أحرج أمريكا مع بريطانيا ، والرئيس كيندى هو الذى ضاعف نصيب إيران من

عائدى البترول ، رغم معارضة بريطانيا ، والرئيس كيندى هو الذى طالب الشاه بأن يُدخل مزيدا من الإصلاحات لصالح الشعب . .

والرئيس نيكسون هو الذى ساعد إيران لتكون قوة إقليمية كبرى . وتكون نموذجاً لما تحبه أمريكا لأصدقائها . . والرئيس كارتر قد وعد الشاه بالمساعدة والمساندة يوم امتلأت الشوارع بالمظاهرات . واستغل المتظاهرون هذا الوعد الأمريكى بأن كارتر هو الذى يقوم بإطلاق النار على الثوار . . . وفى نفس الوقت كان الرئيس كارتر أول من اتصل بالإمام خمينى فى باريس ! . .

والثورة الإيرانية سوف يكون لها أثر أبعد جدا مما يتصور ، بل إنها سوف تكون أشد عنفا على السياسة الخارجية الأمريكية من حرب فيتنام . . وسوف تكون لها مضاعفات أعمق على العالم الإسلامى والعالم العربى وسياسة الدفاع على الشرق الأوسط ، وقد لعبت الصحف الأمريكية دورا خطيرا – وهذا الدور الذى لعبته الصحف الأمريكية ووسائل الإعلام ، أو الذى فشلت فى أدائه ، وهو نموذج لخطورة وسائل الإعلام ولجهلها أيضا ، فقد كانت الصحف الأمريكية تصف إيران بنفس العبارات التى تصف بها باريس وفرساوى أيام الملكية الفرنسية ولذلك فعندما تحدثت عن المظاهرات فى طهران وصفتها بأنها شغب وضوضاء وعبث وصبية مضللون والأصابع السوفيتية وعمائم المتعصبين . . ولكن ما حدث بعد ذلك فى إيران كان أخطر ما عرفت أمريكا . . أعنف من مأساة فيتنام ومن فضيحة ووترجيت ، فكانت الثورة الإيرانية وخروج الشاه ومجىء رجال الدين ثم حادثة الرهائن الأمريكان وفشل أمريكا فى إنقاذهم . .

لقد وجد الأمريكان والعالم كله : أن أمريكا لا تعرف شيئا عن أصدقائها ، وأنها فى نفس الوقت من الممكن أن تتخلى عنهم بمنتهى السرعة . . وطبيعى أن يتشكك الناس فى معانى الكلمات الأمريكية : الصداقة والمعونة والمساندة . . وطبيعى أن يتطلع أهل المنطقة إلى دول أخرى أكثر حكمة مثل بريطانيا وفرنسا ، وإلى دولة أخرى تشاركهم الكراهية والعداء لأمريكا مثل الاتحاد السوفيتى . .

أما المعنى العام من ذلك فهو الفوضى الفكرية والاضطرابات السياسية والضائقة الاقتصادية وخيبة الأمل فى أمريكا وفى كل الدول الغربية . .

وخرج الشاه والأمريكان ، ودخل الإمام آية الله روح الله خمينى ، وكان قد استعد لذلك اليوم بالثورة على الشاه ، وتنظيم رجال الدين ، وجمع كل أخطاء الشاه

وتنظيم الثورة عليه ، واتبع خميني وأعوانه نفس الأسلوب الشيوعي في فتح الجراح ، فكلما جف جرح قديم أحيوا جرحا جديدا . كلما خمدت نار أشعلوا أخرى أكبر . . وهكذا ظلوا عاما كاملا يدفعون بالأطفال ليحصدهم رصاص الشاه ، وتمشى المظاهرات ، وتتحول المظاهرات إلى جنازات ، وتتولد من الجنازات مظاهرات أكبر ، وتكون المظاهرات حدادا على الضحايا ، ثم تتجدد المظاهرات بمناسبة مرور أربعين يوما على الأبرياء من الأطفال والنساء ورجال الدين . .

والجنازة هي الشكل الذي يناسب المذهب الشيعي الذي يرتدي أبناؤه السواد حدادا على الشهداء ابتداء من على بن أبي طالب وانتهاء بأبنائه وأحفاده ، وبذلك أفلح الإمام الخميني في أن يجعل الجنازة هي مظاهرة صاخبة ، والمظاهرة جنازة صامتة وبذلك - قبل كل شيء آخر - يجعل الدين إطارا وستاراً وهدفا لكل ما يتخذه من أحكام بالسجن والتخريب والإعدام ، أي أن موت الأبرياء إرادة الله . لأن إرادة خميني من إرادة الله ، أو هي إرادة الله ، ولم يكن الإيرانيون مبالغين عندما ذهبوا إلى مكة في موسم الحج ، وتعالت حناجرهم بالهتافات : الله أكبر . . خميني أكبر ، أي إن لم يكن كبيرا مثل الله ، فهو أكبر . . وطبيعي أن يكون الإمام خميني معصوما من الخطأ ، فالعصمة لله ولخميني أيضاً !

ولكن قبل أن يدخل الإمام خميني بلاده إيران كان الشاه قد عجل بدخوله فالشاه أطلق سراح ألوف السجناء السياسيين وغيرهم ، وعرف هؤلاء مكانهم على أكتاف المتظاهرين ضد الشاه . . ومع الإمام خميني . وبعد ذلك اعترف الشاه بفساد الأسرة المالكة كلها ، وبفساد مؤسسة بهلوى التي استولت على كل مقدرات إيران ، وأمر بإحصاء ثروات إخوته وأخواته وأسرته والحاشية ، ثم إنه منع تهريب الأموال إلى الخارج - أموال الطبقة الحاكمة والحاشية وكل أعوان وأنصار الشاه . .

لقد انحنى شاه إيران للشارع الإيراني . ولأنه فعل ذلك مرة فلا نهاية لانحنائه . ولم يبق بعد الانحناء إلا كسر الرقبة والظهر . ولكن الشاه إذا كان قد هرب برأسه من الشعب ، فإنه لم يهرب بجسمه من ذلك المرض الوبيل الذي قضى عليه في دمه ، والذي جعله حائرا من مستشفى إلى مستشفى .

وإذا كان العالم كله قد انكشف وافتضح أمره بسبب موقفه من شاه إيران ، فتركوه ضائعا بين الأرض والسماء ، فإن هذه الفضيحة الدولية يقابلها النبل المصري

والشهامة العربية يوم استضافه الرئيس السادات ليعيش ويعالج ويموت ويدفن فى مصر ، مسلما فى بلد إسلامى ، مع عظيم الاحترام ، ويصدق عليه قوله تعالى ﴿ ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ ! وقوله تعالى ﴿ لمن الملك اليوم . لله الواحد القهار ﴾ ! . .

وإذا كان الشعب الإيرانى قد نجح فى ثورته على الشاه ، وإذا كان رجال الدين هم لسان هذه الثورة وقلبها ، فإن رجال الدين لم يفلحوا فى أن يكونوا رأس الثورة أيضا . فالثورة الإسلامية عقلها ، وإن كانت قد احتمت فى الدين الإسلامى ، ولأنها احتمت فى الدين وقامت من أجله ، فلابد أن يرى العالم كله : ما الذى سيفعله الإسلام فى شعب إسلامى فى القرن العشرين ! . .

فليس القرن العشرون الذى شهد الثورة الروسية والثورة الصينية وثورتى مصر فى يوليو ومايو ، مستعدا لثورة من نوع جديد . . أو إنه مستعد ولكن ذلك مثل الهبوط على القمر : حلم قديم ومستحيل ، فجاءت الثورة الإيرانية تؤكد أن المستحيل ممكن ، وكما هبط الإنسان على القمر ، هبط الإمام خمينى من قاعد إطلاق الصواريخ العقائدية فى باريس ، إلى أرض حيث كان يحكمها رجل من أهل المريخ هو شاه إيران . .

ولم يكن الشيعة فى إيران أو فى الخليج مبالغين عندما اعتقدوا أن الإمام خمينى هو الإمام الثانى عشر . . أو هو المهدى المنتظر . . وأن المهدى المنتظر قد وعد به الله عباده – تماما كالمسيح عند اليهود – وأن المهدى المنتظر سوف يجىء ولو كان ذلك قبل قيام القيامة بيوم واحد . . وفى ذلك اليوم الواحد «يملأ الدنيا عدلا بعد أن امتلأت ظلماً» . . إذن فالقيامة قد قامت فى إيران بالثورة الإسلامية ، ولا يعرف إلا الله متى «ينفخ فى الصور» ليقوم الموتى من قبورهم ، ولتعلق موازين الحساب بين السماء والأرض ، ويدخل الجنة أناس ويتزاحم على الناس أناس آخرون . . وقبل ذلك يجىء الإمام الذى ينشر العدل بين الناس . . وهذا الإمام هو الثائر الأكبر ابن مدينة «قم» المقدسة الذى طرده الشاه إلى الكويت ثم إلى تركيا وأخيرا إلى العراق . . وقبل ذلك قتل أبو الشاه أبا الإمام . . ثم قتل الشاه ابن الإمام . . وتوسط الشاه لدى حكومة فرنسا أن تستضيف الإمام . . واستضافته ليكون على مرمى عيون جواسيس الشاه . . وراح الإمام يبعث برسائله والكاسيتات المسجلة ضد الشاه . .

وجاء الإمام وخرجت نباتات وحشرات وحيوانات الأرض والجو تبكى فرحا بعودة الإيمان والإسلام إلى شعب إيران ، بعد أن تعرى وانحل فى الشوارع والكباريهات والسينمات فى عهد الشاه . .

وذهب الإمام خمينى إلى مدينة قم . . وجلس على الأرض . . ورأى الناس فى جلوسه على الأرض صورة للزهد والتقشف . . رأوا عليا بن أبى طالب أو عمر بن الخطاب أو عمر بن عبد العزيز أو المهدى الذى انتظروه وجاء . ولكن بسرعة ارتفع البساط الذى جلس عليه الإمام وراح يعلو ويعلو . . حتى أصبح على رقاب العباد . . ثم أصبح مثل بساط الريح . . ونظر الناس إلى السماء فلم يجدوا لا جسم الإمام ولا رأسه إنما رأوا حذاءه . . فهو بحذائه فوق الجميع . . وإذا هو الشاه الجديد . . لا صاحب عرش الطاووس ، ولكن صاحب العمامة السوداء . .

ولم يجد الناس إلى جوار الإمام كتاب الله وشريعة الله . . وحتى لو ادعى الإمام ذلك فإن جرائم القتل وسفك الدماء ، وإعدام الأبرياء بلا محاكمة ، أكبر تكذيب له ! ورجال الدين هم الأسرة المالكة الجديدة وهم الذين أمروا الشعب بنهب بيوت الأمراء وأصحاب الملايين . . ثم نقل كل ذلك إلى بيوتهم !

وكما تطلع الناس إلى حكم الإسلام فى ليبيا ، طالت أعناقهم ليروا حكم الشريعة الإسلامية فى إيران ، أما «تشويه» الإسلام فى ليبيا فقد حولها إلى فوضى جماهيريا ليس لها قانون ولا دستور ولا منطق ولا نظام . . والذى رآه العالم فى ليبيا قد تكرر بصورة أبشع فى إيران . . فليبيا دولة غنية جدا . ولكنها تعيش عيشة الفقراء . والذى يخرج إلى أبعد من طرابلس يجد العشش المصنوعة من الصفيح والحجارة . وإيران التى يبلغ دخلها أربعين مليارا ، أى ملياراً لكل مليون مواطن ، لا تجد طعاما ولا شرابا . . وبعد أن كانت تبيع البترول للعالم كله ، فإنها تستورده اليوم . . وكان من مظاهر سعادة الشاه أن يتلقى يوميا شيكا بمبلغ مائتى مليون دولار تجىء من تحت الأرض - أى من البترول . أما اليوم فقد اختفى الشيك ، بجفاف آبار البترول !

ولم نجد اجتهادا واحدا فى إيران لتطبيق الشريعة الإسلامية والإسلام الحنيف وكتابه القرآن قد وضع لنا مبادىء عامة عن الحكم وعن الشورى . ولكن لا توجد نظرية كاملة فى القرآن ، إنما باب الاجتهاد فى ذلك مفتوح إلى غير حدود . ولم نجد نصا واحدا أتت به ثورة خمينى يبيح خراب البيوت وتدمير مقدرات الشعب ،

وتشـريده وتعطيله وتلقـينه التـواكل والأكل عند أبواب المسـاجـد وبيـوت الأمـراء الجدد . .

ولقد فشلت ثورة خمينى ، إن لم يكن ذلك واضحا تماما ، فمن المؤكد أنها سوف تفشل . ولنفس الأسباب التى أسقطت الثورة البيضاء لشاه إيران . فالجماهير الإيرانية تفجر المشاكل المتجددة . وتطلقها على الحكومة التى أتى بها الشعب ، وآزرها الإمام خمينى ، ثم تتطاول على رجال السلطة وتطالب بإعدام رئيس الجمهورية الذى عينه خمينى ، وجريمة رئيس الجمهورية بنى صدر ، هى أنه قد نبه إلى جهالة رجال الدين ، وإلى خطورة الجهل كأسلوب فى السياسة والاقتصاد وأنه اعترض قبل ذلك على اعتقال الرهائن الأمريكان ، وأنه أول من أبدى فزعه من صورة الثورة الإسلامية فى العالم . . فهى ثورة ولكن بلا دستور ولذلك فهى «فورة» أو هى «انتفاضة» أو هى قومة بفتح القاف . . أو «هبة» بفتح الهاء . . أو هى «مغص» قومى . . ولم يكن بنى صدر حريصا فى هجومه على رجال الدين . فقد كان يحلم بأن يأخذ الإمام خمينى إلى جانبه ضد الذين يريدون أن يستولوا على سجادة الإمام خمينى . .

ولم يشأ أحد أن يطلع العالم كله على أول أمر عصاه الشبان للإمام خمينى . . فعندما احتجز الطلبة الصغار الرهائن الأمريكان ، أصدر الإمام بالإفراج عنهم . ولكن الطلبة رفضوا . وكان ذلك أول عصيان لأوامر الإمام . وكان ذلك أول عجز للإمام أمام الشارع الإيرانى ثم توالت أشكال الرفض والتمريض والكفر بالإمام .

وهذا بالضبط ما حدث على أيام شاه إيران . . فكأن الشارع الإيرانى قد لجأ أخيرا إلى نفس الأسلوب الذى أسقط به الشاه القديم ! . .

ولا يزال تشخيص شاه إيران لأعماق الشعب الإيرانى ، هو الأصح . ولكن لم يستطع الشاه أن ينتقل من التشخيص إلى العلاج ، فقد تطورت الأحداث أسرع منه ، ووجد نفسه وحيدا فى شعبه ، ومنبوذا من الدولة الصديقة أمريكا . .

فعندما جاء الشاه إلى مصر تحدث مع الرئيس السادات فى كل الأوضاع فى إيران ، والذى أدهش الرئيس السادات حقا هو قول الشاه إنه يخشى أن يرفع الإمام خمينى الغطاء من فوق القمقم الذى إحتبست فيه كل الخلافات المذهبية والدينية والعنصرية فى إيران ، ففى إيران أديان أخرى غير الإسلام والمسيحية واليهودية . هناك من يعبدون النار ، وهناك البهائيون . . ثم هناك أجناس مختلفة غير الفرس ، فهناك البالوش والأكراد السنيون والعرب .

أطلق الشعب على الشعب ، فإن لم تكن هذه ثورة أهلية ، فسوف تكون وباسم الدين الذى جاء لحماية الناس ، ولإنقاذ عامة الشعب من الأسرة المالكة ومن الاستعمار الأمريكى والغرب الكافر . .

وقد قال لى الرئيس السادات أخيرا : إننى فى مثل هذا الشهر من خمس سنوات تماما ، كنت فى إيران ، وكنت أجلس بين الشاه وأخيه الأمير على رضا فى دار الأوبرا ، وكان الشاه مفتونا بالأوركسترا الفيلهرمونى . وكان سعيدا بالمايسترو الشاه الذى درس فى الغرب ، ثم ظهرت رقصات وأغانى الفلكلور . وظهر أمامنا شابان يعزفان على الربابة . . فاقترب منى الأمير على رضا يقول : لولا أن والدى قد قام بترويض هذه القبائل لانطلق هذان الشابان وذبحا مدينة طهران . . إنهما من التركمان الذين يتصفون بالعنف والدموية والوحشية أيضا ! . .

والتقرير السرى المستفيض الذى تركه الشاه للرئيس السادات عن مقدمات الثورة والثورة فى إيران ، ويؤكد أن الشاه قد قرأ وفهم ، ولكنه لم يستطع أن يوقف طوفان السخط والغضب عليه . .

وهو نفس الطوفان الذى نراه الآن فى طهران . والذى يواجهه الإمام الحاكم بالحق الإلهى . . أى أنه يحكم الشعب ويحكم عليه بتفويض من الله . . ولذلك فهو حر فى إعدام الأبرياء وسجنهم وطردهم ، كل ذلك باسم الإسلام ! ولكن أى إسلام ؟ . .

وكانت إيران على عهد الشاه سيدة الخليج العربى : جيشا وسياسة واقتصادا ، وكانت الجاليات الإيرانية الشيعية فى دول الخليج هى الطبقة المخيفة . وبقيام الثورة الإيرانية . نشطت الأقليات الشيعية فى دول الخليج وعادت تجدد النعرة القديمة : عربى وفارسى ، شيعى وسنى ، إمامية وملكية . وأحس العراق العربى أن ذهاب الشاه اختفاء لسيدة الخليج . ولذلك أعد العراق شعبه ليكون السيد الجديد على الخليج ، وبعد ذلك السيد الجديد للأمة العربية . . ويكون الرئيس صدام حسين التكريتى هو صلاح الدين التكريتى الجديد .

وقد أدت الثورة الإيرانية إلى زعزعة الأمن . وأهم ما فى الخليج بترول الخليج نفسه . وهو على مدى الطائرات الإيرانية . . ويستطيع الإمام خمينى إذا شاء أن يشعل النار فى الآبار . . وقد أعلن ذلك كثيرا ، وتلقت هذه الإشارة جماعات متمردة متحفزة . فكانت حوادث مكة . وتشجع العرب الآخرون وتطاولوا على

السعودية ، وطالبوها بثمن الأمان - أى بتركها فى أمان دون إرهاب أحد - وتزعمت جماعات الابتزاز : سوريا والعراق ومنظمة التحرير الفلسطينية والاتحاد السوفيتى ، ولذلك كان من الطبيعى أن تتجه دول الخليج إلى العراق تطلب حمايتها من إيران . ولما هاجم العراق الحدود الإيرانية كان الرئيس صدام يريد أن يؤكد لدول الخليج أنه هو السيد وأنه قادر على إسقاط الإمام خمينى وتهدئة خواطر العرب . وطالت الحرب . ولم يسقط لا الإمام ولا صدام . ولكن من المؤكد أن هذه الحرب قد أرهقت وفضحت الطرفين ، وأضعفتهما عن سيادة الخليج وزعامته السياسية والعسكرية . .

وإذا كان نجاح الثورة يكلف الشعب غاليا ، فإن فشلها يكلفه أفدح . . وكذلك الحروب إذا نجحت والحروب إذا فشلت ، وقد تجمع لإيران الآن أكثر من فشل : فقد فشلت الثورة التى أسمت نفسها إسلامية . وإن كان الثوار قد نجحوا فى الإساءة إلى الإسلام والمسلمين . وفشلت القوات الإيرانية فى أن توقف القوات العراقية . . أو تخرجها من أرضها ، وقد تفرق الشعب الإيرانى كله : نصفه فى الشوارع والنصف الثانى على الجبهة ، ولا أحد يعمل ، ولا أحد يحمى أحدا من الفوضى والانتقام . .

وإذا كان الإمام خمينى قد نجح فى إقناع الناس بفساد حكم الشاه ، فقد أقنعهم بفساد حكمه أيضا . . وإذا كان الإمام خمينى قد استخدم أسلوبا ماركسيا فى القضاء على الشاه ، فقد أقنعنا بأن نفس الأسلوب يمهد لنهايته هو أيضا . . وليس هذا الذى حدث فى إيران والعراق والخليج إلا بداية لتغيرات عنيفة وشيكة فى خريطة الحكم فى الشرق الأوسط . .

ولسنا مصريين متعصبين إذا أشرنا إلى الاستقرار والأمان والسلام فى بلادنا . . وليس نجاح عمليات السلام تحية متواصلة لمصر ، إنما هو أيضا نموذج لما يجب أن تكون عليه الحكمة السياسية ، بينما أمتنا العربية تعانى من فوضى القرارات ، أو الفوضى بسبب انعدام القرارات المصيرية . . وإذا كان نجاحنا مؤذيا لكبرياء بعض القادة العرب . . فنحن لا ندعى أننا قد اهتدينا إلى «وصفة سحرية» وحيدة لحل مشاكل السلام مع إسرائيل ، ففى استطاعة العرب أن يجدوا حلولا أخرى بديلة - كثيرة - لو أرادوا . .

وبذلك يؤجلون يوم القيامة الفوضوية ، فلا يظهر أئمة من طراز خمينى وقذافى

وكارميل ، يبددون ثرواتهم وأمنهم وينسفون قضية السلام الشامل وقيام الدولة الفلسطينية ! .

لكى تكون للآخرين يجب أن تضع نفسك مكانهم ، وبذلك ترضى لغيرك ما ترضاه لنفسك . هذه القاعدة الأخلاقية من الممكن أن تكون سياسية أيضاً ، والغرض هو أن تكون عادلا إلى حد ما .

ولذلك كان هناك فارق كبير جدا بين أن ترى مصر وأنت فى إسرائيل ، وبين أن تراها وأنت فى أمريكا ، أى تراها بعيون الآخرين وأسماعهم وإحساسهم وآمالهم ومخاوفهم ، ولكن هذا الأسلوب ضرورى من حين إلى حين ، مرة تكون القاضى ، ومرة تكون المتهم ، ومرة تكون وكيل النيابة ، ولكن لا يمكن أن تكون واحداً من المتفرجين ، لأنه فى قضايا القومية لايوجد متفرج لا يعنيه الأمر . وكما أنه لايوجد جندى يشاهد القتال دون ينهض للدفاع ، فكذلك لاتوجد قضية قومية لايكون الواحد فيها جنديا : بطلا أو شهيدا .

وفى أوائل إبريل نشر معهد بروكنجز الأمريكى . أعظم الهيئات احتراما وتقديراً . صورة للموقف «القومى» من المشاكل العالمية الموجودة على مكتب الرئيس الأمريكى . ومدى أهميتها وخطورتها وحيويتها ، وأى هذه المشاكل أحق بالحل ، وأيها أعقد .

فكانت المشاكل حسب أهميتها هكذا : ١ - السياسة الاقتصادية . ٢ - الاقتصاد العالمى . ٣ - موارد الطاقة . ٤ - الصحة وتنظيمات البيئة . ٥ - العلاج الصحى . ٦ - التعليم والتربية . ٧ - الميزانية . ٨ - الدفاع . ٩ - الشرق الأوسط . ١٠ - التحديات السوفيتية . ١١ - علاقة أمريكا بالصين . ١٢ - علاقة أمريكا باليابان . ١٣ - حلف شمال الأطلنطى . ١٤ - العلاقات بين الشمال والجنوب . (أى علاقات الغرب بالعالم الثالث) . ١٥ - مشاكل الإدارة الأمريكية والانتخابية والحزب .

وعلى الرغم من أن الشرق الأوسط يجىء فى المرحلة التاسعة ، فإنه لأهميته الاقتصادية باعتباره مصدرا للطاقة ، ومبررا جديدا للمواجهة الأمريكية السوفيتية ، سيقفز للمقام الأول ، ولذلك فسوف يكون الخليج والعرب والمسلمون هدفا ملتهبا لروسيا وأمريكا فى الثمانينيات . وما حدث فى نهاية السبعينيات لا يزال من أهم معالم ومقدمات ما سوف يقع فى السنوات العشر القادمة .

ومن أهم أحداث السبعينات سقوط النظام الإمبراطورى فى إيران ، وقيام جمهورية إسلامية ، والغزو السوفيتى لأفغانستان ، وقد أدى السلام بين مصر وإسرائيل إلى زعزعة النظام القائم فى المنطقة ، وفى السعودية أيضا .

ومن أهم أحداث السبعينيات أيضا أن أصبحت الدول المصدرة للبترول قوة عالمية قادرة على رفع سعر البترول ، وعلى الحد من الإنتاج ، ففى ديسمبر ٧٨ كان سعر البرميل ١٣ دولاراً ، ارتفع فى نهاية ٧٩ إلى ٢٦ دولارا ، فكسبت هذه الدول العربية المختلفة ألوف الملايين ، بصورة ليس لها نظير فى التاريخ ، فلا أحد يدرى الآن كيف تقوى هذه الدول على استيعاب هذه الأموال الهائلة ، ولا على استثمارها ، فى الوقت الذى تزداد فيه هذه الدول اضطرابا وضعفا ، وتصبح أكثر حاجة إلى من يدافع عنها . فقد كانت إيران مثلا أقوى دولة فى المنطقة وأصبحت الآن أكثرها فوضى وعجزا . وكانت إيران على أيام الشاه دولة مهيبة مخيفة ، وكانت حليفا لأمريكا ، ثم اتجهت بعد ذلك إلى أن أصبحت إحدى دول عم الانحياز ، وقد أدى هذا الموقف إلى أن حرمت أمريكا من أن تكون لها محطات الإنذار المبكر على حدود إيران ، لكى تتصنت على الاتحاد السوفيتى ، وتعرف أولاً بأول قدراته العسكرية ، ومدى تطور أسلحته التى يستخدمها ، وكان من نتيجة ذلك أن تعثرت مفاوضات الحد من الأسلحة الاستراتيجية ، فقد أيقن السوفيت أن الأمريكان لا يعرفون عنهم إلا القليل جدا .

كما أن الاضطرابات الأخيرة فى إيران ، وحرص إيران على معاقبة أمريكا ودول الغرب ، وجعل إنتاجها من البترول أقل ، فبعد أن كانت تنتج ٦ ملايين برميل يوميا . . أصبحت اليوم تنتج نصف هذا القدر . مما أدى إلى انخفاض إنتاج البترول فى العالم ، وارتفاع سعره تبعا لذلك . ومن الصعب أن تعود إيران إلى إنتاجها السابق .

وفى غياب إيران ظهر العراق كدولة تخيف دول الخليج ، وتتعهد بحمايتها من التوسع الإيرانى ، وقد طلب العرق من إيران أخيرا أن تنسحب من الجزر الثلاث التى استولت عليها فى أيام الشاه ، ولكن لا خوف من العراق ، وذلك بسبب المشاكل الداخلية ، فهناك صراع دموى وصراع عنصرى ، كما أن الأغلبية من الشيعة لاترى أنها ممثلة فى الحكومة التى تحكم باسم الأقلية السنية .

وأكثر الدول العربية خوفا من العراق السعودية والأردن ؛ ولذلك استطاع العراق أن يتسلط على الدولة الرافضة لاتفاقية السلام مع إسرائيل .

وكان فى استطاعة أمريكا أن يكون لها دور أكثر حيوية ، لولا أن هزيمتها فى فيتنام قد أصابت الشعب الأمريكى بخيبة أمل عظيمة ، وجعلته يحلم بالانسحاب والانكماش ، ولذلك ظهرت نظرية نيكسون التى تعمل على تدعيم القوى الإقليمية لتصبح قادرة على حماية نفسها دون أن يؤدى ذلك إلى التدخل الأمريكى ، ولذلك رأينا شاه إيران يبعث بقواته فى سنة ٧٥ لحماية سلطنة عُمان من المتمردين فى ظفار ، ثم فشلت نظرية نيكسون هذه عند أول امتحان عنيف لها ، فإيران التى لا تستطيع أن تحمى الخليج ، تجعلنا نتساءل : من يا ترى الذى يستطيع ؟ .

ولقد أدت الظروف العنيفة والتغيرات الدموية فى الشرق الأوسط ، إلى أن اتجه المزاج الأمريكى لاستخدام القوة ؛ فقد جربت أمريكا التهديد بالقوة دون استخدامها فى الخمسينيات والسينيات والسبعينيات ، ولابد أنها فى الثمانينيات ستغير الموقف والأسلوب ، مادامت العواصف والبراكين قد غيرت اتجاهها ومواقعها وضحاياها - وأمريكا فى مقدمة هؤلاء الضحايا .

وسوف تكون إيران هى مفتاح الموقف فى الشرق الأوسط ، وسوف تكون المعالجة الأمريكية الواقعية لإيران . . هى نقطة التحول فى تاريخ المنطقة حتى نهاية القرن ، ولهذا نرى أن أمريكا قد تحركت بأساطيلها إلى منطقة المحيط الهندى وبحر العرب والخليج .

وإذا كان السوفيت يشجعون موقف الخمينى من الأمريكان . . فإنهم لا يشجعون تطرفه الدينى ، خوفا على المسلمين داخل الاتحاد السوفيتى ، وفى نفس الوقت لايستطيعون أن يتدخلوا فى مثل هذا الصراع العنيف ، أو فى حوار ساخن مع رجال الدين فى إيران ، إنما السوفيت يراقبون الموقف ، ويجربون لعبتهم التى نجحت دائما ، وهى : الانتظار مع تشجيع العناصر الانفصالية ، تمهيدا لانقلاب شيوعى .

وإذا كان ما حدث فى إيران يعتبر تحولا ، فإن اتفاقية السلام المصرية الإسرائيلية لا تقل عنه خطورة ، بل إنها إن لم تكن من أهم حوادث السبعينيات فإنها من أهم حوادث القرن العشرين .

فقد كانت مصر على عهد جمال عبد الناصر قاعدة للقومية العربية والعداء الصهيونى ، وقد أدت هذه النيران فى المنطقة إلى تدخل السوفيت فى مصر ، اعتمادا على الأسلحة الكثيرة التى باعوها لمصر وللمنطقة العربية .

والسلام مع إسرائيل قد أدى إلى كثير من الاستقرار فى المنطقة ، وإلقاء الماء البارد على الصراع الدموى ، وفتح الباب أمام تطبيع العلاقات الدبلوماسية بين مصر وإسرائيل ، تمهيدا لتحقيق شىء من ذلك فى العالم العربى ، وكذلك تحسين الأحوال الاقتصادية والاجتماعية فى مصر . .

ولم يلق السلام المصرى الإسرائيلى قبولا من الدول العربية وبعض الدول الأوروبية ، فقد تصوروا أن استبعاد مصر كبرى الدول العربية وأقواها . . سوف يجعل إسرائيل تتلكأ فى حل مشاكلها مع سوريا وجنوب لبنان وقيام الدولة الفلسطينية . .

والسعودية بصفة خاصة تخاف من ابتعاد مصر ، وأن هذا الابتعاد سوف يدفع العناصر الفلسطينية المتطرفة إلى إثارة القلاقل ، كما أدت ثورة الخمينى إلى تحريك العناصر الدينية المتعصبة فى السعودية للثورة على نظام الحكم .

وعلى الرغم من أن تطبيع العلاقات مع إسرائيل لا يمشى بالسرعة المطلوبة ، أى التى تطلبها إسرائيل ، فإن السلام لا يزال قائما ، ولا تزال الفرصة أكبر لأن يكون السلام أعمق وأطول عمرا .

وقد استطاع الرئيس السادات ، وهو مهندس السياسة الخارجية ، أن يبعد مصر عن الفلك السوفيتى ، وأن يقترب بها من الولايات المتحدة ومن الغرب ، باعتبار الولايات المتحدة الدولة القادرة على الحل ، وقد أفلح فى أن يجعلها شريكا كاملا فى تحقيق السلام فى الشرق الأوسط ، وكانت فلسفة الرئيس السادات تقوم على حقيقة بسيطة جدا : وهى أن أمريكا قد تعهدت منذ قيام إسرائيل بأن تحمى هذه الدولة ، أى تحقق لها الأمن العسكرى والسياسى والغذائى ، إذا كانت هذه هى السياسة الأمريكية المعلنة . . فكيف لاتكون أمريكا طرفا فى كل ما يتعلق بإسرائيل ؟

وقد تلقت مصر مساعدات اقتصادية وعسكرية من أمريكا لحماية نفسها ، ولتكون قادرة على حماية الدول العربية إذا طلبت ذلك ، كما أعلن الرئيس السادات أكثر من مرة ، عندما تحدث عن حماية السعودية والقرن الأفريقى والسودان والمغرب وسلطنة عمان وإمارات الخليج ، فقد أرسلت مصر كميات من الذخيرة إلى الصومال وسلطنة عمان والمغرب . وحصلت مصر على مساعدات اقتصادية أمريكية قدرها ألف مليون دولار ، وقروض لشراء أسلحة وذخيرة قيمتها ألفان وخمسمائة مليون دولار ، وفى سبتمبر ٧٩ استخدمت مصر طائرات ف ٤ فى استعراضات ذكرى انتصارات أكتوبر ، وسوف تحصل مصر على ثمانى طائرات ف ١٦ .

وقد كانت لمصر تجربة أليمة فى اليمن سنة ٦٠ ، عندما أرسلت ٥٠ ألفا من قواتها للدفاع عن نظام حليف لها ، ولكن مصر الآن تستطيع أن تبعث بالخبراء والذخيرة والعتاد إلى الدول الشقيقة والصديقة .

وقد نجحت مصر تماما فى مساندتها للنظام القائم فى السودان ، وسحقت المتمردين والشيوعيين الذين كادوا يستولون على الحكم .

ويرى المحللون الأمريكان أن السعودية لها وضع خاص عند المصريين ، فهم يرونها حامية المقدسات الإسلامية ، ولكن السعودية دفعها الخوف إلى اتخاذ موقف معاد لمصر ، وعلى الرغم من أن أناسا يذهبون ويروحون بين الرياض والقاهرة . . فإن الرئيس السادات يرفض أى حوار ، ويرى أن الذى تحققه مصر للعرب ليس إلا تحديا عالميا ، فإما أن يثبت أنه هو على خطأ ، وإما أن السعوديين على خطأ ، ويرى الرئيس السادات أنه إذا كان لابد من تقارب فعلى شروطه هو ، لأن أحدا لا يجرؤ أن يقول إنه حقق للسلام وللعروبة أكثر وأفضل مما فعله هو ، كما أن أحدا من الرافضين لم يقدم بديلا عن مبادرات السلام المصرية . .

ويرى المحللون أيضا أن العرب لهم منطق آخر لايعرفه الغرب ، وأن الخلافات مهما اشتدت واحتدت . . فإنها لا تطول ، ثم إن البلاد العربية لاتزال فى حاجة إلى الخبرة المصرية ، ففى السعودية وليبيا وغيرهما أكثر من مليون عامل مصرى ، يبعثون إلى مصر سنويا ما يساوى ألفى مليون دولار ، وبعض هذه الخبرات المصرية التى تعمل فى الخارج تحتاج إليها مصر نفسها فى مشاريع التنمية الطويلة الأجل - وخاصة أعمال البناء .

وفى نفس الوقت تتعثر مباحثات الحكم الذاتى بين مصر وإسرائيل ، كما أن إسرائيل تخلق مشاكل جديدة ، وذلك ببناء المستوطنات على أرض الغير ، أى الضفة الغربية ، فعلى الضفة أقامت ٦٣ مستوطنة ، يسكنها ١٤ ألف يهودى ، كما أنها تبنى فى القدس الشرقية ، وإسرائيل تريد أن تبنى واقعاً جديدا أو مستقبلا صعبا ، وبذلك تعطى لنفسها مبررا للبقاء فيما بعد . وهذه المستوطنات التى تقيمها حكومة بيجين . . تخفى وراءها ضعفها ، فكأن بيجين يستجدى بهذه المستوطنات عطف الجماهير عليه ، ولكنه فى نفس الوقت يكسب غضب مصر وأمريكا أيضا ، فقد أدانت أمريكا بناء المستوطنات ، كما أن إسرائيل قد أحرجت أمريكا عندما أعطت الرائد سعد حداد عميلها المعروف ، أسلحة أمريكية يعتدى بها على الشعب اللبنانى الآمن .

ولكن العلاقات الأمريكية الإسرائيلية قوية بضمان كل رؤساء أمريكا فى الثلاثين عاما الماضية ، بل إن أمريكا تعهدت لإسرائيل بإمدادها بالبترول ١٥ عاما ، إذا حدث خلاف بينها وبين مصر التى استردت آبارها ، كما تعهدت أمريكا ببناء مطارين جديدين لإسرائيل بدلا من المطارين القائمين على أرض سيناء المحتلة ، ولكن المشاكل الكثيرة والكبيرة فى إسرائيل ، والخلافات الحزبية العنيفة ، هى التى تجعل حكومة بيجين تقف فى منتصف الطريق ، خوفا من الرجوع إلى الوراء أو المضى إلى الأمام .

وقد وصف الرئيس السادات هذا الموقف الذى يتخذه بيجين ، فى حديث له نشرته صحيفة هاعولام ، يوم الأربعاء الماضى ، فقال : إن بيجين إذا وقف فى منتصف الطريق فإن الشعب الإسرائيلى لن يطاوعه فى ذلك .

ولذلك فمن الممكن أن تجىء حكومة حزب العمل ، وتكون لها أغلبية برلمانية ، ويكون ذلك نوعا من الانقلاب السياسى فى إسرائيل لأول مرة . وسوف تكون مهمة الحكومة الجديدة أسهل ، لأن الجانب الصعب من العمل السياسى من أجل السلام قد حققته حكومة بيجين ، أما الباقى فسوف يكون أيسر ، وإن كانت حكومة حزب هذه هى التى سوف يكون لها شرف نشر السلام بين إسرائيل والفلسطينيين والأردن ، فحكومة العمل ترى أن يكون هناك اتحاد فيدرالى بين الضفة الغربية والأردن .

وفى الأسبوع الماضى وقف أحد أعضاء الكنيست يطلب إلى بيجين أن يستقيل ، قائلا له : لو كنت فى مكانك لانتهزت فرصة تعيين أول سفير لإسرائيل فى مصر . . وقدمت استقالتى ، لأن هذه هى أقصى نقطة يمكننى الوصول إليها . .

وليس سرا أن نقول إنه لا يوجد شعب عربى واحد يضع المشكلة الفلسطينية فى رأس مشاكله .

ولذلك فبعد هزيمة ٦٧ أدرك الفلسطينيون أنه من الضرورى أن يعتمدوا على أنفسهم ، بعد أن انكسرت القومية العربية والدول العربية ، فكان للفلسطينيين دور إيجابى فى تناول مشكلتهم ، أو فى تعقيد مشكلتهم على الأصح . وذلك لأن الفلسطينيين قد اتخذوا الموقف السياسى للدولة التى تستضيفهم ، ولما كانت الدول العربية مختلفة وممزقة . . اختلف الفلسطينيون ، وتمزقوا أيضا ، ولكنهم فى السنوات

الأخيرة اكتسبوا عطفا عالميا ، وفى استطاعتهم إذا استغلوا هذا التأييد العالمى ، أن يتقدموا خطوة إلى الأمام . .

ولا تستطيع الولايات المتحدة ولا روسيا ولا الدول الغربية ، أن تتجاهل القضية الفلسطينية ، لاعتبارات سياسية واقتصادية - فأمريكا حريصة على الدول العربية ، ولذلك يجب أن تساند قضاياها رغم صعوبة المواجهة مع يهود أمريكا وإسرائيل والتحديات السوفيتية ، وخصوصا بعد أن أفلحت روسيا فى أن يكون لها حلفاء فى المنطقة ، وأن تبيع سلاحها لكثير من هذه الدول العربية ، وأن تكون لها قواعد بحرية فى عدن وفى ليبيا وفى أثيوبيا ، وأخيرا فى أفغانستان .

صحيح أن بيع السلاح لا يعنى أن يكون للسوفيت نفوذ مطلق ، فقد كان للسوفيت فى مصر عشرون ألفا ، وطردهم الرئيس السادات ، ولكن مصر بعد أن طردت السوفيت واجهت صعوبات شديدة فى الحصول على قطع الغيار ، كما أن الأسلحة السوفيتية موجودة الآن فى العراق ، والأسلحة السوفيتية موجودة فى ليبيا تفوق احتمال ليبيا واقتدارها العسكرى ، ولكن هذه الأسلحة موجودة فى ليبيا لاستخدامها فى أماكن أخرى .

ولابد أن تتخذ الولايات المتحدة مواقف سريعة ، فتقوى علاقاتها بحلفائها فى المنطقة ، وتمحو عار الشاه الذى كان حليفها ، ثم تخلت عنه ، وقد أدى هذا التخلى عن الشاه إلى شعور دول الخليج باليأس والقرف والإرتماء فى أحضان الشيطان : روسيا أو العراق . .

وأول ما يجب أن تعنى به أمريكا هو المملكة السعودية ، فتعلن صراحة عن حمايتها للسعودية من الداخل والخارج ، وأن يكون لها موقف واضح قوى ، وأن يكون لها حضور مؤكد فى اليمن الشمالية وسلطنة عمان ، قبل أن تستولى اليمن الجنوبية على الدولتين معا ، ففى اليمن الجنوبية الحكومة الشيوعية العربية الوحيدة التى تستخدم القمع والإرهاب والاغتيال أسلوبا للحكم . .

ومن الإجتهادات السياسية المعروضة هنا فى الصحف الأمريكية ، أنه من الواجب على حكومة كارتر أن تنشر ذراعيها ، وتحتوى الصراعات الدولية فى المنطقة ، وإن كان من الصعب عليها أن تحتوى النزاعات الداخلية الطائفية أو المذهبية أو العنصرية . .

ويرى المحللون الأمريكان أن مفتاح الشرق الأوسط فى الثمانينيات هو إيران ، ويؤكدون هذه الحقيقة ، فالضغط على إيران سوف يلقى بها فى أحضان السوفيت ، كما أن إهمال إيران سوف يجعلها تتشدد وتهدد جيرانها العرب ، وإذا اعتمدت أمريكا على الشعور العام فى داخلها وفى العالم ، فإنها سوف تضع خمسين من الرهائن فى كفة ، والمصالح القومية فى كفة أخرى ، وهذه معادلة فادحة التكاليف ، ويرى المحللون أيضاً أنه على أمريكا أن تساعد إيران رغم كل ذلك ، حتى لا تسقط ضحية للسوفيت هى وباكستان من بعدها .

ومن المهم جدا لأمريكا ولأمن المنطقة ، أن تتحسن علاقة أمريكا بإيران وبالسعودية فى وقت واحد ، فالسعودية سوف تحصل فى هذا العام على مبلغ ٨٥ ألف مليون دولار ثمناً لعائدات البترول ، ومعظم هذه الأموال سوف تذهب إلى الإنشاء والتعمير وإلى مساعدة العالم الثالث وإلى استثمارها فى أمريكا وأوروبا واليابان .

هذه هى الخطوط الشائكة الشائعة الملتهبة عن صورة الشرق الأوسط فى الصحف وأجهزة الإعلام الأمريكية ، أى كما يراها المواطن الأمريكى العادى الذى يجلس مستسلما أمام الصحف والإذاعة والتليفزيون ، وهذا المواطن هو الذى يساعد على انتخاب صاحب القرار فى المعركة الانتخابية القادمة .

هل يختار كارتر من جديد بعد أن جربه فى مشاكل كثيرة معقدة فى الداخل والخارج ؟! . . هل هدوء كارتر وبرود أعصابه دليل على ضعف الرجل ، أو على صعوبة الموقف فى الشرق الأوسط ، أو على أن المواطن الأمريكى دافع الضرائب يضع مشاكل الشرق الأوسط فى موقع متأخر تماما من قائمة الأزمات الدولية . . إن الصورة شديدة التعقيد ، كانت كذلك وسوف تبقى ، ولكن لاشىء يبعث على اليأس ، فلو دخل اليأس عند النظر إلى هذه القضايا ما تقدمت خطوات السلام عاما بعد عام .

ورغم أن القليل جدا من الذى دار بين الرئيسين كارتر والسادات ، لم يظهر إلى النور ، فإن التصور المصرى لحل كل المشكلة قد اتضح أمام الرئيس الأمريكى ومساعديه .

ومن التصور الإسرائيلى عن زيارة بيجين فى الأسبوع القادم ، سوف تكون

الصورة الأخرى للمشكلة الفلسطينية ، وعلى الشريك الكامل فى هذه القضية أن يستعين بالطرفين معا - كما حدث عند اتفاقية كامب دافيد - لتيسير هذه العقد ، لتدخل الدول العربية بأموالها وبترولها ، ويدخل ٨٠٠ مليون مسلم طرفاً فى الحل الذى يجب أن يرتضيه الجميع بعض الوقت . . أملاً فى مزيد من التقدم عاما بعد عام .

فقد أضعنا نحن العرب عشرات السنين ، نختلف على لاشىء ، ونتفق على لاشىء ، بينما اكتسبت إسرائيل حقوقا على أرض لا تملكها وسلطانا على شعب ضحية ، أو أصبح ضحية .

وأيا كان الاختيار الذى تقرره الإدارة الأمريكية فإنها فى حاجة إلى «رد اعتبار» فى مواجهة الزحف الشيوعى الذى يهدد بترول العرب والعرب والمسلمين والسلام الشامل فى الشرق الأوسط . . ولذلك فمهما كان ترتيب المشاكل عند المواطن الأمريكى فإنها سوف تلتقى جميعاً عند الشرق الأوسط وعلى أرضه ودفاعاً عنه - أى عن المصالح الأمريكية والغربية معا . .

الذباب يجىء من الجانب الآخر دائماً !!

لا يعرف العنف من يعرف الدين ، فالدين رحمة ولأنه من القلب فهو : الحب والصداقة والأخوة والأبوة .

فأنت حريص على دينك وأنا أيضا ، ونحن المسلمين والأقباط معا نضحى بأرواحنا من أجله . ولذلك كانت كل الحروب دينية ، أو لها شكل الدين ومذاقه ، حلاوته ومرارته ، فالأديان قد أراقت أكثر الدماء فى التاريخ . . لأن شعوباً عديدة لم تعرف التسامح الذى هو جوهر المصريين ومن هناك كانت خطورة الفتن الطائفية . .

ولا يوجد خلاف سياسى أو مذهبى أو عنصرى أو طبقى لا يتردد معه اسم الله وتكون الحرب تحت راية الكتاب المقدس طريقا إلى الأمل ، وإلى انتصار العدل على الظلم ، والتخمة على الجوع ، والكرامة على الهوان .

وكل الشعوب التى تتعايش فيها الأديان والعناصر والطبقات قد عرفت الحديد والنار والدم ، وكل الأديان تحترق بعود كبريت واحد هو : التعصب !

وتعصب دين يخلق تعصب دين آخر ، فأنت تقول : دينى . . وأن أقول : دينى . وأنت تقول سمائى . . وأنا أقول : أرضى . .

وعندما يحاول أحد أن يسوى ما بيننا ، فإنه يطلب إلينا أن نوقع على شعار واحد . ويكون الشعار هو : الدين لله والوطن للجميع ، أى أننا نعبد إلها واحدا ، فلا خوف بيننا . وحتى إذا كان خلاف ، فنحن لا ننزل بخلافاتنا من السماء إلى الأرض .

وإذا حاول أحد أن ينهى الخلاف بيننا ، مرة أخرى ، فإنه يطلب إلينا أن نهتف معا : بل السماء للجميع والأرض لله . والمعنى واحد . . هو أن السماء مقدسة ، والأرض كذلك . .

والشعوب الصغيرة قد تعذبت بخلافاتها مرتين : مرة لأنها صغيرة تحاول أن

تعيش فى غابة الدول الكبرى ، ومرة لأن خلافاتها الداخلية تهددها بالتمزق والتفتت والانكماش . . إلى أن تبتلعها الدول الكبرى . .

حتى الدول الكبرى لا تزال تحلم بالوحدة بين فئاتها المختلفة . فروسيا اسمها «الاتحاد» السوفيتى ، وأمريكا : الولايات «المتحدة» . . وبريطانيا : المملكة «المتحدة» . وألمانيا «الاتحادية» . و «اتحاد» جنوب أفريقيا . . فإن لم تكن قد حققت الوحدة بين عناصرها فإنها تتمنى ذلك . وفى أمريكا خلافات لونية ودينية . وفى روسيا جمهوريات مختلفة عنصريا ودينيا ، وفى بريطانيا تحاول ويلز واسكتلندا أن تستقلا . .

بل إن دولة صغيرة مثل مرويشيوس تعتبر من أكبر دول العالم تعقيدا عنصريا ودينيا ولغويا ، فسكانها المليون من أصول هندية وصينية وأفريقية ، وتؤمن بالهندوكية والإسلام والمسيحية ، وتتكلم الفرنسية والإنجليزية والكريولية والأردية .

وقد برزت الخلافات واشتدت واحتدت عندما نالت كثير من الدول استقلالها ، عندما خرجت الدولة الاستعمارية . وتركت وراءها «حدودا غير محددة» وشعوبا مفككة . وكان من أهم مبادىء الدول المستقلة حديثا استعادة حدودها أو تثبيتها . فكانت الحروب ، وفى أعقاب الحروب تكون الحدود «الآمنة» هى المشكلة المزمنة . وإلى جانب الحدود مشكلة أخرى مماثلة وأكبر خطورة . . وهى : الحدود الداخلية بين الأديان والطبقات والألوان والقبائل . . وكل ذلك يضاعف ويلات الشعوب الصغيرة أيضا . كأن التاريخ يعاقبها على أنها استردت حريتها . .

والأمثلة كثيرة فى جنوب شرقى آسيا وفى البحر الكاريبى وفى أفريقيا والبحر المتوسط . . وهذه الأمثلة نماذج يجب أن نحتفظ بها ، خوفا على أنفسنا . ومثلها يجب ألا يفعل أحد . ولكن بعض الدول قد أفلحت فى تحقيق وحدتها ، لأنها تداركت خلافاتها مبكرا فجاء العلاج مبكرا ، وتقدمت هذه الدول جسما واحدا وقلبا وعقلا تستدرك مافاتها اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا ، لكى تحقق لنفسها الاستقرار ، الذى هو شرط النهضة ، التى هى شرط الرخاء ، الذى هو شرط السلام . .

مثلا : الكونغو ، عدد سكانها ١٥ مليونا و ١٥٠ قبيلة مسلحة . مختلفة دينيا ولغويا وطبقيا ، وفى الكونغو توجد منطقة كاتنجا الغنية بالمعادن . وقد رفضت

قبائلها أن تقاسمها بقية الكونغو هذه الثروات الهائلة ، وشجعتها الدول الأوروبية على الانفصال والقتال ، وكان لومومبا أول حاكم للدولة التى استقلت . . ولأنه ليس من قبائل كاتنجا رفضوه بعد أسبوعين من الاستقلال . وبعثت بلجيكا بقوات لحماية مناجمها من الفضة والنحاس . وجاءت قوات الطوارئ الدولية ، ومن بينها قوات مصرية ، ولم تفلح هذه القوات التى أكلت القبائل عددا من أفرادها ، وفى تهدئة الموقف ، فقد احتاج ذلك إلى فهم للأوضاع ، ولم يكن لدى أحد وقت لكى يفهم . . وتوالى الرؤساء على الكونغو واحدا بعد واحد ، حتى أفلح رئيسها موبوتو فى أن يوحدها بالقوة ، وأن يرغمها على إلقاء السلاح من أجل سلامة الجميع . . وخلعت الكونغو اسمها واختارت لها اسم «زائير» وهو الاسم القديم لنهر الكونغو . وكان تغيير الاسم دعوة عملية إلى نسيان الماضى ، والاتجاه إلى المستقبل الملىء بألوف الأطنان من الفضة والنحاس والماس . . وفى نيجيريا : كبرى الدول الأفريقية (٥٠ مليونا) حصلت على استقلالها سنة ١٩٦٠ . وهى غنية بالمناجم وآبار البترول فى المناطق الشرقية من البلاد . وبعد ست سنوات من الاستقلال قررت المنطقة الشرقية الغنية (بيافرا) أن تنفصل بثرواتها عن بقية البلاد ، وكانت الحرب بين هذه المنطقة وبين الدولة الأم . وكان لهذه الحرب الدموية أثر عالمى . فقد أدت الحرب إلى قتل مئات الألوف من سكان بيافرا ، وإلى موت مئات الألوف جوعا ، وانتشرت الأوبئة فمات مئات الألوف مرضا . . واستمرت الحرب سنتين طويلتين . وأرسلت فرنسا والبرتغال قوات تساعد على الانفصال ، حماية للمصالح الدولية ، واعترفت تنزانيا وزامبيا بالدولة الجديدة ، وأيدت روسيا حكومة نيجيريا ، وخشيت بريطانيا من النفوذ السوفيتى ، فأيدت نيجيريا أيضا واستسلمت قوات بيافرا نهائيا فى سنة ١٩٧٠ . وبدأت المصارحة الشعبية والمصالحة العامة بين القبائل على ختلاف فى لغاتها وأصولها وأديانها . . وباكستان وبنجلاديش : قد اتخذت الصراعات بينهما أشكالا وأحجاما مخيفة . فإستقلال الهند ١٩٤٧ جعل باكستان دولة مستقلة . وإن لم يكن مستقبلها واضحا فقد فصلت الهند بين باكستان الشرقية وباكستان الغربية . وكلتاهما مسلمتان ، وليس بينهما ما يربطهما بوضوح . فالأرض الهندية بامتداد ألوف الأميال تفصل بين شقى باكستان . فباكستان الغربية تتكلم اللغة الأردية ، وتأكل القمح ، وباكستان الشرقية تتكلم البنجالية وتأكل الأرز .

وحاولت باكستان هنا وهناك أن تجد لها إطاراً دستوريا مقبولا يوحد بين

الشطرين ، وتوالى عليها الرؤساء واحدا بعد واحد ، وكانت عمليات التوحيد وإزالة الفوارق عنيفة ودموية . حتى أدت الوحدة بالقوة إلى انفصال بالقوة أيضا . بين باكستان غربا وبنجلاديش شرقا ، ودخلت الهند حربا إلى جانب بنجلاديش ضد باكستان . وانتصرت بنجلاديش . رغم محاولات الرئيس أيوب خان ، وكان شخصية قوية متناقضة : اتخذ له مثلا أعلى ديجول فى فرنسا وأتاتورك فى تركيا . . ولم يكن إلا صورة أخرى لاستبداد نكروما فى غانا ! وأكرهوه على الاستقالة فى سنة ١٩٦٩ . فلم يحسن الرجل تقدير الخلافات فى البلد الواحد . فقد ترك كل المشاكل من كل لون تنمو أوراقها وأزهارها السامة وأشواكها ، وعندما قرر أن يستأصل كل ذلك فقد استأصلوه وحده ، فلم تكن له قوة الزعماء أو حكمتهم ! .

أما إيرلندا : فقد حاول رئيس وزراء بريطانيا لويد جورج أن يحل مشكلتها فلم يستطع . ولذلك تركها مقسمة بين «الدولة الحرة» وهى جمهورية أيرلندا ، وإيرلندا الشمالية المتحدة مع بريطانيا . ولها نوع من الحكم الذاتى . فثلث سكان إيرلندا الشمالية من الكاثوليك ، والباقى من البروتستانت . وعندما انسحبت جمهورية أيرلندا من الكومنولث سنة ١٩٤٩ ، اتخذ الإنجليز قراراً بأن إيرلندا الشمالية لا تنفصل عن المملكة المتحدة بغير موافقة البرلمان ، وهذا البرلمان تحكمه أغلبية بروتستانتية تنادى بالوحدة مع بريطانيا ، وترفض دعوى الأقلية بالوحدة مع أيرلندا الكاثوليكية . وبدأت حوادث العنف . وقد اعتادت هذه المنطقة على العنف الدموى سنوات طويلة . .

وتسلح الجيش الأيرلندى ليقاوم الإنجليز . وتدخلت قوات إنجليزية . وبدأ الإرهاب . وذهب الكاثوليك إلى لجان حقوق الإنسان فى أوروبا وأمريكا يطالبون بالعدل الاجتماعى والمساواة فى فرص العامل والإسكان ومناصب الحكم . ولا يزالون ينسفون البيوت والسيارات ويغتالون الزعماء ، بينما ينتحر الوطنيون احتجاجا على الإنجليز . وفى نفس الوقت احتقاراً لأنفسهم : أى لعجزهم تغيير شىء بالقوة - فلا قوة لهم !

وفى نفس الوقت : حصلت جزيرة قبرص على استقلالها سنة ١٩٦٠ . وتتكون الجزيرة من اليونانيين والأتراك - ٨٠ ٪ من اليونانيين . وبدأ الصراع . وهو استمرار للمعرك بين المسلمين والروم والأرثوذكس . وصورة أخرى من صور التفتت بين دول البلقان . ولم تفلح بريطانيا ولا الدول الأخرى أن توقف القتال والإرهاب بين

الشعبين فى الدولة الواحدة ولا استطاع الأسقف مكاريوس الذى يحظى بشعبية هائلة فى الجزيرة ، باحترام عظيم خارجها .

وقد شاهدت قبرص ، وزرت الرئيس مكاريوس والرئيس التركى دنكتاش واستمعت إلى المعنى الواحد بصورتين ، وإلى كيف تكون النتائج أسبابا ، وكيف تكون الأسباب نتائج أيضا . وكيف أن الجرم الحقيقى هو على الجانب الآخر دائما !! وتحيرت تماما ، ولم أعد أجد ما يمكن أن أقول . .

وأذكر أن الرئيس التركى قد دعانى إلى الغداء . وكان المطعم خاليا إلا منا نحن الاثنين . ولاحظت أن الذباب كثير . فضحك دنكتاش قائلا : إنه قادم من الجانب اليونانى !

ولما نقلت هذه النكتة إلى الجانب اليونانى قالوا : لو لم يكن فى الجانب التركى ما يقدمونه للذباب ، ما تركنا وطار إليهم !

ولكن رجلا حكيما قال ولم يسمعه أحد : بل لو لم تكن فى الجزيرة كلها قذارة ودناءة ما عاش بيننا !

وسوف يتكاثر الذباب على الجانبين . . على كل جانبين وكل معسكرين وكل طائفتين . . وكل منهما سوف يتهم الجانب الآخر بأنه مصدر القذارة التى تكاثر عليها الذباب !

وليس مهما أن نعرف من أين يجيء الذباب ، ولكن يهمنا أكثر أن نقضى عليه . . أين يكون وكيف يكون !

والذى يرصد مسار الذباب ، هو أحد علماء الحشرات فقط ، ولكنه ليس مصلحا اجتماعيا ولا زعيما سياسيا ولا حاميا للوطن وحرية الأديان .

لأن المصلح هو الذى يبيد الذباب . .

وإذا كان التعصب يسيل الدماء ، فإن حماية الأديان من التعصب هى وحدها التى ترخص من أجلها الدماء ويحق بسببها الفداء . .

وإذا كانت صلابة مصر الاجتماعية ، واستقرارها التاريخى ، وتسامحها الدينى ، قد حمتها مما أصاب كل الدول ، فذلك فضل الله ويقظة الشعب .

وإذا أراد أحد أن يعرف ما يمكن أن تؤدى إليه الانحرافات الدينية والهوس العقائدى . . فلينظر إلى ما أصاب إيران ولبنان !

والشاعر الإيرانى سعدى يقول : سئل رجل حكيم . . ممن تعلمت الأدب ؟ . . فقال : من رجل قليل الأدب . كلما فعل شيئا امتنعت عن فعله !

والإمام آية الله روح الله خمينى وزعماء لبنان هم هذا الطراز من الناس ، بعد أن رفعتهم شعوبهم إلى فوق ، يجب أن تهوى بهم إلى تحت !

وفى مصرنا العزيزة الغالية ليس من العدل لأنفسنا أن نقول : إن المسلمين لأنهم الأغلبية القوية كانوا على خطأ دائماً ، وإن الأقباط لأنهم الأقلية الضعيفة كانوا على صواب دائما . فقد أخطأ الأقباط والمسلمون أيضا . وكان خطأ الجميع أكبر إساءة لمصر التى سماؤها للجميع وأرضها . .

وتصحيح هذا الخطأ ، مرة واحدة وإلى الأبد ، هو اعتذار عن الذى بدر من أبناء مصر ضد أبنائها ، وفى ذلك تكملة للسلام الخارجى ، الذى كان مستحيلاً ، بالسلام الداخلى ، الذى هو ممكن دائماً . .

وليس أعظم من السلام مع العدو إلا السلام مع الشقيق ، لأنه سلام الإنسان مع نفسه ، لأن الذى لا يعرف السلام لا يطلبه ، والذى لم يذقه لا يحرص عليه . . والرسول عليه السلام عندما عاد منتصرا من إحدى معاركه قال : « عدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . وسأله الناس : وما الجهاد الأكبر يا رسول الله ؟ قال : إنه جهاد النفس » !

صدق رسول الله ﷺ . ولنا فيه أسوة حسنة !

* * *

مؤتمر معناه كما نأكل نكون !!

فى الحرب العالمية الثانية اتخذ الإنجليز شعاراً أعلنه تشرشل ، هو : الدم والعرق والدموع ! .

واتخذ الأمريكان شعارا أعلنه أيزنهاور الثقة بالنفس كثيرا وبالآخرين قليلاً ! .

ثم انتصر الحلفاء وانهزم هتلر . وكم كانت ألمانيا هى أسرع الدول التى حاربت نهوضاً وانتعاشا . فقامت ألمانيا من تحت الأنقاض لتكون أقوى وأغنى الدول الأوروبية وأقدرها على مساعدة الدول الأوروبية الأخرى .

ومن المألوف فى زمن السلام أن نستخدم نفس عبارات الحرب . لأن السلام معركة أيضا . ولأنه معركة فلابد من التعبئة الشاملة ، ولابد من تحديد الأهداف . أى لابد من كل هذه الشعارات معا : من العرق والدمع والدم والاعتماد على النفس أكثر من الاعتماد على الغير حتى يتحقق النصر المؤكد .

وبعد الحرب العالمية تبارى المؤرخون فى تفسير المعجزات الاقتصادية الألمانية واليابانية . فقد استطاعت الدولتان المنهزمتان أن تسبقا كل الدول إلى بناء الرخاء وإلى إغراق الأسواق الأوروبية والأمريكية بروائع صناعات السلام . وربما ساعد هاتين الدولتين على النهضة السريعة أن حرمت عليهما الجيوش فهما دولتان بلا جيوش . أى بلا نفقات باهظة . فقد أراد الحلفاء الروس والأمريكان والإنجليز أن يقصوا أظافر وأنياب ألمانيا واليابان . وقد نجحوا فى ذلك . ولكن ألمانيا واليابان قد نبتت لهما أنياب ومخالب أخرى فى الصناعة .

مثلا : إن أمريكا هى التى اخترعت الترانزستور ، ولكن اليابان هى التى طورته وغزت به أمريكا ، وأمريكا هى التى اخترعت السيارة ، ولكن السيارات اليابانية قد

أدت إلى كساد السيارات الأمريكية . . وألمانيا هى التى اخترعت العدسات والعقول الإلكترونية والكوارتس ، ولكن اليابان هى التى اقتحمت ألمانيا وأوروبا بنفس الحائط . . إن أول عقل إلكترونى اخترعه الألمان كان يشغل حجرة طولها عشرة أمتار وعرضها ستة أمتار . أما البديل اليابانى فهو فى حجم علبة الكبريت ! . .

أذكر أننى كنت فى برلين سنة ١٩٥٤ ضمن وفد رسمى . وقد بهرتنا النهضة الألمانية – مع أنها لا تمكن مقارنتها بما بلغته ألمانيا اليوم وجاء دورى فى أن ألقى كلمة ، وقلت ما معناه أننى قد أكون متحيزا لألمانيا . لأننى تخصصت فى الأدب الألمانى وفى الشمسية التى لا تغيب بهاء الشمس . ولا أظن أننى قد نظرت إلى واقع هذه الكلمات على الألمان . ولا أظن كان لها أى وقع ، فقد اعتاد الألمان على ذلك . ولكن عندما قلت : إن الذى أراه فى ألمانيا الآن هو معجزة بكل معانى هذه الكلمة . .

هنا فقط أستطيع أن أرى الغضب والغيظ والاستنكار على الوجوه الشديدة الحياء والأدب . فقد نهض أحد رجال الأعمال الألمانى ، وقال : يؤسفنى جدا هذا الذى سمعته أخيرا من الضيف الكريم . .

وغرقت فى عرقى البارد ، وأيقنت أن لغتى قد خانتنى . وأننى أسأت التعبير ، وأنه ليس معقولا أن يكون الرجل قد أساء الفهم ، ولكن لم أعرف ما الذى يمكن أن أتداركه أو أصححه . وفاجأنى الرجل بقوله : ليست معجزة ياسيدى . . المعجزة هذه إهانة لنا . لأن المعجزة معناها أن السماء هى التى تدخلت فأقامت العمارات وأعادت المصانع وأننا وقفنا نتفرج على السماء وهى تبنى لنا الأرض . . إن المعجزة هذه إحدى كلماتكم المفضلة فى الشرق ، أما نحن فلا نعرف المعجزة . فنحن الذين بنينا وتعذبنا ، ونحن الذين أقمنا وتساقطنا من التعب ، ونحن الذين كنا مثل نوح عليه السلام نبى سفينة النجاة والعالم من حولنا يسخر من «الوحوش» الألمان الذين أشعلوا النار فى العالم . ثم عادوا يبنون مصانع الدمار من جديد .

ولابد أننى أخفيت رأسى خجلا ، ولم يرحمنى فعاد يقول : ياسيدى إن المنديل الذى كنت أمسح به أنفى كنت أمسح به عينى أيضا ، لقد عشنا سنوات لا نعرف إلا المنديل الواحد . . إننى حملت أمى على كتفى هذه أكثر من ٢٥٠ كيلو متراً . . إننى نمت مع ابنتى الوحيدة فى برميل للزبالة ٣٦ شهرا ، إننى لم أذق سائلا ساخنا ٣٦ شهرا . . إننى . . إننى . . إلخ . .

وكنت فى طوكيو سنة ١٩٥٩ أزور جزيرة ميكرموتو الذى قدم للعالم صناعة «اللؤلؤ المزروع» فكان انقلاباً فى صيد وزراعة اللؤلؤ بأشكاله وألوانه وأحجامه الجديدة . وفى حفلة العشاء جاء دورى فى أن ألقى كلمة . ولم أقل شيئا ينطوى على أى نوع من التفكير . . إنما كنت مجاملا وشديد الامتنان لأناس فى غاية الأدب والرقة ، فتحدثت عن ذكاء الرجل ميكرموتو الذى اخترع اللؤلؤ المزروع – أى اللؤلؤ الذى يستخرجونه من المحيط ثم يضعونه فى داخل المحارة كرة صغيرة من الصدف ليقوم حيوان اللؤلؤ بتغطيتها بتلك المادة اللامعة فيحصلون على لؤلؤة أكبر وأجمل وفى وقت أقل . وتساءلت : كم كسب هذا الرجل الذكى من هذه الحيلة الصغيرة التى لم يخطر على بال أحد من قبل ؟!

لكى تتصور كيف يتفاعل الغضب والإهانة والكبرياء والأدب والثورة وضرورة التصحيح السريع فى أقصر وقت . . كأن الدنيا كلها قد سمعت سؤالى فقررت احتقار الرجل اليابانى ومقاطعة الصناعات اليابانية فورا . . لكى تتصور كل ذلك يمكنك أن تتخيل أن رجلا قد نفذ فى رأسه مسمار ساخن ، ثم قفز المسمار إلى بطنه وخرج من بطنه ليدخل من عين ويخرج من الأخرى ، ثم أمطرت السماء رذاذا جليديا فى نفس الوقت . إن استطعت أن تستحضر هذه الصورة فى خيالك الآن ، فأنت بالضبط أمام هذه الورطة المفاجئة التى أوقعت فيها جميع اليابانيين الجالسين أمامى وخلفى – مع أننى لم أفعل سوى أننى تساءلت بمنتهى البراءة وحسن النية والرغبة المتواضعة فى المعرفة . أو الرغبة غير المباشرة فى تعظيم الشعب اليابانى . .

أما الرجل فقد كان بكلمات يابانية جاءت مثل طلقات المدافع عديمة التردد . قال : لم يفكر ميكوموتو فى كمية المال الذى سيعود عليه وعلى زوجته وابنه الوحيد . . ولكن كانت عنده مشكلة بسيطة ولكنها عاجلة ، وهى أنه يريد أن يساعد حيوانات اللؤلؤ على أن تنتج حبة اللؤلؤ فى وقت أسرع ، وبذلك يتقدم على صيادى اللؤلؤ فى اليابان وفى سيلان وفى دول الخليج . . إنه كان فى حالة صراع مع الزمن . . وقد استطاع أن يسبقهم جميعا بعدد من الأيام يتراوح من ٢٤٦ إلى ٢٥٢ يوما . . وهذا كل ما حدث ! . .

ثم جلس الرجل ، وتراجع كل اليابانيين فى مقاعدهم .

وأحنوا رءوسهم وهم جالسون ، كأنهم فرقة موسيقية لها مايسترو واحد : أخرجوا المناديل وجففوا عرقهم . ثم نهضوا ينحنون كأنهم يعتذرون عن الذى قاله الرجل .

وفى نفس الوقت يؤكدون احترامهم للضيوف . . وكأنها مباراة رياضية انتصروا فيها بالنقط وبالضربة القاضية . ولكن احتفظوا بالروح الرياضية وانحنوا للمنهزم الذى هو أنا وغيرى من المصريين ! وقد تشابه الموقف الألمانى واليابانى فى أنهم لا يوافقون على تفسيرنا لعظمة الدولتين والمنهزمين . ولكن فى نفس الوقت اتفقنا على هذا الذى حدث كان بسبب العمل والكثير من العمل ، وأنه بغير ذلك فلا حرب ، ولاسلام . وكما يكون النصر فى الحرب ، يكون الإنتاج والإبداع والرخاء والرفاهية فى زمن السلام .

ونحن عندما ننظر إلى حالنا بعد الحرب - أى بعد حربى ٦٧ و ٧٣ - فإننا لا نخترع المشاكل ولا نبتدع الحلول . فمشاكل ما بعد الحرب معروفة فى العالم كله . وحلول هذه المشاكل معروفة أيضا . فنحن إذا سرنا ففى طريق معروف مدروس ، ثم إننا لسنا من طينة وعجينة أخرى . فالإنسان هو الإنسان . احتياجاته واحدة ، وقدراته واحدة . وآماله فى حياته معلومة . ولكن الخلاف بيننا جميعا هو فى الإنسان نفسه . فى مقدرته على أن يرى بوضوح ، وأن يعمل بإخلاص ليحقق مايريد . ولا معجزة من فوق ، ولا معجزة من تحت . فقط أن يعمل على هدى خطة علمية . وبإرادة المحاربين فى معركة الحياة والموت . فكما للموت أسلحة فللحياة أدوات ، وكل ذلك قد جربه غيرنا وتقدم علينا .

إنها قصة الأديب الروسى جو جول . سألوه عن الفرق بين الروس وغيرهم من مخلوقات الله . قال : إن السماء قد خلقت بعض الوجوه بإهمال شديد . . فقد جوفت الوجه ووضعت عينين ، وشدت الوجه على شكل أنف وشقت الوجه بالسكين على شكل فم . . ثم سحبت الرأس فوق الجسد ووضعت عنقا . ومن الملاحظ أن بعض المخلوقات قد صنعتها السماء بشىء من العناية ، وبعضها بشىء من السرعة . . ولكن الفرق بين الناس ليس فى جمال الوجه ولا فى دمامته . ولكن فى طبيعة المادة التى صنعت منها السماء كل ذلك ، هناك مادة هشة ، وهناك مادة صلبة ، هناك مادة تنهار عند اللمس ، وهناك مادة تقاوم الرصاص ، ونحن من مادة تقاوم الرصاص ! . .

أى أن صلابة المخلوقات هى وحدها القادرة على أن تحقق النصر فى الحرب ، والرخاء فى السلام ، وهذه الصلابة هى «كيمياء» العمل والإرادة والعدل . .

وانشغالنا الآن باحتياجات المجتمع المصرى دليل على أننا قد قررنا أننا الآن بعد

الحرب ، فقد انتهت الحروب مع إسرائيل . اتفقنا على ذلك ، وسوف يجيء يوم ٢٥ أبريل نهاية وتتويجا لجهود دموية فى الحروب المتتابعة ، فقد أرهقتنا الحروب والأزمات وعذبتنا الخلافات واستنفدت طاقاتنا حالات اليأس ، وسوف نتساقط من الإعياء عند هذا اليوم ، كما يتساقط أبطال السباحة والجرى عند نهاية الشوط . . أو كما تتساقط الطيور المهاجرة عند أول شاطىء . . نحن نعرف ذلك مقدما ، وسوف نختلف مع إسرائيل ، كما تختلف كل دولتين متجاورتين على شبر من الأرض وكيس من الرمل ، وعلى لص سرق سيارة وعلى مهرب للحشيش ومهرب للماس . . كل ذلك سوف يحدث هنا وهناك . . وسوف تضيع أموال السياح فى البلدين ، وسوف ينفعل الصحفيون ويهاجمون كل ذلك وغيره سوف يحدث . وهذا طبيعى بين كل دول العالم ، وإسرائيل واحدة من هذه الدول . وسوف تقوم مصر بدور الوساطة بين إسرائيل والعرب ، وبين العرب وإسرائيل وسوف تكون رسالتنا أفضل وأصدق وأعمق . . أما الذى سوف يظل معركتنا اليوم وغدا وبعد غد فهو ماذا نقدمه من طعام ومسكن وعلاج وأمل لمليون مواطن جديد كل عشرة شهور . .

إن المجتمع المصرى منفتح : فأبواب الرزق مفتوحة للجميع ، ولكن ليس الجميع قادرين على الدخول أو الخروج منها ، فهناك ملايين لايبلغون هذه الأبواب . وبسبب هذا الانفتاح اتسعت المسافات بين الناس . وهناك نوعان من الناس : أناس يجدون ما هو ضرورى ، وأناس تجاوزوا الضرورى وراحوا ينوعون مصادر الكماليات . أناس يجدون الرغيف بصعوبة ، وأناس لم يعد الرغيف مشكلتهم ، إنما مشكلتهم : الشقة الأكبر والسيارة الأحدث والنزهة الأطول . . ونحن مشغولون فى مصر أولا بتحديد ماهو ضرورى للناس . وكيف نجعل الضرورى المستحيل ممكنا . وكيف نجعل الضرورى رخيصا فما هو الضرورى ؟ .

يقال : إنه الرغيف والملح . .

ويقال : إنه الرغيف والزبدة . .

ويقال : إنه الرغيف والمرح . .

إذن فهو الرغيف دائما .

وإذا لم يتوافر الرغيف - أى الضرورى - فكل شيء لامعنى له ، فالمعدة الخالية ليست لها آذان ، وأنت لا تحترم نفسك ولا تكون مخلصا إذا طلبت من الجائع أن يكون

إنسانا ، وأن يقدس الحرية وأن يتغنى بالعدل . وقديما قوطع الخطيب القديم شيشرون فى مجلس الشيوخ فقال له أحد الأعضاء : أطعمونا أولاً وأسمعونا شعرا بعد ذلك !

وكان من عادة السيد المسيح عليه السلام قبل أن يحدث الناس ، أن يجلس إليهم ثم يتناول طعاما ، وبعد ذلك يحدثهم عن الخير والحب والسلام . . فلا شىء قبل أن يأكل الناس . وكل شىء بعد أن يأكلوا . .

وكارل ماركس هو الذى قال : كما تأكل تكون . . إن كنت تأكل الرغيف فأنت مظلوم ، أما إذا كنت تأكل كعكا ، فإن لم تكن ظالما فأنت لص . .

ولو أحصينا ما قيل فى وصف ما حدث فى مصر ، وفى تشخيص لمتاعبها ، وما سجلناه من حلول لكل ذلك ، لوجدنا مئات الألوف من الأبحاث ، وكلها جادة ، وكلها مخلصة ، ولأنها كذلك فمن الصعب أن نختار من بينها . ومن الصعب أن تعمل بها جميعا ، فما أكثر اختلاف العلماء فى التشخيص والعلاج . .

ولأنه لاجديد فى قضايا التنمية الاقتصادية والعدل الاجتماعى والنهضة الصناعية ، فلابد من أن نعود إلى تجارب الآخرين . ومن بين هذه التجارب تجربتان . واحدة جربها نابليون ، وواحدة جربتها اليابان . . أما تجربة نابليون فهى أنه استعان بحكومة من العلماء . فجعل وزير الصحة طبيبا ووزير المعارف أديبا ووزير المواصلات مهندسا ووزير الداخلية ضابطا ووزير الحربية مقاتلا . . إلخ . . وقد جربنا ذلك فى مصر ، وفعلت كذلك دول كثيرة ، ومن أهم مزايا هذه الحكومة أنها اختارت الرجل المناسب . . ولكن هذه الحكومات لم تنجح . فقد قام كل واحد بتعديل وزارته وتغيير برامجها وخططها تماما . وخرج كل وزير ، بحسن نية ، بموافقة ضمنية من الدولة ، على الخطة المرسومة للحكومة كلها ، فتفرق الوزراء . وكانوا مثل خيول تجر عربة واحدة فى كل الاتجاهات . وارتبكت العربة وأخذت تهتز ولكنها لاتتقدم . أما السبب فهو أن الخيول تشدها إلى كل وجهة . .

وعبارة نابليون الشهيرة تعليقا على ذلك هى : أننى أفضل أن أركب حصانى وأسابق الريح !

أما «الحكومة العلمية» فهى التى جربتها اليابان ، وكذلك الدول الاشتراكية ، وهى أن تكون للدولة خطة مدروسة وضعت نهائياً ، وعلى الوزراء تنفيذها أيا كان تخصص هؤلاء الوزراء . ويذهب الوزراء وتبقى الخطة هى الطريق والهدف ، وإذا كان

هناك اختلاف بين الوزراء ففى أسلوبهم فى تطبيق الصيغة السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى أقرتها الدولة .

وقد جربت مصر كل ذلك . وحققت درجات من النجاح والفشل . وربما كان الفشل بسبب عدم الاستقرار السياسى والارتباك الاقتصادى . ومن المؤكد بسبب الاستنزاف العسكرى لموارد البلاد ، من الأهداف . . وبسبب ضياع موارد البترول وقناة السويس والتزايد فى عدد السكان .

ولكى أوضح ذلك أعود إلى المفردات العسكرية . ففى المدفعية يتعلم المقاتلون إصابة نوعين من الأهداف : هدف ساكن وهدف متحرك . . فالذى يطلق النار على شجرة لا يجد صعوبة فى ذلك . فهو يحمل البندقية ويسددها ويصيب الهدف الذى لا يتحرك . ولكن الذى يطلق النار على ذئب يجرى . . فهو لابد أن يراعى عند إطلاق النار أن يجىء الرصاص متقدما قليلا على الذئب . . لأن الرصاص عندما ينطلق يستغرق بضع ثوان ، بينما يكون الذئب يجرى فى نفس الوقت أيضا . . فحركة الرصاص وحركة الذئب يجب أن تكونا فى الحساب . . وهناك نوع ثالث من الأهداف . . فالصياد فى الغابة مثلا يركب سيارة تتحرك ويطارد غزالا يجرى . . ولذلك يجب أن يراعى حركته هو وحركة الرصاص وحركة الغزال . . وكذلك سفن الفضاء التى تنطلق من الكرة الأرضية التى تتحرك حول محورها أمام الشمس ، ثم تتجه إلى القمر الذى يتحرك أيضا حول الأرض . . ولذلك فلابد من تعديل مسار الفضاء من حين إلى حين . . لأن هناك حركات متعددة ومعقدة . فالصاروخ يخرج من جاذبية الأرض ليدخل فى جاذبية الشمس متجها إلى القمر الذى هو جاذبية الأرض وجاذبية الشمس . . ويجب حساب مقاومة الغلاف الغازى للصاروخ ذهابا وإيابا ، وجاذبية الأرض ، ونقص وزيادة وزنه بسبب استهلاك الوقود ، وبسبب القرب والبعد من الأرض والشمس والقمر - وكلها حسابات معقدة ، ورغم ذلك . فقد نجحت كل رحلات سفن الفضاء إلى كل الكواكب بسبب الحسابات المستمرة للحركة .

فإذا احتفظنا بهذه المعانى ونحن نتحدث عن «الخطة» فى مصر . فمن الواجب أن نراعى دائما أن المجتمع يتزايد عدده . . وأن أية خطة يجب أن يدخل فى حسابها أن الهدف - أى الشعب المصرى - يتحرك ويتزايد ويتوسع وتتغير مطالبه وتتصاعد آماله ، وينتقل من القرية إلى المدينة ومن المدرسة إلى الجامعة ومن الجامعة إلى الوظيفة ، وأن الأسعار ترتفع أيضا . .

ولذلك فأول أهداف أية خطة ناجحة هو تثبيت هذه الحركة - أى تثبيت الهدف المتحرك ، لنصبح قادرين على إصابته . فإن لم نفلح فى تثبيت الهدف ، فيجب أن نحسب حركته بدقة لكى نبلغه - وهذه إحدى بديهيات الحرب والصيد ، وهى فى نفس الوقت إحدى بديهيات التنمية . .

وليس أسهل من أن يفعل الحاكم ما فعله نابليون : أن يركب حصانه ويتقدم دون أن ينتظر عربة مهما كانت فخمة وتجرها خيول مهما كانت جميلة وقوية . .

أما نابليون فكان قائدا عسكريا ، وأصر على أن يبقى عسكريا فى كل الظروف . ولكن أحدا فى عصر الديموقراطية لن يمضى وحده فى الطريق ، أى طريق ، ثم يطلب إلى الشعب ، جائعا وشبعان ، راضيا وساخطا ، ظالما ومظلوما ، أن يمشى وراءه . فإذا سقط الواحد منهم فى الجليد كما كان يفعل جنود نابليون فإنه يمد يده إلى قبعته يرفعها تحية للإمبراطور ، ثم يموت سعيدا بعد ذلك !

ولا شىء يثير الناس مثل الكلام عن الرغيف . . ولا شىء يفتح شهية العلماء مثل الكلام عن الرغيف . . ولاشىء يضايق الناس مثل أن يتحول الرغيف إلى كلام - أى إلى أكياس فارغة أنيقة ! . .

والجائع كالمريض يستعجل الطبيب أن يشفيه . .

والطبيب لا ينفعل كثيرا لقلق المريض . .

ويرى المريض أن الطبيب بلا قلب . .

والطبيب يرى المريض بلا عقل . .

ورغم هذا الخلاف الدائم ، فإن الأطباء قد عرفوا العلاج ، والمرضى قد نعموا بالشفاء . .

والسبب فى ذلك هو أن المريض قد ترك للطبيب أن يستخدم علمه وتجربته فى معرفة الداء ووصف الدواء .

وهذا بالضبط ما نحتاج إليه الآن . .

ولأن الطعام هو مطلب الجميع ، أو هو مرض الجميع ، فلابد أن نعمل جميعا لكى نعرف أسباب جوع الأغلبية وشبع الأقلية . وكما أن العدل هو ألا يتفرج الجائع على الشبعان ، فكذلك ألا يتفرج المتعطل على العامل ، أو يأكل إنسان بلا عمل ، ويعمل إنسان بلا أكل . .

ومهما كانت النظريات والفلسفات التى سوف يتقدم بها علماء الاقتصاد

المصريون ، فهى جميعا أفكار منطقية ولأنها أفكار فهى فارغة من المعنى إذا لم يقم أحد بتطبيقها . وهى عاجزة عن الحركة إذا لم نعمل «جميعا» على تحقيقها . ونحن فى كل مايقال عن إصلاح الحال فى مصر نسرف فى استخدام كلمة «العمل» ولا نستعيض عنها بكلمة الإنتاج لأن من الممكن أن يعمل الإنسان ويكون عمله أقرب إلى تعطيل العمل ، أو تبديد الطاقة . تماما كما تتلكأ سيارة فى الطريق فتتعطل سيولة المرور . صحيح أنها ليست واقفة ولكن حركتها هى «عطل متحرك» . وكذلك مئات الألوف من العاملين والموظفين فى الدولة وفى المؤسسات . فالذى نحتاج إليه هو : تغير فى أسلوب الأداء . . وهذا التغير لأنه بالسلوك ، يحتاج إلى وقت طويل . . ولكن الوقت الطويل يختصره الحسم والحزم . . يختصره القرار الذى يلزم الجميع . .

ولذلك فليس علماء الاقتصاد وحدهم قادرين ، مهما أبدعوا من نظريات ، على تتويج الرغيف على عرش الضرورى ، إنما لابد من علماء آخرين فى السياسة والتربية والتوعية . . أى لابد من الجميع فى مواجهة الجميع . .

إنه أسلوب الحرب يجب أن نستخدمه فى السلام . . فالمصانع التى كانت تنتج الدبابات أصبحت تنتج الثلاجات ، وهى جميعا صناعات متطورة : أى علم وفن . إنها التعبئة الشاملة لتحقيق خطة واحدة بالضبط والربط والتضحية . .

وليس ذلك فكرا جديدا ، فقد جربته شعوب قبلنا وتقدمت . ولا أريد أن أسبق الأحداث فأتوقع مالا أعرف - وإن كنت أعلم مقدما أنهم يرسمون الآن صورا لأجمل رغيف وشقة ومدرسة ومستشفى وأتوبيس وطفل ، ولكن سوف يبقى دائما ما يجب أن نفعله من أجل أن يكون كل ذلك ممكنا . .

وحكاية الفيلسوف الأمريكى بنيامين فرانكلين هى أنسب نهاية لهذا المقال . فقد ذهب الفيلسوف الأمريكى لعرض خادمه المريض على أحد الأطباء ، ودخل الفيلسوف ليشرح للطبيب حالة الخادم المريض . . وطالت جلسة الفيلسوف والطبيب . . ولما خرج الفيلسوف يستدعى خادمه وجده نائما على المقعد ، فأيقظه وقال : الآن فقط عرفت لما تخلفت دول كثيرة . . فأنت لم تشأ أن تشغل نفسك بشىء . . لانظفت حذاءك من الوحل ولا غسلت يديك بعد ذلك . ولا سويت شعرك . . ولا أحضرت ملابسك لأنك سوف تبيت هنا فى المستشفى . .

ثم قال كأنه يحدث نفسه : جئت لأشفيك من مرض ، ففوجئت بمرض آخر . . إننى لا أعرف علاجا لمن لا يشغل فراغه ، فيكون نومه فرارا من ذلك ! . .

من الذى قال :
إن إسرائيل تريد
الخروج من لبنان ؟!

حتى الرئيس الأمريكى ريجان يطلب من الشعب أن يعمل أكثر ، و «أن يعمل معا» ، وأن يضغط نفقاته ، وأن يغير برامج تعليميه ليزداد عدد الفنيين والمهندسين ، وأن ينظر دائما إلى اليابان ، فاليابان نصف سكان أمريكا ، ولكن الذين يتخرجون فى جامعاتها ضعف الذين يتخرجون من جامعات أمريكا . فإذا فعل الشعب الأمريكى ذلك فسوف يختفى ١٥ مليون نسمة من المتعطلين ، وسوف يجد مليون مشرد مسكنا لهم ، ولن يحمل الناس لافتات فى شوارع أمريكا مكتوبا عليها «حسنة لله إننى أتضور جوعا !» .

وأمس فقط انقلبت أمريكا من أولها لآخرها ، لأن أبا ترك طفلين فى البيت أحدهما مات جوعا والآخر كاد يموت ! وقدم الأب إلى المحاكمة بتهمة القتل مع سبق الإصرار والترصد - مع أن القاتل هو البطالة أو هو الجوع . وفى أمريكا أشكال وألوان من العنف والشذوذ ، فالتليفزيون يعرض كل يوم اعترافات لفتيات صغيرات أن آباءهن قد اعتدوا عليهن ! وأطفال صغار دون السادسة خطفهم الشبان وحبسوهن شهورا ليعتدوا عليهن ويصورهن فى أوضاع جنسية - كل ذلك وأعنف وأقذر وأقسى فى أمريكا شرقا وغربا . قال لى أحد المصريين من رجال الأعمال الناجحين فى صمت إنه قرر أن يعود إلى مصر فلديه ابنتان ، وحكى لى أنه كان عائدا إلى بيته عندما تفقد إحدى ابنتيه فلم يجدها . وبدلا من أن يبحث عنها ركع على الأرض وراح يلطم خديه ويقول : يارب تدوسها سيارة ، وأدفنها بيدى الآن . . هذا أفضل من أن يخطفها واحد من الشبان . . إلخ . .

ومعنى هذا أن النصر السياسى أو العسكرى لأغنى وأقوى دولة فى العالم لا يعوضها عن العناء الاقتصادى ، وعن الاضطراب الاجتماعى ، وعن الشذوذ الأخلاقى .

فريجان لا يهرب من المسئولية السياسية عندما يدعو حكومته وشعبه إلى العمل والإبداع مثل اليابان - ونحن فى مصر نقول ذلك وندعو له . ولا يقال للرئيس ريجان إنه لاجئ سياسى أو هارب سياسى إلى المشاكل الاقتصادية ، وإن كان الهرب السياسى ممكنا ، ولكن الهرب الاقتصادى مستحيل .

وفى إحدى مسرحيات الكاتب اللاتينى ماركوس نجد الجيوش عائدة من القتال ممزقة مرهقة جائعة ولكنها منتصرة ، وتبلغ المأساة والمهزلة قمتها فى لحظة واحدة ، عندما يأتى الملك بإناء ويضعه على النار ، ويلتفت حوله فلا يجد لحما ولا أرزا يضعه فى الماء المغلى ، فيخلع التاج من فوق رأسه ويضعه فى الماء ، وينتظر هذا «الحساء الذهبى» ، ويغلبه النوم ، ويسمعه الجنود وهو يحلم بكل أنواع الطعام والشراب ! . .

ونحن أيضا لدينا مشاكل اقتصادية ونحاول أن نحلها ، ويحتاج ذلك إلى وقت وإلى معونة الآخرين ، ويحتاج أكثر إلى أن نعين أنفسنا . تماما كما قال الرئيس مبارك أكثر من مرة ، وكما قال بالأمس الرئيس الأمريكى ريجان : أى لا بد من العمل معا . .

ولكننا فى حاجة إلى المساعدة الأمريكية فى حل مشاكل الشرق الأوسط فنحن آمنا بأنه من غير أمريكا لا حل لشىء ، وذلك للسبب البسيط المعروف وهو تلك العلاقة الخاصة بين أمريكا وإسرائيل . وإسرائيل هى مشكلة الشرق الأوسط أمس واليوم وغدا . وليس من شأننا أن نقول من الذى يحرك أمريكا أو من الذى يحرك إسرائيل فهذا لغز . ولكنه أوضح الألغاز السياسية فى العصر الحديث . وبسبب تعدد الأطراف فى كل قضايا الشرق الأوسط فإننا لانكاد نتناولها حتى ندخل فى دوامة «اللوم العظيم» ، فلبنان يلوم إسرائيل ، وإسرائيل تلوم مصر . ومصر تلوم الفلسطينيين ، والفلسطينيون يلومون سوريا . وسوريا تلوم الأردن وليبيا والعراق . والأردن تستجير بالسعودية ، والسعودية لاتريد أن تتورط . والأمريكان يلومون الروس - ولا خروج من هذه الدائرة إلا بتوضيح المواقف . فموقف الرئيس مبارك واضح وبسيط : لابد أن تخرج إسرائيل من لبنان ، وأن يبدأ الفلسطينيون فى عمل شىء إيجابى ولو كان الاعتراف من جانب واحد بإسرائيل ، أى تورط إسرائيل وإبطال حجتها أمام العالم ، تمام كما ورطها الرئيس السادات عندما زار القدس ، فإذا لم تعترف إسرائيل بالمنظمة سحبت المنظمة اعترافها بعد أن عرف العالم كله أن

إسرائيل ليست جادة فى دعواها للسلام ، وهذا الاعتراف من جانب المنظمات الفلسطينية سوف يشجع الملك حسين على التفاوض مع إسرائيل . ومصر الآن تقوم بدور «الرأى الآخر» ، لأن الرأى الأول هو ما تعلنه إسرائيل بوسائل أقوى وأكثر انتشارا وإقناعا فى أمريكا . ومصر التى سبقت الدول العربية فى تحقيق السلام تريده أن ينتشر ، وقد جربنا الرفض ، وعانى العرب كثيرا من رفض الرفض ، ولاتزال فى حالة اسمها الغثيان السياسى ، أى أننا دائخون بسبب دوامة التبادل والرفض المتبادل ، ومن مصلحة جميع الأطراف أن يكون سلام ، أو أن يكون السلام ، ومصلحة مصر والفلسطينيين وأمريكا ، فأمريكا لها مصالحها فى الشرق الأوسط والشعب الأمريكى ليس على استعداد لأن يضحى بنفسه من أجل إسرائيل ، ثم إن الشعب الأمريكى قد تعب من الأزمات التى تخلقها إسرائيل لأمريكا فى الشرق الأوسط وفى العالم - أمريكا التى آمنت بالتسامح الدينى والعطف على الأقليات ومساعدة دولة إسرائيل إلى غير حدود .

أما الموقف الفلسطينى المعتدل فهو معروف : فقد رفضوا مبادرة الملك فهد التى تشير إلى الاعتراف المتبادل وقيام الدولة الفلسطينية ، ورفضوا مبادرة الرئيس ريجان التى تدعو إلى أن تكون الضفة جزءا من المملكة الأردنية الهاشمية - ولا أحد يعرف هل هى دولة متحدة مع دولة أو هى إحدى محافظات الأردن ؟ المهم ألا تكون هناك دولة مستقلة للشعب الفلسطينى ! . .

وكل الفلسطينيين يرفضون الموقف الإسرائيلى الذى يريد أن يخلق واقعا جديدا فى الضفة الغربية بزيادة عدد المستوطنات التى تستوعب مئات الألوف من اليهود المهاجرين من روسيا . .

والموقف الأردنى يرحب بأى اتحاد مع الضفة الغربية ، وفى نفس الوقف لايزال الملك حسين متخوفا من الموقف الإسرائيلى الأمريكى ، فإسرائيل تعلن رسميا أن دولة فلسطين هى الأردن نفسها . وأن الواقع الأردنى هو واقع فلسطينى ، وإنه يجب تفريغ الضفة الغربية من سكانا وتهجيرهم بالقوة إلى الأردن ، أو أن تكون هناك دولتان منزوعتا السلاح هما شرق الأردن وغرب الأردن ، ولذلك فالملك حسين يريد ضمانات أمريكية بأن الضفة الغربية وقطاع غزة سوف تنضمان إليه . ويريد موافقة السعودية وبقية الدول العربية على دخوله فى المفاوضات العلنية مع إسرائيل ،

ويريد تفويضا من منظمة التحرير الفلسطينية ، ويفضل أن يكون التفويض إجماعيا من كل المنظمات ، وهذا يقتضى أن تغير سوريا من موقفها فى هذا الاتجاه . .

أما الموقف السورى فهو رفض لأى مفاوضات معلنة مع إسرائيل ، لأن سوريا لاتريد الخروج من لبنان ، وإسرائيل أيضا ، ولأن سوريا تستفيد من هذه الأوضاع التى يستحيل حلها ، ولأنها تريد استخدام الفلسطينيين رهائن فى بلادهم ، وأن تمدهم وتهدد بهم الدول العربية الأخرى . ولأن سوريا تريد من إسرائيل بديلا عن الجولان التى آلت ملكيتها إلى إسرائيل . وتأمل فى أن يكون التعويض من لحم ودم وادى البقاع ، وسوريا تعلم أن مساعدتها لإيران ضد العراق تفسد الهواء النقى المرتعش فوق الخليج ، ولذلك فهى قوة فى الخليج وهى قوة فى لبنان ، وهى وإسرائيل معا تقفان فى وجه القضية الفلسطينية . .

والموقف السعودى ليس واضحا ولكنه قوى . فالملك فهد قد تقدم بمبادرة ولكن الفلسطينيين رفضوها ، ولايريد الملك فهد أن يدخل فى مواجهة واضحة ، ولايريد أن يكون طرفا يقبله الفلسطينيون أو يرفضونه ، ولكنه يريد أن يكون القوة التى تساعد الجميع ، وعلى الرغم من أن الملك فهد يساند الرئيس الأسد فإنه لايمشى معه كل الطريق وإنما معظم الطريق . . لأن السعودية لم تعد توافق على الوجود السورى فى لبنان ، ولا توافق على تعطيل الحل السلمى ، ولا ترضى عن مساعدة سوريا للإمام الخمينى ، وإن كانت الأموال السعودية هى التى ينفقها الرئيس الأسد فى إبقاء الحرب بين العراق وإيران ، وعلى إشعال نار الخلافات فى المنطقة بين المنظمات الفلسطينية ، وتشويه الدور المصرى الهادئ الواقعى فى تحقيق السلام . .

أما الموقف الإسرائيلى فهو عقد العقدة فى المنطقة ، فإسرائيل لا تريد الخروج من لبنان رغم أنها تطلق المظاهرات فى الشوارع تحتج على وجودها فى لبنان ، إنها تعلن كثيرا عن ضيق الشعب الإسرائيلى ، وتقوم بمظاهرات مختلفة ، وتعلن أيضا أن الجيش غير راض عن وجوده فى لبنان ، وتعلن أن الشعب الإسرائيلى غير راض أيضا عن العلاقات المصرية الإسرائيلية . ولكننا نحن المصريين الذين عانينا كثيرا من التفاوض والتفاهم مع إسرائيل قد رأينا هذه المظاهرات معنا وضدنا ، وهى من طبيعة الشعوب اليهودية ، والغريب ألا يختلف اليهود وألا يتظاهروا وألا تؤدى خلافاتهم إلى مزيد من الأحداث ، والرئيس نافون عندما تحدث إلى الشعب

الأمريكى هنا قال فى التليفزيون : «يجب أن تتعلموا منا الديموقراطية . أنتم حزبان ، ونحن سبعة أحزاب ، ومن الممكن أن تصبح تسعة» . .

فالخلاف طبيعة فيهم ، والاتفاق على العدو طبيعة أيضا ، وإسرائيل قد أنفقت أمولا كثيرة قبل أن تدخل لبنان ، لكى تقضى على الوجود العسكرى للشعب الفلسطينى ، ولذلك فلن تخرج إسرائيل من لبنان دون ثمن ، والثمن : أرض والأرض : مساحات منزوعة السلاح . وبعدها مساحات مسلحة تسليحاً إسرائيليا . والسلاح من أجل «الأمن الإسرائيلى» ، ولا نهاية للأمن الإسرائيلى ، ولو استطاعت إسرائيل أن تحتل الكرة الأرضية لتسلحت ضد الكواكب الأخرى ، فالخوف والشك والعنف والانتحار الجماعى هى الجهات الأصلية الأربع لأى وجود إسرائيلى . .

فقد ذهب الرئيس نافون إلى أمريكا فى حملة انتخابية زكية يعرض نفسه على الشعب الأمريكى الذى أقام دولة إسرائيل جاء إلى أمريكا يعرض نفسه على القبائل السياسية ، والاقتصادية والبترولية والإعلامية ويقول لهم إنه رجل المستقبل ، وإنه يختلف عن مناحم بيجين يقوم بدور الخمينى بالنسبة للشعوب اليهودية ، أما نافون فهو رئيسهم فقط ، وهو يهودى شرقى يتحدث اللغة العربية ، وهو زعيم حزب العمل المقبل ، ثم قال لهم إنه ليس رجل سياسة الآن . فليس من حقه أن يتكلم فى السياسة . ولكنه رغم ذلك تكلم . فماذا قال ؟ قال : إن العلاقات المصرية الإسرائيلية . الآن لا تشجع العرب فى أى مكان على عقد صلح من إسرائيل ، ثم إنها لا تشجع الشعب اليهودى على أن يحقق السلام مع لبنان ، فمصر قد جمدت العلاقات ، وكان ذلك صدمة للشعب الإسرائيلى ، ولذلك فمصر هى المسئولة عن عرقلة السلام بين إسرائيل ولبنان فمصر هى السبب وليست إسرائيل ، ثم كرر هذا المعنى كثيرا ، ولكن السيد نافون لم يتناول القضايا الأخرى كالعدوان على لبنان ، وإبادة العسكرية الفلسطينية ، ومذابح صابرا وشاتيلا . كأن هذه المشاكل التى لم تجف دماؤها بعد قد تلاشت آثارها النفسية والعالمية . وامتصتها اللجنة المسرحية بالتحقيق مع قادة إسرائيل ووزرائها فى مذابح لبنان ، والرئيس نافون قد ذهب لأمريكا فقط لكى يلوم مصر ، ويلقى على رأسها مذابح لبنان وعدم خروج إسرائيل وسوريا وبقية القوات الأجنبية . .

وأهم من ذلك أن الرئيس نافون لم يختلف فى شىء واحد عن السيد مناحم

بيجين ، فكلاهما وجهان لعملة واحدة . والفرق الوحيد هو أن نافون يبتسم وهو يتحدث ، بينما بيجين يكفهر . . فبيجين يقول عادة إنه وحده لاشريك له الحافظ الأمين على إسرائيل ومصالح أمريكا . أما السيد نافون فيقول إنه الحافظ الأمين لجميع وجهات نظر السيد مناحم بيجين . .

فما الذى يريده الرئيس حسنى مبارك من أمريكا وفى أمريكا ؟ . .

هذه الزيارة ليست أنه يريد أن يقدم نفسه كرئيس لمصر استطاع أن يحقق لها ومعها الاستقرار الداخلى . وهذا الاستقرار هو الجو المناسب للاستثمار وهو شرط وضوح الرؤية إلى حجم مشاكلنا الاقتصادية ، ثم إن خطواته الهادئة فى المجال السياسى رغم أهميتها لايمكن أن تشغل الناس عن الغلاء وعن نقص المساكن . «فلابد من العمل معا» . وقد اهتدى العلماء الأمريكان فى دراستهم لسر العبقرية اليابانية . أن كل الشركات اليابانية تعمل كأسرة أو كقبيلة . فالعمل معا والتفوق معا ، هو سر هذه البراعة اليابانية الى تتحدى بها الدنيا كلها . .

والرئيس مبارك مثل الرئيس السادات مثل الرئيس عبد الناصر مبهور بالعبقرية اليابانية ، وطبيعى أن يحلم بأن يكون لمصر شىء من ذلك ، ونحن نتلقى مساعدات أمريكية كثيرة ، ولكن الأمريكان يضعون شروطا لاستهلاك هذه المعونة ، شروطا على الجدول الزمنى ، وشروطا على مجالات العمل بمقتضاها فقد أكدت لنا أمريكا أنها رغم ضائقتها المادية فإنها لم تضغط المعونات أو القروض ، ولكن أمريكا لا تزال تعطى إسرائيل أضعاف ما تعطيه لمصر ، وهذا لغز السياسة والاقتصاد الأمريكى ، ولا أمل لنا فى أن نتلقى هذا القدر من العناية والاهتمام ، ولكننا نأمل فى كثير من ذلك . .

وفى السياسة يريد الرئيس مبارك أن يعرض الوجه الآخر لكل مشاكل الشرق الأوسط والمشاكل العربية الإسرائيلية ، ونشاط السوفيت ، وضرورة أن تقوى مصر عسكريا ، وأن تجىء المعدات الأمريكية والذخيرة بإيقاع أسرع ، وأنه لابد من توضيح الدور العسكرى المصرى والتسهيلات المصرية لأمريكا ، ومما يساعد أمريكا على اتخاذ وجهات نظر قريبة من مصر تحسن العلاقات المصرية العربية . .

ثم مشكلة «طابا» وهى مساحة كيلو متر مربع من الأرض المصرية تحتلها إسرائيل ، ومصر ترى أنها مشكلة فنية ، ويجب أن تكون مشكلة فنية لأنها تتعلق بخرائط الحدود بين البلدين ، ولا يمكن أن تكون مشكلة سياسية ، لأن معنى

المشكلة السياسية أن تكون لها علاقة بالسيادة المصرية على هذه الأرض ، ولكن إسرائيل تحاول أن تجعلها مشكلة سياسية ، وهذا الموقف من إسرائيل هو الذى يخيف أى بلد عربى أن يدخل فى مفاوضات سلام أو صلح مع إسرائيل ، لأنها لاتزال تريد المزيد من «أرض الغير» ، وأن هذا يدل على أن نزعاتها التوسعية لاتزال فى أعماقها . .

أما الموقف اللبنانى فهو أن لبنان دولة ضعيفة ممزقة بنص الدستور ، وقد زادت تمزقا ، وهى تريد من إسرائيل أن تخرج هى وكل القوات الأجنبية ، وإسرائيل ترى أن لبنان أضعف من أن يحمى نفسه بنفسه ، وأن إسرائيل إذا خرجت هى وبقية الدول الأخرى فسوف تدخل القوات الفلسطينية ، ولذلك فلابد أن تبقى إسرائيل إلى أن يقوى لبنان ، ومادام لبنان لن يقوى اليوم أو غد فهى باقية ، ومادام بقاؤها سوف يطول فهى فى حاجة إلى تأمين هذا البقاء بالوجود العسكرى ، أو بالتطبيع الشامل الكامل فى كل المناطق التى تحتلها ، على أن يوقع لبنان على اتفاقية تطبيع ، وليس من الضرورى أو تكون هناك اتفاقية سلام ، وبذلك تبقى الحدود بين لبنان وإسرائيل مائعة ، والعلاقات متداخلة إلى أن تتمكن إسرائيل من (تهويد) وسط لبنان كما هودت جنوب لبنان ، والشعب اللبنانى قد أرهقته الحروب ويريد أن يعيش ، وهو قادر على أن يعيش فى كل الظروف ، وإسرائيل تشكل فى كل القوات الأجنبية بما فيها القوات الأمريكية ، وترى أنها تساعد على الوجود الفلسطينى ضد مصالحها ، ولذلك كادت إسرائيل تقتل عددا من الجنود الأمريكان ، فقد فعلت ذلك فى سنة ١٩٦٧ عندما ضربت السفينة الأمريكية «ليبرتى» ، وهى مستعدة أن تضرب أمريكا والأمريكان فى أى مكان إذا كان ذلك يتعارض مع مصالحها . .

والآن ما هو المطلوب ؟ . .

المطلوب من أمريكا أن تضغط فى ناحيتين : على إسرائيل وعلى السعودية ، . على إسرائيل لعلها تنسحب من لبنان ، وأن يتشجع الملك حسين فيدخل في المفاوضات ، وأن تضغط على السعودية فتدفع الرئيس الأسد إلى أن يخفف قبضته ، وأن تعطى الملك حسين فرصة التفاوض ، وأن تؤيد بشكل ما الملك حسين ومنظمة التحرير الفلسطينية . .

والرئيس حسنى مبارك لديه صورة أوضح لكل حقائق الشرق الأوسط وهذه الصورة تتفق مع وجهة نظر الرئيس ريجان إلى حد كبير . ورأى الرئيس مبارك هو الرأى الآخر ، والجانب الآخر الذى يجب أن يكون معلوما بوضوح لدى الرأى العام الأمريكى . فقد أفلحت إسرائيل أن تضع ضباباً على حقائق الموقف فى الشرق الأوسط ، والوقت يجرى ولا إحساس لدينا فى الشرق الأوسط بهذا الوقت ، ولذلك فهو يجرى لغير صالح العرب ، ويكفى أن نستعرض خطاب الرئيس ريجان إلى الشعب الأمريكى . فنجد أن الشرق الأوسط لم يستغرق سوى سطرين ، والسلام العالمى سطرين آخرين ، أما بقية الخطاب الطويل الذى لم يرتجله الرئيس ريجان ، وإنما كان قد حفظه عن ظهر قلب ، فقد تحدث عن المشاكل الاقتصادية للشعب الأمريكى ، وبذلك كان خطاب الرئيس ريجان افتتاحا للمعركة الانتخابية القادمة التى سوف تشغل الحاكم الأمريكى والمحكوم عن كل قضايا الدنيا – وعلى فلسطين السلام ورحمة الله . وإلى اللقاء مع الرئيس الأمريكى الجديد سنة ١٩٨٤ .

إن إسرائيل تقول إنها تريد الخروج من لبنان ولكنها لاتقصد ذلك . .

ومن الضرورى أن «نعمل» على إخراجها ، أى نعمل نحن ، وإن كنت لا أعرف ولا أجرؤ على أن أقول من هم «نحن» ، فالعرب لم يتفقوا بعد على شىء من ذلك . .

* * *

بدأ عصر الفلسطينى التائه

انتهى عصر « اليهودى التائه » من ٣٤ عاما ، فقد أصبحت له دولة . وبدأ عصر «الفلسطينى التائه» ٢٤ يومًا ، فقد كانت له دولة . . ثم له مخيمات ، واليوم أصبح اليهود أشد الناس كراهية للفلسطينيين . لأنهم يرون فى الشعب الفلسطينى التائه صورة جديدة للشعب اليهودى التائه . ولذلك يريدون أن يقضوا على هذه الصورة . . على ظلهم الجديد . . ولن يستطيع اليهود أن يفعلوا ذلك . لا لأن العالم كله يقف وراء الشعب الفلسطينى ، ولا لأن العرب قد اشتركوا فى «مؤامرة صمت» على هذا الذى جرى دما فى لبنان ، ولكن لأن الشعب الفلسطينى قد أصبح الآن حرا من كل قيد إقليمى ومن كل التزام سياسى . ولذلك فسوف يقلب الدنيا على اليهود فى أى مكان وعلى الذين يحالفونهم . لقد شاءت إسرائيل أن تنهى المقاومة «العسكرية» الفلسطينية ، فكان لها ذلك ، ولكن لن تقضى على «المقاومة» بأى سلاح آخر ، فى أى مكان آخر !

إن غزو إسرائيل للبنان هو أفدح غلطة وقع فيها صقور إسرائيل ، وقد ذكرت فى الأسبوع الماضى : إن الأجيال الجديدة التى لم تكن تعرف بالضبط ما الذى فعله اليهود فى الحروب ، فإنهم الآن قد عرفوا . . وبذلك تكون إسرائيل قد وحدت بين أجيالنا الجديدة والقديمة فى صف واحد على استنكار هذه الوحشية ، وهكذا تعمل إسرائيل بمنتهى البراعة على خلق صورة جديدة لليهودى العالمى أو الإسرائيلى . . ليست هى الشخصية التى كنا نرسمها ونضحك عليها . . ولكنها صورة أخرى لا نرسمها ، بل ترسمها إسرائيل ، لا لكى نضحك عليها ، ولكن لكى تبكى هى عليها . .

لقد انتصرت إسرائيل فى لبنان ، انتصرت على كل دعاة السلام وكل أدعياء الصداقة الفلسطينية ، ولابد أن الفلسطينيين يعرفون الآن ، أن أصدقاءهم

الإسرائيليين لم يكونوا إلا إسرائيليين فقط . . وأن لاصديق لهم فى أمريكا أو روسيا أو فى سوريا ، وكما أن اليهود الذين طردهم هتلر فى الحرب العالمية الثانية قد ضاقت بهم الدول الأوروبية ، فإن الفلسطينيين الذين طردهم بيجين قد ضاقت بهم وعنهم البلاد العربية والأوروبية أيضاً ، وسوف تضيق عنهم لبنان ، إلا إذا ساروا عراة حفاة . . لايحملون إلا سلاحا واحدا هو : الكراهية للجميع . .

والفرق الوحيد بين « اليهودى التائه » : هو أن اليهود اختلفواكثيرا ولكن أفلحوا فى أن تكون لهم صيغة واحدة للقتال ، وأن يكون لهم زعيم واحد . . أو زعماء كثيرون ؛ إنهم واحد . . فعندما انهدم الهيكل عليهم ، وجدوا مأواهم فى كتاب واحد هو « التلمود » وعندما تفرق زعماؤهم وتضاربت أهدافهم جعلوا قبلتهم شيئا واحدا هو جبل صهيون . . وحصلوا على الحلال والحرام من كل سبيل ، حتى كانت لهم أرض فلسطين مضمونة إلى الأبد فى وثيقة دولية بتوقيع أمريكا وروسيا . أى أن إسرائيل هنا فى هذا المكان مادامت روسيا وأمريكا قادرتين على حمايتها . ولم تختلف روسيا على سلامة إسرائيل يوما واحدا . وهذه هى المرة الثانية التى تتفق فيها الدولتان ، المرة الأولى عندما تسابقتا على الاعتراف بها ، والمرة الثانية عندما غزت لبنان لإبادة الشعب الفلسطينى . .

وفى نفس الوقت الذى تقدمت فيه قوات إسرائيل الوحشية لإبادة الشعبين الفلسطينى واللبنانى ، كانت القوات البريطانية تسترد جزر فوكلاند . وهناك وجوه للشبه بين الحربين ، فبريطانيا وإسرائيل حليفتان للولايات المتحدة . ولكن إسرائيل لم تحارب استردادا لأرض كانت لها ، ولم تحارب من أجل بقائها ، تكون أولا تكون فسلامتها مصونة مكنونة بأحدث الطائرات والصواريخ والرادارات والجواسيس من أدعياء الصداقة الفلسطينية ، وبريطانيا ذهبت تحرر جزرا لها استردتها الأرجنتين دون اتفاق على ذلك . .

ولكن أهم ما فى هاتين الحربين الصغيرتين أنهما تضعان أمامنا قضية خطيرة هى : تجارة السلاح . .

فمن الذى يبيع السلاح لمن ؟ . .

إنها الدول الكبرى تبيع السلاح لكل الدول النامية– تسعون دولة نامية .

وقد باعت الدول الكبرى سنة ١٩٦٩ بما يعادل تسعة آلاف مليون دولار ، وفى

سنة ١٩٧٩ باعت بما يساوى عشرين ألف مليون دولار . . هذه المبالغ الطائلة تساوى ١٤٪ من موارد الدول النامية . .

ولأن هذه الأسلحة سريعة التطور ، فبعضها يبطل البعض الآخر ، فلابد أن تسارع الدول النامية إلى شراء الأسلحة الجديدة ، ولم تصل هذه الدول إلى درجة الشبع ، ولن تصل . .

فنحن فى هذه المنطقة من العالم لدينا الخلافات ولدينا البترول . أى لدينا الفلوس التى نشترى بها السلاح ، لعله يحل ما بيننا من خلافات ، وحصلنا على السلاح ، ولم نصل إلى حل ، بل إن الحروب الصغيرة تؤدى إلى حروب كبيرة ، وعندما تشتعل الحروب الكبيرة ، كما حدث فى حرب الثلاثين عاما فى أوروبا ، وبين العرب وإسرائيل ، فسوف يؤدى ذلك إلى حروب صغيرة . تكون مقدمة لحروب كبيرة . . وهكذا . .

ولا شيء يدل على وجود الاضطرابات فى منطقة إلا إقبالها على شراء السلاح ، أى على أدوات حسم الخلاف وإلقاء الماء على النيران تهدئة لها ، وليس قضاء عليها . .

وكانت الدول النامية تلجأ قديما إلى محالفة الدول الكبرى حماية لها - تماما كما يحدث فى الكباريهات حين تلجأ الغانية إلى بلطجى يحميها من تهور الزبائن المخمورين . . ثم إن الدول الكبرى لم تعد تغامر بالتدخل المباشر فى النزاعات الصغيرة . . ولذلك لجأت إلى بيع السلاح ، وعن طريق هذه السلعة تستطيع الدول الكبرى أن يكون لها فى استخدام هذا السلاح أو وضع حظر عليه . .

ورغم ذلك لم تستطع الدول الكبرى أن تستخدم هذه السلعة لحسابها دائما . . فالأسلحة السوفيتية فى مصر وأندونيسيا ، أدت إلى طرد السوفيت ، كما أن الأسلحة الأمريكية التى اشتراها شاه إيران بألوف الملايين ، قد أدت إلى خروج الشاه وطرد الأمريكان . ورغم المصالح الأمريكية الهائلة فى الشرق الأوسط ، فإنها أعطت لإسرائيل كل أنواع الأسلحة المتطورة ، وساندتها رغم عداوات العرب لإسرائيل . .

ثم إن الدول العظمى قد اتفقت فيما بينها على اقتسام مناطق النفوذ بأشكال مختلفة ، فالسوفيت اشتروا الفوسفات من المغرب ، بينما حصلت أمريكا على قواعد عسكرية . . والأمريكان خرجوا من ليبيا عندما « أمرهم » العقيد القذافى

بذلك . ودخل السوفيت ولهم قواعد بحرية وجوية وترسانة من أحداث الأسلحة المتطورة التى تديرها قوات من ألمانيا الشرقية ويوغسلافيا وكوريا الشمالية وروسيا . وفى نفس الوقت لم تؤمم ليبيا شركات البترول الأمريكية . .

وعندما تخوف القذافى من الحشود المصرية على حدود ليبيا ، تقدم إلى الرئيس كارتر يشكو الرئيس السادات ، واتصل الرئيس كارتر بالرئيس السادات ، وكان رد الرئيس السادات : إن أمريكا أول من يعرف إن كانت مصر قد حشدت قواتها على حدود ليبيا أو لم تفعل فالأقمار الصناعية تصور كل شئ يتحرك على الأرض . ولكن المعنى الذى قصده الرئيس كارتر هو أنه قبل الوساطة بين ليبيا ومصر . ثم إنه يؤيد المخاوف الليبية . أى لا داعى لأن تحشد مصر قواتها على حدود ليبيا الصديقة للولايات المتحدة !

وسوريا حليفة السوفيت وقاعدته الأولى فى المواجهة بين العرب وإسرائيل ، تتلقى ألوف الملايين من دول الخليج ، تدفعها لروسيا وتحارب بها الإخوان المسلمين والإخوان المارون والشعب الفلسطينى ، وهى بذلك تلتقى مع أهداف إسرائيل التى تساندها أمريكا وروسيا ، فهى أيضا تتلقى معونات أمريكية بأشكال مختلفة .

وفى تاريخ الحروب مع إسرائيل هناك نقطتان للتحول فى صناعة الأسلحة . النقطة الأولى يوم أطلقت مصر صاروخا سوفيتيا على السفينة الحربية الإسرائيلية إيلات فأغرقتها ، والصاروخ لم يغرق فى الحقيقة قطعة حربية إنما أغرق أسلوبا بحريا فى القتال ، وقد تكرر هذا الحادث الجلل مرة أخرى عندما أطلقت الأرجنتين صاروخا جويا فرنسيا اسمه «أكزوست» على الأسطول البريطانى ، فأغرق العديد من سفنه . . هذا الصاروخ انطلق من طائرة اشترتها الأرجنتين من بريطانيا ، أما أجهزة الرادار التى جاء إنذارها مبكرا بالهجوم البريطانى بحرا وجوا ، فهى أمريكية الصنع . .

وقد أدى هذا الصاروخ إلى أن غيرت أمريكا من فلسفتها البحرية كلها . وقررت العدول نهائيا عن حاملات الطائرات الضخمة . أما بريطانيا فقد غيرت نهائيا من صواريخها المضادة للصواريخ . وقد حاول الرئيس ميتران أن يخفف من أثر هذه الكارثة التى حلت بالصداقة بين فرنسا وبريطانيا ، فدعا عددا من الخبراء الإنجليز لزيارة مصانع الصواريخ مع وعد بعرضها على الإنجليز لعلهم يقتبسون منها شيئاً . .

أما نقطة التحول الثانية فكانت فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ التى كانت انتصارا ساحقا للأسلحة السوفيتية المصرية ، أى انتصار للحرب الإلكترونية التى تدرب عليها المصريون وتفوقوا . ولم تكن إسرائيل على دراية بشىء من ذلك . .

ولكن إسرائيل استطاعت أن تتغلب على هذا العجز ، فاشترت كل أنواع الأسلحة الإلكترونية من أمريكا ، ثم إنها أدخلت تعديلات عليها أيضا . وقد عرفت موجة التردد لصواريخ سام ٦ فى مرحلة سابقة على الغزو الدموى للبنان . وذلك بإطلاقها طائرات بلا طيارين . وكانت الصواريخ السورية تتجه إليها مباشرة ، فرصدت إسرائيل موجات التردد ، فأطلقت عليها صواريخ مضادة تتلقاها أجهزة التردد على نفس الموجة وقضت عليها . .

وقد خسر وكسب فى حرب فوكلاند ولبنان الإنجليز والإسرائيليون . . وكان كسبهم ماديا ، ولكن من المؤكد أن الخسارة المعنوية المادية أيضا سوف تكون فادحة لبريطانيا وإسرائيل وأمريكا ، أما الذين كسبوا إلى غير حد فهم أصحاب الشركات الأمريكية التى تنتج العقول الإلكترونية المركبة فى الصواريخ سريعة التطور والتغير . .

وإذا كانت الدول العظمى تشتغل بتجارة الموت فمن المؤكد أن هذه التجارة توصف الآن بتجارة الانتحار – لأن هذه الأسلحة تخرج من هذه الدول لترتد إليها مرة أخرى . . ويكفى أن نقوم بتصنيف نوعيات الأسلحة التى تحارب بها العراق وإيران . .

فقد طلب العراق أسلحة من الروس ، فرفضوا أن يمدوه بأسلحة يحارب بها إيران التى تساعدها إسرائيل . . وتساعدها روسيا عن طريق سوريا وليبيا وكوريا الشمالية ، وبكميات هائلة من مخلفات الجيش الأمريكى فى فيتنام !!

أما العراق فيحصل على الأسلحة والذخيرة الروسية من مصر ومن بعض الدول الأوروبية مثل إيطاليا وبريطانيا وسويسرا . . حتى هذه الدول قد لقيت حظرا من الولايات المتحدة ، وكانت فرنسا قد أقامت مفاعلا نوويا فى العراق ضربته إسرائيل بطائراتها الأمريكية ، ومن العجيب حقا أن تعلن أمريكا أن إسرائيل فى غزوها للبنان لم تسىء استخدام الأسلحة الأمريكية ؟! .

وقد أرسلت إسرائيل ذخيرة للأرجنتين لمحاربة الإنجليز حلفاء أمريكا التى هى حليفة لإسرائيل . .

أما النتيجة الخطيرة التى ننتهى إليها الآن فهى : أن حياة الإنسان أو الإنسانية لم تعد تهم أحدا . فلا أحد يضيق بالحروب ، لأن سباق التسلح تساعد عليه الدول العظمى ، لأن صناعة السلاح هى أعظم صناعة وتجارة . . وقد حدثت حروب كثيرة فى آخر الدنيا الجديدة : فى فوكلاند ، وفى قلب الدنيا القديمة : إسرائيل ولبنان ، ولم يهتز العالم لشىء من كل ذلك ، إنما الدول كلها جلست تحسب نصيبها من الأرباح والخسائر ، فروسيا فى حاجة هذا العام إلى ٤٢ ميلون طن من القمح يجب أن تحصل عليها من الأرجنتين التى ساعدتها بالمعلومات والسلاح فى الحرب الأخيرة . . ومن الولايات المتحدة أيضا . . وبسبب هذه الأموال الضخمة التى تنفقها روسيا على القمح ، فلن تكون قادرة على تطوير مصانعها ، ولن تكون قادرة على دفع ديونها للبنوك الغربية ، وقد بلغت هذه الديون ستين ألف مليون دولار . . وفى نفس الوقت سكتت أمريكا عن الاحتلال السوفيتى لأفغانستان ، وعن الأحكام العرفية فى بولندا ، ولم يستطع الرئيس برجنيف أن يهدد إسرائيل ، ولو كلاما كما فعل خروتشيف أثناء العدوان الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦ .

ونتيجة أخرى : هى أن الأسلحة الحديثة سوف تستغنى عن الإنسان نفسه ، فالطائرات بلا طيارين ، والطائرة تستطيع أن تصيب عدة أهداف لا تراها دون خطأ . . والطائرات الرادارية هى محطات جوية تدير مئات العمليات العسكرية دون تدخل إنسان فى كل عملياتها المعقدة . . وهكذا تكون للحرب جاذبية خاصة ، وهى أنها حروب مثيرة لا تؤدى إلى أية خسائر إنسانية ! . .

وإذا كان تجار السلاح هم الذين يبيعون أدوات الموت لنا ، والانتحار لهم ، فإنهم أيضا يصدرون المذاهب السياسية ، أى أنهم يبعثون بالسلاح وبالأهداف أيضا . . ولا خلاف بين أمريكا وروسيا على مفردات القاموس السياسى ، وأكثر الكلمات شعبية عند الدولتين هى : الديمقراطية والحرية والحياة والسلام والكرامة ، وهى أقنعة شفافة رقيقة جميلة تخفى تحتها أنيابا وأظافر ونهباً لأموال الشعوب باسم الدفاع عن القاموس السياسى . .

وكانت أمريكا وروسيا تلجأن إلى سياسة قديمة معروفة هى سياسة : التخويف ثم الاحتواء ، والتخويف هو إقناع الخصم بأن دخوله الحرب سوف يؤدى إلى خسائر فادحة . . وهكذا تردع الواحدة منهما الأخرى ، حتى تشتعل حرب واسعة النطاق ، والخطوة الثانية تقوم فيها الدولتان باحتواء النزاع : أى بفرض حصار حوله وتضييق ضرره حتى لا ينتشر ويؤدى إلى مواجهة بين الدولتين ، والذى يقرأ كتاب المؤرخ الإغريقى توكديدس ، الذى عنوانه «الحروب البيلوبونيزية» يجد أنه يثير الرعب والفزع فى نفوس المقاتلين حتى لا يقاتلوا . . وربما كان الإمبراطوار ليو البيزنطى وكذلك الفيلسوف الإيطالى ميكافيلى أول اثنين دعوا إلى التلويح بالقوة دون استخدامها ، وقد لجأت أمريكا إلى كل هذه الفلسفات حتى لا تكون حرب شاملة ، ولم تفلح فى ذلك حتى تورطت مصر فى حرب اليمن وأصبحت لدى أمريكا ، «عقدة فيتنام» ولدينا «عقدة اليمن» ، ولذلك تكتفى أمريكا وروسيا أيضا بالدخول من وراء دول عميلة . .

إسرائيل فى الشرق الأوسط ، وكوبا فى أمريكا اللاتينية ، وليبيا فى أفريقيا . .

وحاولت روسيا وأمريكا « الحد من الأسلحة» . وكانت خطب جميلة ، وسهرات رائعة ، أما الهدف الأمريكى فهو أن تكف أمريكا عن إرسال أسلحة إلى الصين ! . .

فالقضية - إذن - هى تقسيم أسواق السلاح بين الدولتين فى هذه الدول النامية ، أى ليست هى حسم النزاع بينهما ، ولا إشاعة السلام !

ولم يحدث فى العصر الحديث أن تجمعت كل القوى من كل لون وحجم ودين وعنصر فى مكان واحد ضيق ، كما حدث فى لبنان ، فالشعب اللبنانى عشرون جيشا والأسلحة الأجنبية أمريكية وسوفيتية ، وإذا كان من الصعب أن نصف ويلات الحاضر ، فإن من السهل أن نعرف احتمالات المستقبل ، سوف تحصل إسرائيل على ماتريد من حزام أمن حولها . . وسوف تورط فيه أمريكا ، ورغم حزام الأمن هذا فإن إسرائيل لن يتحقق لها أى نوع من الأمن . ولو استولت على العالم كله لطالبت بأن يكون «حزام الأمن» الذى يدور حول الأرض هو حزامها ضد

الكواكب الأخرى . . فإذا عرفت الزمن حولها ، فلن تعرفه داخلها ، فقد تجمعت الشعوب اليهودية فى إسرائيل لينهش بعضها بعضا ولتخسر فى غزوة واحدة مجنونة كل ما كسبته بالحوار والمفاوضة وادعاء العقل والحكمة . .

وسوف تتأكد خيبة أمل الشعب الفسلطينى مرة أخرى : خيبه أمله فى قياداته التى رفضت الواقع وتعلقت بالأوهام والعنتريات ، فلم تعرف لها صديقا ولم تدرك لها عدوا . . وخيبة أمل كبرى فى مواقف الدول العربية : من يملك المال ومن يملك الرجال . فقد اتفق العرب جميعا ولأول مرة فى تاريخ المشكلة الفلسطينية على عمل شىء واحد : ألا يعملوا شيئا لأنهم تعبوا فى إقناع القبائل الفلسطينية من كل لون ودين ومذهب وحجم . .

«فهل يستعير الفلسطينيون التائهون عبارة كان يقولها اليهود التائهون ألف سنة «العام القادم فى القدس » » .

لا أظن أنهم سوف يفعلون ذلك ، فإن إسرائيل هذه المرة أحوج إلى السلام مع العرب ومع العالم كله . . وقد جاء الدور عليها لتكفر عن «خوفها المرضى» و «جنونها التاريخى» . . و «أمنها الوهمى» تفرضه بالسلاح وتنقضه بالسلاح ، «وحبها بالإكراه» أى أن تكره شعبها على حب الآخرين ، وتكره الآخرين على حبها . .

إن الكاتب الأمريكى اليهودى أرثر ميللر عندما ألف مسرحية «بعد السقوط» قد اتهم العالم كله بأنه مجرم وليس هتلر وحده . . فمادام العالم كله قد شاهد مذابح اليهود فى معسكرات تربلنكا ودخاو وبلزق ، ثم سكت على ذلك ، فالعالم كله مجرم ، ولا أحد برىء . . ودم الشعب الفلسطينى فى كل يد وفى كل عنق . وإذا كان هتلر قد قتل اليهود لأنهم يهود ، فاليهود قتلوا العرب أيضًا لأنهم عرب . . وجريمة هتلر كانت وطنية مائة فى المائة ، فقد استخدم الأيدى الألمانية والأفران الألمانية والغاز الألمانى ، أما إبادة الفلسطينيين فجريمة تجار السلاح : إسرائيل الأيدى أمريكية السلاح سوفيتية الصلوات والدعوات . . عربية الصمت ! . .

من يقول للعراق ومن يسمع لإيران ؟

انتصر المسلمون مرتين فى الـ ٨٠٠ سسنة الماضية : فى « حطين » سنة ١١٨٧ بقيادة صلاح الدين ضد الصليبيين . .

وفى أكتوبر سنة ١٩٧٣ بقيادة أنور السادات ضد إسرائيل . .

وقد أجمع المسلمون على مقاومة العدو بكل قوة مادية وروحية . فانتصروا . ولم يكن المسلمون اكتشفوا بعد نظريتهم الجديد فى معنى « الإجماع » - أى إما أن نتفق جميعا وإما أن نختلف جميعا . مثلا : ٢ × ٢ كم تساوى ؟ فإذا قالت دولة واحدة عدد سكانها مائة ألف نسمة ، أى عدد المشاة فى شارع سليمان باشا ، إن الناتج = ٣ ، وجب فورا إلغاء جدول الضرب ووقف التعامل بعلم الحساب الذى هو أساس كل علوم الأرض والفضاء ، وأن نقطع العلاقات التجارية والدبلوماسية بيننا ومع العالم كله . .

وفى مواجهة الحملات الصليبية التى بدأت فى القرن الحادى عشر واستمرت ١٧٥ عاما ، كان المسلمون اشكالا وألوانا وأحجاما من التمزق والخوف والجهل . وعلى الرغم من أن الحملات الصليبية الثمانى . . الفرنسية والإنجليزية الألمانية لم تكن منظمة وإنما كانت «هوجة» برًا وبحرًا ، لم يستطع المسلمون وقفها . . فمات مئات الألوف من المسلمين وانهدمت المدن والقرى ، وهلك النبات والحيوان . .

حتى ظهر صلاح الدين . . فكان الرأس والرأى والقوة . فانتصرنا . .

وقبل نصر أكتوبر سنة ١٩٧٣ انهزم المسلمون فى حروب ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ وكانت معركة الحضيض العسكرية والمعنوية فى سنة ١٩٦٧ - فقد هرولنا ذاهبين ، ورجعنا هاربين . . انكشفت قيادتنا السياسية والعسكرية قبل ذلك فى حرب اليمن التى استنزفتنا - كما تستنزف القذافى حرب تشاد - فلا كان عندنا سلاح ، ولا قرار حاسم ولا روية واضحة ، ولا نحن نعرف من الذى نحاربه . . فقد دخلنا وخرجنا

من حرب لا نعرف منها إلا عدوا واحدا هو العرب الذين لم يؤيدونا ولم يتضامنوا معنا مع أن العدو الأول كان إسرائيل . . والعدو الثانى كان جهلنا ، والعدو الثالث كان تمزقنا العربى . . فكأننا انهزمنا قبل دخول الحرب - أى قبل أن ننهزم !

وقبل حرب أكتوبر كان الاستعداد العسكرى المصرى تاما ، علما وعملا . . وكان المسرح السياسى قد استعد لهذا الصراع . وكانت قلوب العرب تنزف خوفا علينا من الهزيمة - فنحن لم نعرف النصر ! وأغلق العرب أنابيب البترول وعرفت أوروبا وأمريكا شتاء مظلما باردا . وتأكد النصر الإسلامى ضد إسرائيل . وكان ذلك آخر عهدنا بالنصر . فلم يحدث شىء على الأرض العربية ، لا اتفقنا على خطة ، ولا انحلت لنا مشكلة ، ولا قامت دولة فلسطين على أرضها !

ومازلنا مشغولين بنفس المعادلة : مصر زائد الدول العربية كم تساوى ؟ . والدول العربية ناقص مصر كم تكون ؟

وأناس بالملايين سعداء بانعقاد المؤتمر الإسلامى فى الكويت . ولا أعرف لماذا !؟

أول غلطة : أن نعتقد أن هذا المؤتمر إسلامى لن تبحث فيه إلا قضايا الإسلام فى بلاد المسلمين ، وإلا قضايا الإسلام فى البلاد المسيحية واليهودية والبوذية . ومشكلة المسلسلات التليفزيونية وإباحة الخمور والجماعات الإرهابية . . ثم الخلافات بين السنة والشيعة والأكراد والدروز !

فهل هذا ما سوف يبحثه الزعماء المسلمون ؟ وهل الدماء على أرض لبنان والعراق وإيران وتشاد وأرتريا ومندناو بسبب الخلافات الدينية . . أو هى حروب أهلية ؟ وهل الدول الكبرى بعيدة سياسيًا واقتصاديًا عن الحروب فى أرض البترول والديانات على جانبى قناة السويس والخليج ؟

أليست الصورة التى أمامنا هى نفس الصورة التى كانت فى القرن التاسع عشر ؟ مناطق النفوذ تتنازعها دول الاستعمار القديم بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا والبرتغال ؟ يوم كان الصراع بينها على التوابل والأفيون والحرير والذهب وتجارة الرقيق وسن الفيل وجلد التمساح وريش النعام . . وكانت هذه الدول ترفع الصليب عاليا تبشر به بين المسلمين وبين القبائل البدائية - ولم يكن الدين إلا ستارًا كاذبًا تختفى وراءه وتحته أطماع الإقطاع الهابط ، والرأسمالية الصاعدة .

وعلى الرغم من أنه فى أعقاب الحرب العالمية الثانية أسقط أكثر من مائة دولة نصفها إسلامية ، فإن الدول الاستعمارية لم تترك هذه الدول دون مشاكل : دينية وعرقية وعائلية وطبقية . ودون أن تدفعها إلى الانقسام بعضها على بعض . .

وفى استطاعتك أن تضع أمامك خريطة الشرق الأوسط لتجد أن الصراعات على «الحدود» بين كل الدول المتجاورة – أكثر الحدود بلا علامات . فالهند انقسمت : الهند وباكستان . وباكستان انشطرت إلى باكستان وبنجلاديش . . وهناك خلافات على حدودها مع الهند . . ولا تزال المعارك بين أندونيسيا واريان الغربية . . وبين ليبيا وتشاد – وهو خلاف قديم بين إيطاليا وفرنسا . وبين الجزائر والمغرب . . وبين العراق وإيران على نهر شط العرب وبين أثيوبيا والسودان والصومال وكينيا . وبين السعودية واليمن . . وبين إسرائيل وكل جيرانها . . وبينها وبين مصر نموذج صغير للخلافات : طابا التى مساحتها ألف متر مربع . وإذا كانت طابا نموذجا للخلافات على الحدود ، فهى أيضا نموذج لكيف يكون الحل بالتفاوض . .

ولولا العلاقة الفريدة بين مصر والسودان لا تنتهت الخلافات إلى القتال . . فمن حين لحين تقع معارك فردية على حدود مصر والسودان . ولكن مثل هذه الخلافات تتضاءل أمام العلاقات الطيبة الأبدية بين الشعبين !

ومن المعروف مقدما أن هذا المؤتمر الإسلامى فى الكويت سوف يطلب وقف إطلاق النار بين المسلمين فى إيران والعراق . . ووقف المساعدات العربية للدولتين : فلا مصر تبيع سلاحا للعراق ولا سوريا وليبيا تعطيان سلاحًا لإيران . . ولا دول الخليج تدفع المليارات للعراق علنا ، وسرا لإيران ، أى أن المؤتمر الإسلامى سوف يتهم أعضاءه بأنهم يشعلون القتال بين إيران والعراق . . أى أن المطلوب من الحاضرين أن ينهوا الخلافات بينهم ، قبل أن يحاولوا ذلك بين إيران والعراق . أى أن يبدأ الأعضاء بأنفسهم قبل أن يبدأوا بغيرهم . .

ولما كان العرب شعوبًا تبنى نظرياتها على المغالطة والكذب وعلى الغش ، فليس بين العرب دولة واحدة لا تقوم بدور الشهيد . أما القاتل فهو دولة أخرى . . بعض الدول العربية تجاهر بأن «المتهم» مصر ، ولكنها سرًا تقول : بل سوريا .

أو أن القاتل هو القتيل : منظمة التحرير الفلسطينية . إذن فنحن أمام ثلاثة من المتهمين : الذى حقق السلام بلا حرب واسترد أرضه : مصر .

والذى أحرق لبنان ونشر الاغتيالات وابتز أموال العرب : سوريا .

ثم الذى يخاف ويخيف الجميع : الفلسطينيون . .

فهل يتفقون على إنهاء صراعاتهم التى أدت إلى تمزيق المسلمين والعجز عن استرداد الجولان والضفة الغربية والقدس وجنوب لبنان . . وعن التفاوض مع إسرائيل من أجل تقرير مصير الفلسطينيين على أرضهم ؟

كلنا يتمنى ذلك . ولكن ما أبعد المسافة بين الذى نتمناه والذى نقدر عليه . .

إن الرئيس الأسد رجل عنيد وإن كان يتظاهر بالمرونة السياسية وسعة الأفق !

أذكر أننى كنت وحدى أرافق الرئيس السادات فى مؤتمر الرياض . قلت للرئيس : هل لديكم مانع فى أن أقابل الرئيس الأسد ؟ فقال : حاول . .

وطلبت من السيد عبد الحليم خدام فوعدنى . ثم ذهب وعاد بعد دقائق ليقول : فخامة الرئيس غاضب لايريد !

وعرفت السبب . فقد كتبت ما سمعته من د . كيسنجر أنه عندما كان مكوكا بين دمشق وتل أبيب غلبه النوم من شدة الإرهاق . فلما أفاق بعد لحظات لم يتبين إن كان فى دمشق أو فى تل أبيب . فإسرائيل وسوريا تتكلمان لغة واحدة !

وغضب الرئيس الأسد . . فقد ضاق بهذه الحقيقة المضحكة !

ومن مائة سنة تخيل المفكر السورى عبد الرحمن الكواكبى لقاء بين المسلمين فى كتابه «أم القرى» أى مكة . هذا اللقاء يضم كل زعماء المسلمين .

والهدف : أن يفكر المسلمون فى مشاكلهم وأن يعالجوها .

وأهم ما فى هذا المؤتمر الإسلامى أن الكواكبى قد عرف أسباب الانهيار الإسلامى – أى انهيار المسلمين وليس الإسلام . .

أولا : فتور المسلمين . . أى بلادتهم وكسلهم . وحبهم للنوم والاسترخاء والقناعة بما لديهم . وإيمانهم بأن الذى عندهم هو أفضل مما عند الناس جميعا .

والثانى : التواكل . وإيمان المسلمين بأن كل شيء على الله . . هو الذى يقرر ويدبر . وليس على الإنسان إلا أن يرضى بما قسم الله : يأكل وينتظر الموت .

وسبب ثالث : هو أن المسلمين يهربون من المسئولية ، فكل واحد يلقى اللوم على غيره . . أما هو فليس مسئولاً عن شئ . بل هو ضحية جاره ، وجاره ضحية الحاكم .

وسبب رابع : الجهل . . فالمسلمون أميون غارقون فى الظلام . ومن جهلهم أنهم

يقبلون الظلم . وأنهم يهربون من الظالم إلى المستعمر . فإذا هم أحذية فى أقدام المستعمرين ، لأنهم أحذية ولأنهم يفضلون هوان الأجنبى على ظلم الحاكم المسلم . .

ومن رأى الكواكبى فى هذا المؤتمر الخيالى أن المسلمين «إذا» عملوا مخلصين حلوا مشاكلهم . . و «إذا» . . ألغوا بقرار واحد خلافاتهم ، فإنهم سوف يحققون النصر للإسلام ولأجيال قادمة – إذا !

وقديما بعث قائد عسكرى إلى ملك برسالة يهدده فيها قائلاً : إذا جئت إلى بلادك فسوف أحرق البيوت والزرع والحيوان وأقتل الأمهات وأذبح الأطفال ، وأربطك فى عربتى وأمسح بك الشوارع !

وكان رد الملك عليه بكلمة واحدة : إذا !!

«إذا» ياعم الشيخ عبد الرحمن . . يا رجل يا طيب . . ولذلك اقترح الكواكبى تشكيل لجنة من مائة عضو لدراسة انهيار المسلمين وحل مشاكلهم !

ولم يعش الكواكبى ليعرف أننا فى المائة عام التى مضت على وفاته قد عقدنا مئات اللجان واتخذنا ألوف القرارات !

إن المسلمين قد فقأوا عيونهم بأيديهم فهم لا يرون أن عددهم ٨٠٠ مليون نسمة . . وأنهم يمتدون من المحيط الأطلسى إلى المحيط الهادى . . وأنهم أغنياء يملكون آبار البترول وقناة السويس والبحر الأحمر ونصف البحر الأبيض وربع المحيط الهادى . . ولا يزال هؤلاء المسلمون يؤمنون بأن الذى يربطهم أو يجب ، هو الإسلام وحده ، وليست السياسة والاقتصاد والجغرافيا والتاريخ والعدو الاستعمارى الواحد . .

ومن يقرأ كتب التاريخ المكتوبة باللغة العربية يجدنا نصدق ما قاله المؤرخون الغربيون بأننا شعوب جاهلة وسوف نبقى كذلك . . مع أن التاريخ الغربى يؤكد لنا أنه فى عصور الظلام فى أوروبا كان الشرق الإسلامى يفيض بالنور فى كل مجالات المعرفة ، تكفى هذه الاسماء : الخوارزمى عالم الرياضيات الكبير ، والبيرونى الفلكى . . والفلاسفة : الفارابى وابن سينا وابن رشد . . والشعراء الفردوسى والخيام وسعدى وحافظ ونظامى ونوائى والجامى . . وغيرهم . . ويوهم

تباهى الغرب بأن فاسكو داجاما هو الذى دار حول رأس الرجاء الصالح ، لم يذكر العرب أن قائد سفينته كان بحارًا يمنيا عبقريا اسمه أحمد بن مجيد !

إن المسلمين قد نزعوا عقولهم بأيديهم ، ووضعوا مكانها عقولا مستعارة من أمريكا وروسيا . . فهم كالذين ركبتهم العفاريت . . عليهم أسياد .!

وفى ليلة فى مدينة حيفا فى الاحتفال الذى أقيم للرئيس السادات ، جلست إلى مائدة مع السيدين حسن التهامى وموشى ديان . والتفت ديان إلى التهامى يسأله : هل تريد أن ترى معالم إسرائيل ؟

فرد حسن التهامى بسرعة : نعم . . حطين !

وكانت صدمة مفاجئة لموشى ديان وزير الخارجية . ثم اتجه التهامى إلى الناحية الأخرى ، واقترب موشى ديان ليهمس : هل يستطيع العرب ؟

إن حسن التهامى يرى أنه بغير هزيمة ساحقة لإسرائيل مثل هزيمة الصليبيين فى حطين ، فلا استقرار فى العالم الإسلامى ولا سلام .

ويرى ديان أنه لكى يتحقق ذلك فلابد من الإجماع العربى ، وهو ما لم يستطعه العرب . وإذا حاولوا فلن يمكنهم الأمريكان وإسرائيل والدول الغربية . . وروسيا أيضا . فلابد من تفتيت العرب – انظر إلى لبنان . .

إذن فلن يبقى إلا التفاوض وأيدينا على الزناد . .

وإلا – للمرة الألف – فسوف يبقى المسلمون غارقين فى خلافاتهم وصراعاتهم من كل لون وحجم ولمئات السنين . . وتظل الحرب على الحدود بين إيران والعراق سنوات أخرى – وبذلك يكون عندنا أكثر من لبنان . . وهكذا نستنزف كل خزائن الخليج ، وينهار المسلمون بسبب الحرب والإفلاس ، فيزحفون على بطونهم يقترضون من أمريكا ومن الغرب ، ويتكرر ما حدث لمصر أيام الخديو إسماعيل : قروض من بريطانيا ومن فرنسا بلغت مائة مليون جنيه أى ما يعادل ثلاثة مليارات دولار ! وما حدث بعد ذلك نعرفه . . فالقروض والفوائد عليها ، والثمن الذى تطلبه الدول الغنية من الدول الفقيرة لم يتغير : الاحتلال الاقتصادى والتبعية السياسية .

فهل قرأ المسلمون تاريخهم ؟ وهل عرفوا إن كانت الحملات الصليبية قد توقفت ، وإن كانت الشعارات التى حملها الأوروبيون والأمريكان قد تبدلت . . وإن كان الهدف هو «قصقصة» الدول الإسلامية - أى تحويلها إلى قصاقيص سياسية . . وفتافيت اجتماعية . . وشراذم دينية . ودلاديل عسكرية ؟ . . هل عرفنا ذلك ؟!

اللهم اجعل قرارات هذا المؤتمر الإسلامى العظيم ، مخالفة لمخاوفى ، مكذبة لكل أوهامى ناسفة لكل يأسى !

وإن كنت على يقين من أننا نحن المسلمين تعلمنا من التاريخ : ألا نتعلم منه شيئا !

ولذلك فنحن على استعداد دائما لأن نرتكب نفس الأخطاء إذا تكررت أسبابها - ألف مرة ؟؟

فهل يا ترى بعد كل ذلك لانزال شعوب الفرص الضائعة ؟ !

* * *

كتب للمؤلف

(ا) ترجمة ذاتية:

١ - فى صالون العقاد كانت لنا أيام
٢ - عاشوا فى حياتى
٣ - الا قليلا
٤ - طلع البدر علينا
٥ - البقية فى حياتى
٦ - نحن أولاد الغجر
٧ - من نفسى
٨ - حتى أنت ياأنا
٩ - أضواء وضوضاء
١٠ - كل شىء نسبى
١١ - شارع التنهدات
١٢ - أمى .. ابنها !
١٣ - أول مرة

(ب) دراسات سياسية:

١ - الحائط والدموع
٢ - وجع فى قلب اسرائيل
٣ - الصابرا (الجيل الجديد فى اسرائيل)
٤ - عبد الناصر - المفترى عليه والمفترى علينا
٥ - فى السياسة (ثلاثة اجزاء)
٦ - الدين والديناميت
٧ - لا حرب ولا سلام فى أكتوبر
٨ - السيدة الأولى
٩ - التاريخ انياب واظافر
١٠ - الخالدون مائة - اعظمهم محمد رسول الله (ﷺ)
١١ - لعنة الفراعنة
١٢ - على رقاب العباد
١٣ - ديانات اخرى
١٤ - وكانت الصحة هى الثمن
١٥ - الغرباء
١٦ - الخبز والقبلات
١٧ - مواقف (٣ أجزاء)
١٨ - انتهى زمن الفرص الضائعة
١٩ - قال لى الرئيس
٢٠ - نار على الحدود

(ج) قصص..

١ - عزيزى فلان
٢ - هى وغيرها
٣ - بقايا كل شىء
٤ - يامن كنت حبيبى
٥ - قلوب صغيرة
٦ - فوق الركبة
٧ - هذه الصغيرة (وقصص اخرى)
٨ - عريس فاطمة
٩ - يوم بيوم
١٠ - أنها الاشياء الصغيرة

(د) نقد أدبى:

١ - يسقط الحائط الرابع
٢ - وداعا ايها الملل
٣ - كرسى على الشمال
٤ - ساعات بلا عقارب
٥ - مع الاخرين
٦ - شىء من الفكر
٧ - لو كنت ايوب
٨ - يعيش .. يعيش ..
٩ - الوجودية
١٠ - عذاب كل يوم
١١ - طريق العذاب
١٢ - وحدى .. ومع الاخرين
١٣ - مالاتعلمون
١٤ - لحظات مسروقه
١٥ - كتاب عن كتب
١٦ - انتم الناس ايها الشعراء
١٧ - أوراق على شجر
١٨ - فى تلك السنة
١٩ - دراسات فى الادب الامريكى
٢٠ - دراسات فى الأدب الالمانى
٢١ - دراسات فى الادب الايطالى
٢٢ - فلاسفة وجوديون
٢٣ - فلاسفة العدم
٢٤ - أظافرها الطويلة
٢٥ - كيمياء الفضيحة

(هـ) رحلات:

١ - حول العالم فى ٢٠٠ يوم
٢ - بلاد الله خلق الله
٣ - غريب فى بلاد غريبة
٤ - اليمن ذلك المجهول
٥ - أنت فى اليابان وبلاد اخرى
٦ - اطيب تحياتى من موسكو

٧ - اعجب الرحلات فى التاريخ

(و) مسرحيات كوميدية :

١ - مدرسة الحب
٢ - حلمك ياشيخ علام
٣ - مين قتل مين
٤ - جمعية كل واشكر
٥ - الاحياء المجاورة
٦ - سلطان زمانه
٧ - حقنة بنج
٨ - العبقرى
٩ - الكلام لك ياجارة . .
١٠ - شين ٣

(ز) مسرحيات مترجمة :

*** للاديب السويسرى ديرنات :**

١ - رومولوس العظيم
٢ - زيارة السيدة العجوز
٣ - زواج السيد مسيسبى
٤ - الشهاب
٥ - هى وعشاقها
٦ - هبط الملاك فى بابل

*** للاديب السويسرى فريش :**

١ - أمير الاراضى البور
٢ - مشعلو النيران

*** للاديب الفرنسى جان جيرودو :**

١ - من اجل سواد عينيها

*** للاديب الامريكى ارثر ميللر :**

١ - بعد السقوط

*** للاديب الامريكى تنسى ولياميز :**

١ - فوق الكهف

*** للاديب الامريكى يوجين اونيل :**

١ - الامبراطور جونس

*** للاديب الفرنسى يوجين ليونسكو :**

١ - تعب كلها الحياة

*** للاديب الفرنسى أداموف :**

١ - الباب والشباك

*** للاديب الاسبانى ارابال :**

١ - ملح على جرح

(ح) دراسات نفسية :

١ - الحنان اقوى
٢ - من اول نظره
٣ - طريق العذاب
٤ - الوان من الحب
٥ - شباب . . شباب
٦ - مذكرات شاب غاضب
٧ - مذكرات شابة غاضبة
٨ - جسمك لايكذب
٩ - اثنين . . اثنين
١٠ - الذين هاجروا
١١ - غرباء فى كل عصر
١٢ - اظافرها الطويلة
١٣ - هموم هذا الزمان
١٤ - الحب الذى بيننا
١٥ - عذاب كل يوم
١٦ - القلب ابدا يدق
١٧ - الا فاطمة (من الذى لا يحب فاطمة)

(ط) دراسات علمية :

١ - الذين هبطوا من السماء
٢ - الذين عادوا الى السماء
٣ - القوى الخفية
٤ - ارواح واشباح
٥ - لعنة الفراعنة

مقالات :

١ - شباب حائر
٢ - دعوة للابتسام
٣ - عندى كلام
٤ - لعلك تضحك
٥ - الحيوانات الطف كثيرا
٦ - احب واكره
٧ - تولد النجوم وتموت
٨ - ثم ضاع الطريق
٩ - هناك امل
١٠ - مصباح لكل انسان
١١ - اتمنى لك
١٢ - لعل الموت ينسانا
١٣ - اقرأ اى شىء
١٤ - ولكنى اتأمل
١٥ - نحن كذلك
١٦ - اللهم انى سائح
١٧ - الحب والفلوس والموت . . وأنا
١٨ - حتى تعرف نفسك
١٩ - آه لو رأيت
٢٠ - تعال نفكر معا
٢١ - كائنات فوق
٢٢ - ايها الموت لحظة من فضلك
٢٣ - هناك فرق

فهرس الكتاب

قال الرئيس السادات ٣
عن الشباب إلى الشباب : تجربتى المتواضعة لبناء الإنسان ١٥
حالة « التلقى » التى نريدها للجميع ٢٦
هذا هو المخاض ٤٢
استفتاء شعبى على معاهدة - الصلح ٦١
التطبيع . . وعلاقات أخرى ٧٦
فى حديث مع الرئيس مبارك ٩٢
مبارك وسياسة الجسور المفتوحة على كل الأطراف ١٠٣
الصراع بين آيات الله وجنرالات الشاه ١١٣
هذه السجادة العجمية لابد أن تتغير ألوانها ١٢٣
حتى لو عاد الشاه . . فقد تغيرت إيران ١٤٩
إيران فوق بركان . . من العدل والحق والدم ١٦٠
بدلاً من الإمام ١٧٢
السلام الآن حتى لاتصبح إسرائيل . . حارة كبرى لليهود ١٨٢
حتى لايجىء دجال قبل القيامة بيوم واحد ١٨٩
الذباب يجىء من الجانب الآخر دائماً ٢٠٧
مؤتمر معناه كما تأكل تكون ٢١٣
من الذى قال : إن إسرائيل تريد الخروج من لبنان؟ ٢٢٢
بدأ عصر الفلسطينى التائه ٢٣٠
من يقول للعراق ومن يسمع لإيران ٢٣٨

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨

الرئيس قال لى

وقلت أيضاً !!



أنيس منصور

قال الرئيس السادات :

- هنأت الرئيس ريجان.. على تسليحه للسعودية !!
- وافقت على أن يبنى الأمريكان قواعد للجيش المصرى !!
- فليأت شارون فى أى وقت وسوف نناقشه !!

سيادة الرئيس:

هل لو سألتك عن « الجديد » فى الموقف العربى. يكون هذا السؤال قديما.. أو يكون بلا معنى، لأن الموقف العربى قد بلغ درجة الهذيان.. فلا أحد يعرف له أولا من آخر، أو رأسا من ذيل.. إلا إذا كانت هناك تطورات لا نراها، واتصالات لا نعرفها، وأنها سوف تؤدى حتما إلى تغيير له معنى فى الموقف العربى ؟.. لقد سمعتك منذ أيام تتحدث إلى شخصية أوروبية وتقول إن الموقف العربى أقرب إلى ما يكون إلى مسرح اللامعقول..

أجاب :

هو كذلك مع الأسف الشديد. ولو كان الأمر يتعلق بتأليف مسرحى، أى أن يمسك الكاتب قلما ويتخيل ما يحلو له، لهان الأمر. ولكن فى الموقف العربى لا توجد أقلام إنما توجد مدافع وصواريخ، وأنها تكتب بالدم.. صحيح أن هناك أقلاما، ولكن هذه الأقلام تكتب الشيكات بمئات الملايين من الجنيهات، ثمنا للدماء العربية البريئة !..

سيادة الرئيس :

ألا ترى أن تعميم الكلام عن الشرق الأوسط ينال من مصر أيضا، وهى قمة الشرق الأوسط ؟.. ألا ترى أننا بذلك ندين مصر بأن موقفها هو الآخر غير معقول ؟..

أجاب :

نعم هذه إدانة لمصر. ويدهشك أن تعرف أننى طالبت العرب أن يدينوا مصر.. وأن يقولوا إن السادات أخطأ. لقد طالبت الرئيس حافظ الأسد بذلك قبل سفرى إلى القدس بيومين.

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨